واهتدت روحي إليك

لطيفة قرناوط

رواية

منشورات المثقف

واهتدت روحي إليك

لطيفة قرناوط

منشورات المثقف

واهتدت روحي إليك

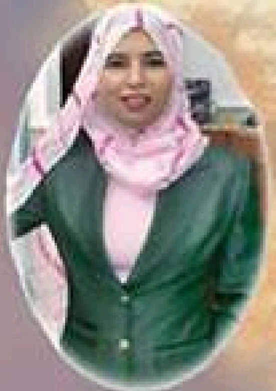

لطيفة قرناوط

لطيفة قرناوط .. من مواليد القصبة بالجزائر العاصمة حاصلة على ليسانس في العلوم القانونية و الإدارية وشهادة الكفاءة المهنية للمحاماة .. محامية معتمدة لدى المحكمة العليا صدر لها مجموعة قصصية مع دار المثقف للنشر و التوزيع بعنوان " نبض الأنوثة لا يموت "

شاركت في مجموعة قصصية بأقلام نسائية صادرة في مصر عن دار الشهد للنشر و التوزيع بقصة قصيرة بعنوان " حتى لا تحرق أجنحتي "

داخل الطائرة كانت سلمى تجلس رفقة زوجها، هذه ثاني سفرة لهما معا، وفي كلتا السفرتين كان الخوف رفيق سلمى ولعلّ الموت سيكون رفيقها في العودة، وهذا الرجل الذي يجلس بجانبها، أكان يجب أن يجمعهما هذا القدر، أكان يجب أن يزفها القدر إليه عروسا ظلت عذراء ليعيدها ميتة على يديه، أتراه سيعلم يوما أنها لم تخنه أبدا، أنها لم تكن له ولكنها لم تكن لرجل آخر، أتراها تستطيع إخباره، ربما في ساعاتها الأخيرة ستتخلى عن كبريائها، ستخبره أنها لم تكن له جسدا لكنها كانت له روحا وقلبا، أنها أحبته في النهاية، لكن شروط اللعبة التي وضعتها هي لم تستطع تعديلها، ربما كانت تنتظر معجزة لكننا لم نعد نعيش زمن المعجزات، ستزف العروس العذراء إلى عريس آخر، عريس اسمه الموت، لكن على الأقل سيمنحها القدر هدية الموت بين يدي الرجل الذي أحبته.

ISBN 978-9931-663-22-5

9 789931 663225

المثقف

Elmouthakaf2@gmail.com

لطيفة قرناوط

واهتدت روحي إليك...

رواية

الطبعة الأولى
السداسي الثاني 2017م - 1438هـ
ردمك: 978-9931-663-31-7
جميع الحقوق محفوظة لدار المثقف للنشر والتوزيع
العنوان: رقم 11 شارع الاستقلال - باتنة - الجزائر
هاتف: 86 73 49 675 213+ فاكس: 75 65 85 033
البريد الإلكتروني: elmouthakaf2@gmail.com

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من الناشر.
تصميم الغلاف: زياد مراس

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

إهـــــــــــــــــــــداء

أولا و دائما لوالدتي التي تنير دروب دنياي، لامرأة كانت و مازالت سراجا في ظلمة الحياة و قلبا دافئا في وسط برودة عالمنا، إليك دائما و أبدا أهدي حروفي و كلماتي .

إلى والدي الذي سأبقى دائما و أبدا مدينة له بحروف أبجديتي

إلى أشقائي و شقيقاتي، عائلتي و سندي في الحياة

لكل من دعمني حتى بكلمة و لكل من لم يدعمني حتى بدون أية كلمة، فمن منحني كلمة منحني قوة الاستمرار و من حرمنيها منحني قوة التحدي و الثبات

لكل من آمن بقلمي و شجعني على المضي قدما في عالم الكتابة

لصديقات في عالم افتراضي، شجعنني و هنّ يقنعنني بتميز حروفي

إلى عائلتي صغيرها و كبيرها، إلى كل من يعرفني

إلى أدراجي التي مازالت تحمل الكثير من بوحي الذي لم يطلع عليه أحد و لم يؤمن به أحد سواي.... إلى تلك التي ظلت تكتب و تكتب دون أن تمل أو تيأس على أمل أن ترى أحرفها النور يوما ... إلى نفسي المثابرة التي رفضت الاستسلام لليأس

إلى كل من قرأ أو سيقرأ يوما حرفا من أحرفي

أهدي روايتي هذه التي تحمل في طياتها واقعا مؤلما و أملا مفرحا

مــقـــدمـــة

الحياة رحلة طويلة أهمّ ما يميّزها وجود من يهوّن مُرها بجانبنا ويشاركنا أفراحها حتى نتذوقها ونتلذذ بها، أحيانا تضع الحياة الفرح أمام عينيك، لكنك تتركه مكابرا وتسعى للبحث عن فرح لا يخصك .

مفاهيم خاطئة تعلمناها في دنيانا تجعلنا نترك الحلال البين ظنا أن الحب لا يكون إلا إذا اصطادنا، بينما الواقع أنه يمكن أن يأتيك بسيطا سهلا، لكنك ترفضه لأنك ترفض أن تفتح عينيك لتراه، ترفض أن تفتح له أبوابك الموصدة، و كأنك تطرده، و عندما تفقده تدرك فداحة خطئك وعظم خسارتك، فهل ستمهلك الأقدار وتعطيك فرصة استعادته، أم أن الوقت يكون قد فات وقد تسرب هو من بين أيامك .

هي أقدار نعيشها ربّما لا نفهمها في البداية لكنها لم توضع عبثا لأننا لم نخلق عبثا، هي أخطاؤنا ندفع ثمنها لنطهرها أو ربما لتطهرنا هي .

سيارة حمراء فخمة بسطح مفتوح تقطع الطّريق مسرعة غير عابئة بمن حولها، توحي للرائي بثراء راكباتها ولامبالاتهن، بها أربع فتيات تتطاير شعورهن في الهواء وكذلك ضحكاتهن التي امتزجت بموسيقى تكاد تكون صاخبة، يظن من يراهنّ أن السّعادة المرسومة على وجوههن دليل سعادتهن، و الظن غالب أن المال يصنع السعادة دائما و كذلك الجمال، دون أن يدرك أن المظاهر غالبا ما تكون خادعة و أن القلوب قد تحمل هموما كبيرة والأقدار قد تخبئ أوجاعا يمكن أن تكون قاتلة، و أنّه لا المال وحده و لا الجمال يمكن أن يصنع السعادة .

أشار الشّرطي للسّيارة بالوقوف جانبا، نزل من دراجته النارية وطلب وثائق السيارة التي شرع في تفحصها و هو يقول :

ـ أهذه سيارتك ؟

ـ طبعا، أتظن مثلا أني سرقتها، الوثائق عليها اسمي وصورتي " سلمى كاميلي "

نظر الشرطي نظرة حادة إلى الفتاة وهو يقول :

ـ وتتحاذقين أيضا، يبدو أنك لا تقدرين حتى أنك أخطئت، لقد تجاوزت إشارة المرور دون توقف

ـ و إن يكن، الطريق فارغة والسيّارات جعلت لنسرع بها عندما نكون متأخرين

ـ حقا إنها معلومة جديدة

ابتسمت سلمى ابتسامة مصطنعة وهي ترد :

ـ فقد تعلمت شيئا جديدا اليوم

نظر إليها الشرطي شزرا، بينما ضربت ياسمين سلمى بقبضة يدها في أسفل خصرها كإشارة تنبيه واعتراض، وكانت أحلام ونادية في الخلف تتهامسان، فبينما كانت نادية تؤكد أن الشرطي سيسحب رخصتها، كانت تطمئنها أحلام أن والدها سيسترجعها بلا مشاكل .

عندما سمعتا صوت سلمى من جديد :

ـ اسمع، ما عليك إلا أن تحرر لي مخالفة، ستكون بذلك قد أديت عملك وأكون أنا قد ساهمت في إدخال مال للخزينة، هذا سيرضي الجميع

حدق الشّرطي في وجه سلمى يرى استهتارها ثم سألها :

أنت ابنة كاميلي، صاحب شركات كاميلي

ـ أجل هي أنا

ـ تعرفين، لطالما احترمت والدك لأنه رجل نزيه، لكن احترامي له قلّ لأنه ربّى ابنة مثلك

استشاطت سلمى غضبا وهي تسمع هذا الكلام بينما علا صوتها :

ـ أنت تتجاوز حدودك، ألا تعرف مع من تتحدث ؟

بينما كان الشرطي في غاية الهدوء وهو يسلمها وثائقها ومخالفتها ويخبرها أن رخصة قيادتها ستبقى محجوزة في مركز الشرطة، ثم ركب على دراجته النارية وانطلق

ـ لكن من يظن نفسه هذا الأحمق ليتحدث عن والدي هكذا

ـ جاءها صوت ياسمين محاولة تخفيف الوضع :

ـ دعك منه يا سلمى فقد انصرف

ـ الجبان كان عليه أن ينتظر حتى أريه ما سيفعله والدي به

أحسّت نادية أن وجه سلمى تغير لونه وملامحه وأن ما قاله الشّرطي سيفسد نزهتهن

ـ لا تدعيه يفسد يومنا يا سلمى، هيا انطلقي

ـ لقد أفقدني صوابي، لم أعد أرغب في الذّهاب إلى أي مكان

تدخلت أحلام في الحديث :

ـ أرجوك يا سلمى لا تدعيه يفعل بك ذلك

ـ لا، سأوصلكن وأعود إلى البيت، لم أعد أرغب في الخروج

لم تأتِ احتجاجات الفتيات بأية نتيجة ولم تستطعن إقناع سلمى بالبقاء معهن .

عندما وصلت سلمى إلى البيت، وجدت كلبتها من نوع الإسبتز "راشتا " في استقبالها عند الباب، ما إن رأتها حتى أسرعت إليها و قفزت بين ذراعيها، أخذت سلمى في مداعبة فروتها الكثيفة و الطويلة، ثم بدأت " راشتا " تلعق كف سلمى محاولة الوصول إلى وجهها وسلمى تمنعها

ـ لا يا راشتا، كفي عن ذلك، لست بمزاج حسن للّعب معك الآن

لكن الكلبة واصلت في الإلحاح مما أثار غضب سلمى التي صرخت في وجهها

ـ قلت كفى يا راشتا

توقفت الكلبة فجأة وقفزت إلى الأرض منكمشة تصدر صوتا يشبه الأنين

كانت سلمى تعرف هذه الوضعية جيدا و تفهم أن " راشتا " قد غضبت، نظرت إليها ثم ابتسمت جلست على الأرض أمامها و هي تقول :

ـ حسنا تعالي إلى هنا

قفزت " راشتا " بين ذراعي سلمى حتى أرجعتها إلى الوراء مسقطة إياها على ظهرها تلعق وجهها، بينما تضحك سلمى وهي تقول :

ـ أنت مخادعة، توقفي الآن هيا توقفي

وقفت سلمى أخيرا موجهة كلامها لراشتا

ـ إبقي هنا، لا تصعدي إلى فوق، فهمت

إنصاعت " راشتا " للأمر وتمددت مكانها، بينما اتجهت سلمى إلى الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني من الفيلا، طرقت باب إحدى الغرف وفتحته ثم دخلت مسرعة وارتمت في حضن والدتها و هي تقول :

ـ ماما حبيبتي لقد اشتقت إليك

ـ يالك من مخادعة، هل اشتقت إلي في أقل من ساعة

رفعت سلمى رأسها تنظر إلى والدتها وهي تبتسم

ـ يا إلهي ألم تشتاقي أنت إلي، لقد أخبرتني دائما أن الأم تشتاق إلى طفلها حتى وهي تراه

ضحكت الحاجة زكية وهي ترى شقاوة ابنتها ومكرها :

ـ هذا عن اشتياق الأم، نحن نتحدث عن اشتياقك أنت الآن

ـ فلنقل أني أعتبرك ابنتي، لذلك أشتاق إليك

ضحكت الحاجة زكية مرة أخرى وهي تقرص وجنتي سلمى بخفة

ـ أنت ماكرة، لا أستطيع أن أغلبك أبدا في الحديث

انفرجت شفتا سلمى عن ابتسامة عريضة، استدارت ووضعت رأسها على صدر والدتها ثم أخذت يد والدتها تحتضنها بين كفيها ووالدتها تسألها عن سبب عودتها باكرا

ـ أنا متعبة يا ماما

ـ لماذا يا حبيبتي مابك ؟

أطلقت سلمى زفيرا طويلا ثم قالت :

ـ لقد مللت حياتي كلها

وضعت أم سلمى يدها الثانية على شعر ابنتها وأخذت تلامسه وتداعبه وهي تقول مشفقة عليها من هذه الحالة التي هي عليها منذ تخرجها من الجامعة

ـ ولماذا ياحبيبتي، أنت فتاة شابة، جميلة ولديك أصدقاء كثيرون تقضين وقتك معهم وتستمتعين بالحياة، ما الذي ينقصك ؟

ـ كل يوم أرى نفس الأصدقاء ونذهب إلى نفس الأماكن ونتحدث في نفس المواضيع، لقد سئمت كل هذا

ـ و ما الذي تريدين فعله غير هذا ؟

ـ لا أعرف، المشكلة أنني لا أعرف

أحست الحاجة زكية بأن هذا قد يكون وقتا مناسبا لتفاتحها في الموضوع الذي كانت تنوي الحديث فيه معها هذا المساء

- و لما لا تتزوجين ؟ ستتغير حياتك عندما يصبح لك زوجا و أطفالا، ليس هناك شيء في الدنيا يضاهي إحساس المرأة بحب زوجها و بأمومتها

فجأة تركت سلمى يد أمها، عدلت جلستها وهي تنظر إلى والدتها

- حب زوجها، أليس مهما للمرأة أن تحبّ هي أيضا زوجها

- بلى يا حبيبتي، إذا كانت تحسّ بحبّ زوجها فستحبه هي أيضا

- يبدو أنه لم يعد هناك في هذا الزّمن رجل يستحق الحبّ

- لماذا تقولين هذا حبيبتي هناك الكثير من الشّبان الملتزمين، مثل سمير، ما رأيك بسمير ؟

سألت سلمى في تعجب وقد اشتمت رائحة المؤامرة التي تحاك ضدها :

- ومن سمير هذا ؟

- سمير إبن الحاج سيد علي، صديق والدك

- آه ومابه سمير

- يا بنيتي لقد فاتح والده والدك في أمر زواجكما و ..

قاطعتها سلمى متذمرة :

ـ و لم يجد هو الجرأة ليفاتحني

ـ البيوت تدخل من أبوابها يا صغيرتي وإن كان قد فاتح والده والدك، فهذا يثبت حسن نيته وسلوكه

ـ لكنني لا أعرفه ولا أحبه

ـ الحب يأتي بعد الزواج عزيزتي

ـ لا ماما، كان ذلك في زمانكم، لا يمكن أن أتزوج رجلا لا أحبه، كما أنك تعلمين أن كل أبناء أصدقاء والدي هؤلاء، يريدون الزواج بي من أجل مال أبي.

ـ يا بنيتي والد سمير رجل غني أيضا.

أجل وأنا فرصته في مضاعفة ماله، ثم ماذا يعرف سمير هذا عني حتى يخطبني، بالكاد رآني مرتين أو ثلاث.

ـ هذه المرات كانت كافية ليعجب بك، ثم أن هناك شيء اسمه الخطبة وستتعرفان فيها على بعضكما.

ـ آها، إذن سأكون حقل تجارب لمن يريد أن يتنازل ليتزوجني.

ـ ليس الأمر كذلك يا عمري، الخطبة شرع الله وهي لك وله، أنت أيضا ستقررين خلالها إذا كنت ستكملين معه أم لا

ـ ماما حبيبتي، أنت تعلمين أني أحبك جدا ولكن لن أتزوج من سمير هذا و لا من أي عريس يأتي به والدي.

ـ والدك لم يأت بأحد، هم من يخطبونك لأنك تعجبينهم.

ـ ماما، عندما أعجب أحدا لا يكون من معارف والدي وتكون له الجرأة الكافية ليسألني رأيي قبل أن يسأل والدي، حينها سأتزوجه لا تقلقي أنت واطمئني، وضعت قبلة على خد أمها واستدارت مرّة أخرى لتحتمي بحضن والدتها مما يؤرقها.

****

داخل شركة مالكي وابنه، كانت السّكرتيرة تطرق باب رئيسها، صاحب الشركة، فتحت الباب لتعلن أن السيد كاميلي يستأذن للدخول، وقف الرجل متجها إلى الباب و هو يخبرها أن صديقه لا يحتاج إلى الاستئذان، دخل سليمان و هو يرد :

ـ ليس الذنب ذنبها يا صالح، لقد أخبرتني بذلك لكن أنا من أصريت عليها

تعانق الرجلان وكل يربت على كتف الآخر ثم جلسا، يتبادلان الحديث والأخبار

ـ كيف حالك يا سليمان لقد اشتقنا إليك

ـ وأنا أيضا والله لكنك تعرف الأعمال وكيف حالك أنت

ـ نحمد الله على ما نحن فيه و كيف العائلة

ـ و الله يا أخي تلك البنت تكاد تفقدني صوابي

ـ سلمى ما الذي فعلته بك تلك الشقية ؟

ـ المشكلة أنها لا تفعل شيئا، مذ تخرجت من الجامعة و هي تائهة، تمضي أغلب الوقت خارج المنزل مع أصدقائها و لا تريد العمل معي، كما أنها ترفض كل خاطب يتقدم لها

ـ يا أخي إنها لاتزال صغيرة لما القلق ؟

ـ عمرها خمس وعشرون سنة يا صالح، كما أني إذا عشت لها اليوم، فمن يضمن أن أعيش لها غدا

ـ أطال الله في عمرك يا رجل، أنت لاتزال بصحتك

ـ دعك من هذا يا صديقي، هذا عندما نريد أن نكذب على أنفسنا، أنت تعلم أني أعاني من ارتفاع الضغط و السكر، أنا و أمها لم ننجبها إلا في عمر متقدم و لم ننجب سواها، إذا ما حدث لي شئ فأنا سأتركهما وحيدتان في هذه الدنيا، مع شركاتي و كل هذا المال الذي لا تعرفان عنه شيئا، كيف ستتصرفان، لقد كلَّ لساني و أنا

أطلب منها العمل معي لكي تفهم أمور الشغل و تتدبر أمرها بعدي، لكنها في كل مرة تتهرب من الأمر و كأن هذا المال لا يخصها

ـ أنت تتحمل جزءا من المسؤولية يا سليمان فقد أفرطت في تدليلها و لطالما حذرتك من ذلك

ـ أعلم ذلك يا أخي لكنني أردتها أن تتمتع بالحياة، و ما دام الله وهبني فلم أحرمها؟

ـ أنا لم أقل لك يوما أن تحرمها، وإنما أن تشعرها بنوع من المسؤولية وبتقدير ما لديها، أنظر إلى ابني محمد، رغم أن والدته توفيت و تركته لي صغيرا، إلا أنني كنت حريصا على تعليمه منذ صغره أن يتعب من أجل الحصول على ما يريده، أنت تعلم أنّ مالي كله سيعود إليه في النهاية، لكنني لا أريد أن يضيعه باستهتار أو لامبلاة .

ـ معك حق يا صالح وقد حظيت بابن رائع .

****

كان طارق جالسا مع لبنى في ركن هادئ في آخر المطعم، ينظر إليها غير مصدق أنها قبلت أخيرا الخروج معه للغداء، مرَّ عليه شهران وهو يتتبعها و يلحّ عليها وهي ترفض رفضا قاطعا، مذ رآها أول مرّة تتشاجر مع موظف الشّباك لأنه رفض منح امرأة عجوز ورقة إدارية لأن استمارتها لم تملأ جيدا، أخبرته العجوز أنها لا تجيد

الكتابة ولا القراءة وأن شابا كان هنا ملأها لها قبل أن يغادر، طلبت منه أن يعطيها استمارة أخرى ليملأها هو، لكنه أجاب بغلاظة أن ذلك ليس عمله وأنها تضيع وقته، تدخلت لبنى تقول له أن المرأة في مقام والدته ولا يضره شيئا مساعدتها أو على الأقل الحديث معها بطريقة جيدة، لكن الرّجل نظر إليها شزرا وأجابها ألا دخل لها في هذا الحديث الذي لا يخصها .

اشتعلت لبنى غضبا وأعطته درسا في الأخلاق أخرسه، كان طارق في البداية ينظر إليها مستعجبا، ثم تحول تعجبه إلى إعجاب بهذه المرأة النّارية المتمردة بعينيها المحمرتين غضبا رغم خضارهما وشعرها المرفوع في تجاهل بالنظارة السّوداء التي تمسك مقدمته عن السّقوط على عينيها، رغم بعض الخصلات المتمردة على جانبي وجهها، من غير وعي منه وجد نفسه يتبع سيارتها بسيارته إلى أن وصلت و دخلت بناية سكنية، بقي هنالك ينتظر بعض الوقت ويسأل نفسه كيف سيكون طعم هذا الصّيد الجديد .

عرف طارق أثناء هذا اللقاء أن لبنى طبيبة أطفال، تخرجت حديثا وبدأت ممارسة عملها منذ وقت قصير، رغم أنها خرجت معه في موعدهما الأول، لكنها لم تتكلف في هندامها و لم تضع الزينة إلا أحمر الشفاه بلون وردي فاتح، على عكس كل من خرج معهن من قبل كانت تبدو مختلفة حتى في حديثها، لم يكن صوتها رخيما متعمدا فيه الدلال لتفتنه كما عهد من رفيقاته قبلا بل كان واثقا تبدو فيه الندية التي تختلط بنعومة الأنوثة، فاجأته بتوجيه سؤال صريح لا يحتمل إلا جوابا صريحا :

ـ ما الغرض من خروجنا مع بعضنا ؟

إرتبك داخل طارق ولكن ذلك لم يظهر عليه، فلقد تعود السّيطرة على نفسه أمام رفيقاته و لم يكن يعطي وعودا تمسكها عليه واحدة منهنّ

ـ التعرف على بعضنا

ـ و بعد ؟

ـ لماذا تريدين استعجال الأمور، دعينا نعيش اللّحظة و نرى ما سيمنحه القدر لنا

ـ استقامت لبنى في جلستها ونظرت إلى عينيه تحاول قراءة شيء فيهما، لمحت شيئا يتراقص بداخلهما لم تستطع أن تجزم أكان اللّهو أم الفرح هو من يتراقص بهاتين العينين العسليتين

ـ اسمع يا طارق منذ شهرين وأنت تلّح للخروج معي في موعد وأنا أرفض، لا بد أنّك فهمت أنني لست من الفتيات اللائي تستسغن الخروج واللّهو مع الشّباب وتضييع الوقت، لذا فأنا سأمنحك ثلاثة مواعيد هذا أولها لتقنعني أنك جدي ولترغبني في الذّهاب معك بعيدا إلى أين تصل أيّة علاقة جدية بين رجل وامرأة .

سكتت قليلا تنتظر رده وهي ترى ابتسامته تنسحب من وجهه ثم أضافت :

ـ هذا إذا كنت جديا وإذا رغبت في المواصلة وإلا يمكنك الانسحاب من الآن.

نظر طارق إليها، حمل مفاتيح سيّارته ووضع نظارته يغطي بها عينيه ولبنى تنظر إليه متعجبة، وقف واستدار ماشيا تاركا إياها فاغرة الفم غير مصدقة لما يحدث .

خطى طارق بعض خطوات ثم نزع نظارته واستدار ينظر إليها، انفرجت شفتاه بابتسامة عريضة وهو يحاول جاهدا منع ضحكته أمام منظرها ذاك، عاد بخطوات مسرعة وجلس إلى الطاولة وهو يقول:

ـ كنت أمزح، كانت مجرد دعابة.

أمسكت لبنى المنديل الذي كان مطويا على الطاولة ورمته على وجه طارق

ـ أول قاعدة : لا أحب الدّعابات

اختفت ابتسامته في جديّة واضحة وهو يقول :

ـ أول قاعدة : لا أحبّ أن تقلّل امرأتي من احترامي

نظرت إليه في تحد وواصلت:

ـ ثاني قاعدة : لا أحب أن تناديني كذلك

أجاب بنظرة تماثل نظرتها المتحدية :

ـ ثاني قاعدة : أعدك أنك ستحبين ذلك.

أجابته بنفس النّبرة دون أن تشيح بعينيها :

ـ ثالث قاعدة : لست امرأتك

أجابها دون أن يرمش له جفن :

ـ ثالث قاعدة : ستصبحين امرأتي

فتحت فمها لتجيبه

ـ راب ...

لكن صوت النادل قاطعهما :

ـ أتريدان شيئا آخر

نقل النادل نظراته بين طارق ولبنى ينتظر جوابا، لكنه أدرك من نظراتهما المتبادلة أنه جاء في وقت غير مناسب، استغل طارق الفرصة ابتسم للبنى وهو يسألها :

ـ أتريدين شيئا آخر، لديهم تحلية " تيراميسو " لن تجدي مثلها في أي مكان آخر

نظرت إليه غير مصدقة قدرته على قلب الأمور في ثانية، من التشنج إلى الابتسام وكأن شيئا لم يكن

ـ لا شكرا

نظر هو إلى النادل

ـ إثنان " تيراميسو "

ثم حول نظره إليها وهو يضيف في ابتسامته السّاحرة التي يستعملها عندما يريد إقناع أنثى وإخراس احتجاجاتها :

ـ لن يضرك في شيء تذوقه .

****

كان صالح جالسا في مكتبه مع ابنه محمد، يتبادلان أخبار العمل والورشات عندما أخبره والده أن البنك رفض منحهما القرض الذي طلباه، بحجة أن الضمانات غير كافية وقيمة القرض كبيرة، بدت عضلات وجه صالح مشدودة و هو يحاول السيطرة على قلقله أمام ابنه، و يخبره بضرورة إيجاد حل آخر بأسرع وقت، بادره محمد بالقول :

ـ لقد فكرت أنه ربما بإمكاننا أن نطلب من كاميلي الدخول كشريك مؤقت معنا في بعض المشاريع.

ـ لكن سليمان رجل لا يحب الشراكة، كما أنه لا يحتاج لذلك أعماله تكفيه

ـ أعلم ذلك يا أبي ولكنه صديقك ورجل مضمون ليس هناك خطر المشاكل من جهته وربما سيرضى باستثمار ماله معنا لحل أزمتنا

ـ لا أظنه يوافق، ولا أظنني قادر على أن أطلب منه ذلك

ـ دعني إذن أتحدث معه أنا

ـ هو صديقي و لن يكون الأمر مناسبا أن أبعث له بولدي للتحدث معه في أمر كهذا

ـ إذن أذهب أنا معك، سنعرض عليه الأمر على أنه مشروع له أن يوافق و له أن يرفض

ـ بالمناسبة لقد زارني اليوم

ـ كاميلي ؟ و كيف حاله

ـ يشكو من ابنته سلمى

ـ لماذا ؟

ـ إنها ترفض العمل معه في الشّركة وترفض الزواج وكما تعلم هو ليس له وريث سواها

ـ لطالما أفرط هو في تدليلها، لماذا يفاجأ الآن أنها لا تملك أي حسّ بالمسؤولية

ـ ربما لأن العمر يتقدم به

ـ كان يجب أن يفكر في ذلك قبلا

كانت الحاجة زكية والحاج سليمان جالسان على طاولة العشاء في انتظار نزول سلمى

ـ هل فاتحتها في الموضوع

ـ أجل، وهي ترفض الزواج به كالعادة

ـ هذه البنت ستفقدني عقلي يوما

ـ اصبر عليها يا حاج لازالت صغيرة ولا يمكن أن نضغط عليها في هذا الموضوع بالذات

ـ ربما خطأنا أننا لا نضغط عليها في أي موضوع، هل أخبرتموها أن العشاء جاهز

ـ نعم لقد أخبرتها سعدية مرتين، لكنها عادتها ..ألا تعرفها ؟

ـ لكنها عادة سيئة وهي تعرف أن الإنتظار يثير غضبي

ـ سعدية .. سعدية

ـ نعم يا حاج

ـ اصعدي إلى سلمى واطلبي منها النزول أخبريها بأنني غاضب جدا

ـ حسنا يا حاج

طرقت سعدية الباب ثم دخلت، كانت سلمى مستلقية على سريرها وعينيها معلقتين بالتلفاز تشاهد فلما أمريكيا بينما ترقد راشتا على حجرها

ـ ألا تملّين من مشاهدة هذه الأفلام يا بنيتي

ـ وما يمكنني فعله غير هذا

ـ والداك ينتظران على طاولة العشاء، ووالدك غاضب جدا

قفزت سلمى من سريرها وهي تقول :

ـ إلاّ غضبه، لقد نزلت

نزلت درج السلم ركضا واتجهت إلى حيث يجلس والدها وهي تبتسم :

ـ لقد أتيت، أخبرتني سعدية أنك غاضب.

نظر سليمان إلى ابنته محاولا ألا يبتسم، فلقد كانت سلمى نقطة ضعفه وكانت مجرد رؤية وجهها يبتسم يضفي السّرور على قلبه

ـ نعم أنا غاضب، هل يصح أن تتركيني أنتظر هكذا إلى أن يبرد الأكل ؟

وقفت سلمى وراء كرسي والدها انحنت قليلا وأحاطت عنقه بذراعيها مقربة رأسها من رأسه

ـ أنت تعلم أني لا أستطيع أن أتحمل غضبك، لقد نسيت نفسي وأنا أشاهد الفلم

ـ هاته الأفلام التي لا تنتهي.

ـ ليس هناك شيء آخر أفعله

وضع سليمان كفّيه على يدي سلمى وهو يقول:

ـ يمكنك الذهاب معي إلى الشّركة، هناك الكثير لتفعليه

ـ أبي أرجوك لقد تحدثنا كثيرا في هذا الموضوع وأنت تعرف رأيي فيه

ـ لكنه مالك، كل هذا سيؤول إليك بعد موتي

ـ وضعت سلمى قبلة على رأس والدها وقالت :

ـ أطال الله في عمرك يا والدي، لا تقل هذا الكلام

ـ لكنها الحقيقة يا بنيتي، يوما ما طال العمر أو قصر ستضطرين لتولي كل هذا، يجب أن تتحضري لذلك.

ـ لكن الوقت لايزال مبكرا على ذلك

عند ذلك تدخلت الحاجة زكية في الحديث وهي تعرف أن هذه المناقشة لن تفضي إلى أية نتيجة

ـ دعنا نتعشى الآن يا حاج فقد برد الأكل.

ـ أخذت سلمى كرسيا وشرعت في الأكل عندما سمعت صوت والدها يقول :

ـ لقد زرت اليوم صالح

ـ أبو محمد

ـ نعم يا زكية، إن ابنه يتولى كل أعماله الآن، لقد خفف عليه محمد جزءا كبيرا من المسؤولية

ـ لطالما كان هذا الولد صالحا، أمازال هادئا كما كان

ـ لقد رأيته قريبا، هودائما بنفس ذلك الهدوء والأدب

ـ تقصد بذلك الملل والرتابة

لم تستطع سلمى منع كلماتها من الخروج من فمها و لم يستطع سليمان منع نفسه من لومها

ـ ليس لك حق في هذه، إنه ولد هادئ ومسؤول يقل أمثاله في هذا الزمن

ـ لا أقصد الإساءة يا أبي، لكن طالما كانت تصرفاته و سلوكه يجعلناه يبدو أكبر من عمره

ـ وماذا تريدينه أن يفعل ؟

ـ أن يعيش حياته كما يعيشها كل الشباب الذين في سنه .

ـ تقصدين أن يطيل شعره و يعلق حلقا في أذنه وسلاسل في رقبته مثل الكلاب، أو أن يتمايل في مشيته و يترك سرواله متدليا، أو ربما يقضي حياته في اللهو والسهر

أجابته سلمى مستنكرة

ـ ليس هذا ما يفعله الشباب.

ـ و كأني لم أرهم!

ـ ليس كل الشّباب هكذا، كما أن هذا ليس ما عنيته، إنما هو جدي جدا وحازم إلى درجة تثير الغضب، على كل هذا ما أذكره منذ آخر مرة رأيته فيها مراهقا صامتا بشعر أشعث

ـ لا تنسي يا بنيتي أنه يتولى أعمال والده على صغر سنه، فهو لم يكمل الثلاثين من العمر ويتعامل مع أناس أكبر منه، عليه أن يكون جادا و صارما حتى يفرض على النّاس احترامه

ـ وهكذا تريدني أن أكون عندما أعمل معك

ـ أنت تجدين الحجج دائما من أجل التّهرب من العمل

تدخلت الحاجة زكية مرة أخرى :

ـ دعونا نكمل هذا العشاء الذي طال

دخل محمد المطعم أين اعتاد اللقاء فيه مع صديقه طارق، الذي كان يجلس في المكان المعتاد في آخر الصالة، توجه إليه وما إن رآه هذا الأخير حتى ابتسم واقفا مصافحا إياه.

ـ الثامنة تماما مواعيدك مضبوطة دائما يا أخي.

ـ و أنت تأتي دائما قبل الوقت يا صديقي.

ـ إني أملك وقتا فائضا أتريد أن أقرضك.

ـ أقرضني مالا لو استطعت.

ـ أنا أقرضك مالا، ما أنا إلا موظف يعمل لديك.

ـ قلت لك عدة مرات أنت تعمل معي وليس لدي.

ـ أنت تدفع راتبي وهذه هي الحقيقة، على كل ما حكاية المال هاته

ـ لقد رفض البنك منحنا القرض الذي طلبناه وأمورنا سيئة، لا توجد سيولة كافية لدينا

كان محمد يتكلم و يده تتحرك على وجهه و على جبينه ثم يمسك عينيه بإصبعيه ضاغطا عليهما وآثار التعب والإرهاق بادية عليه وهو يضيف :

ـ يبدو أنني دخلت في مشاريع كثيرة دون أن أحسب حساباتي جيدا، لقد نفذت السلع تقريبا والمشاريع لم تنته، لقد اعتمد والدي علي ولكنني خذلته.

ـ الغلطة ليست غلطتك، لقد اعتمدت على انتهاء مشروع "الشراقة " و"بني مسوس " و دخول السيولة عبرهما، لكن التأخر في الدفع هو من وضعك في هذا المأزق، كما أن والدك وافق على كل خطوة قبل أن تخطوها.

ـ لأنه وثق بي

ـ لقد تعرضت لمشكل يمكن أن يقع فيه أي أحد الذنب ليس ذنبك

مرت الجلسة كلها في الحديث عن هذا المشكل ذلك الذي كان يشغل كل تفكير محمد ويؤرقه، لم يكن يرى من حل إلا قبول كاميلي بدخول الشراكة معهم و قبل ذلك قبول والده بطلب ذلك من صديقه .

****

كانت سلمى تجلس مع صديقتها ياسمين و رفيقتيهما نادية و أحلام ساكتة لا تتكلم عندما سمعت ياسمين تسألها :

ـ ما بك يا سلمى لم أنت صامتة، هذا ليس من عاداتك

ـ لا أعلم أظن أنني أعاني من اكتئاب

صرخت نادية من هناك في استفهام و تعجب :

ـ ومن أين يأتيك الإكتئاب

ـ مللت هذا الروتين الذي أعيشه

قالت أحلام و هي تتعجب من هذا الذي تسمعه :

ـ الروتين، نحن نخرج كل يوم و نذهب إلى أماكن مختلفة

ـ لكننا لا نفعل شيئا سوى الأكل والحديث الفارغ

أجابتها نادية :

ـ و ماذا تريدين أن نفعل غير ذلك ؟

ـ شيء مفيد يغير روتين حياتنا

جاءها صوت أحلام ساخرا :

يمكن أن ننضم إلى جمعية رعاية الطفولة أو ربما العجزة

ـ لن يقبلوا بك، ستفسدين الأطفال وحتى العجزة

ردت عليها ياسمين، ثم أكملت موجهة حديثها لسلمى :

ـ لما لا تعملين مع والدك فهو يلح عليك منذ زمن؟

ـ لا أريد ذلك، من كثرة ما ضغط علي في هذا الموضوع سئمته قبل أن يحدث، أظن أنني لن أفهم شيئا من تلك الأعمال، سأجلس على مكتب طيلة اليوم حتى يقتلني الضجر

أضافت ياسمين في قلق واضح على حالة صديقتها :

ـ ربما لو حاولت لوجدت الأمر مختلفا، كما أنك ستتعلمين مع الوقت

ـ ربما العمل مع والدي هو ما يخيفني

جاءها صوت أحلام في استغراب

ـ مع والدك ؟

ـ نعم أنت تعلمين أنني ابنته المدللة كيف سيتحول إلى رئيسي في العمل، لا يمكنه أن يكون صارما معي، و لا يمكنني تحمل ذلك و سأفشل في الأمر، و أنا أكره الفشل

ـ لما لا تتزوجين ؟

ـ يا إلهي حتى أنت يا نادية ؟

سألت أحلام :

ـ ماذا، أهناك خاطب جديد ؟

ـ نعم واحد آخر من أصحاب والدي الذين لا ينتهون

سألتها نادية في فضول :

ـ ما اسمه، هل هو وسيم، هل تعرفينه ؟

ـ اسمه سمير، وسيم، لكنه ليس الرجل الذي يمكنني الارتباط به

نظرت إليها ياسمين مستفسرة :

ـ لماذا ما عيبه ؟

أخذت سلمى نفسا عميقا وهي تغمض عينيها ثم فتحتهما وردت في صوت هادئ بنبرة حزينة

ـ لا أريد أن أتزوج بهذه الطريقة الرجعية، أحيانا أحس أن هناك لعنة تلاحقني، لا أحد يقترب مني أنا سلمى وفقط وليس ابنة كاميلي، أريد رجلا يشعرني بأنوثتي، يشعرني أني امرأة، يركض ورائي و يقلب الدنيا حتى أقتنع به رجل يُفتن بي، يُأخذ بي أنا بغض النظر عمن يكون والدي ..رجل يجعلني أفتن به .

كانت الفتيات صامتات وهن تسمعن هذا الكلام الذي قلما يصدر عن سلمى، عندما قاطعتها ياسمين قائلة :

ـ ربما لو وافقت على الخطبة من أحدهم سيتطور الأمر ليصبح هكذا

نظرت سلمى إليها و هزت رأسها نفيا وهي تجيب :

ـ لا، كل هؤلاء الخطاب بالكاد يعرفونني، لا أذكر أني قرأت في عيني أحدهم نظرة شوق أو إعجاب، تعلمين عندما يريدك رجل ما فتتحرك عيناه إليك رغم أنه واقف في مكانه، عندما تصلك دقات قلبه وأنت في الطرف الآخر من الغرفة، عندما يخبرك كلاما وأسرارا من غير أن تتحرك شفتاه، عندما يأسرك حضوره فيفرغ المكان من الناس إلا منكما، رجل يعرف ما أحب و ما أكره دون أن أخبره بذلك، أريد رجلا يريدني أنا، رجل يقتلني و يحييني بنظرة منه، أريد رجلا يختصر فيَّ نساء الأرض لأختصر فيه رجال الكون بأكمله .

فاجأها صوت أحلام شاهقا :

ـ يا إلهي لم أكن أعرف أنك رومنسية هكذا، ظننت دائما أنك لا تبالين بالحب

ـ أتظنين يا أحلام أني لا أملك قلبا يحس مثلكن

ـ لم أقصد ذلك و لكنني لم أعهدك هكذا فأنت قلما تتكلمين عن الحب

أحست سلمى بالحرج و الضيق، فهي نادرا ما تفتح قلبها هكذا خاصة أمام أحلام و نادية

ـ فلننسى الموضوع

****

كان تفكير لبنى منشغلا بهذا الطارق الذي اقتحم حياتها دون أن يستأذن أو يطرق الباب، وجدته في حياتها يشغل فكرها، صحيح أن أول موعد انتهى أقل تشنجا مما بدأ، لكنها خرجت منه بقناعة أن طارق رجل عنيد، مغرور، صعب لأي امرأة السيطرة عليه، وسيم بشكل ملفت للأنظار و هو يعلم ذلك جيدا و يستغله، وسيم بشكل يجلب المشاكل لأية رفيقة بجانبه حتى لو كانت جميلة هي أيضا، حضوره ساحر و ابتسامته فاتنة، كما يبدو ألا امرأة من قبل أعطته درسا في كيفية التعامل مع الأنثى و هي لا تريد إضاعة حياتها في ترويض رجل مثله، لا تريد أن تقضي عمرها تعاني من نار غيرة تسكنها و هو لا يفعل شيئا بثقته الزائدة في نفسه ليطفئ نار المرأة التي ترافقه بل يستلذ باللهو بأعصابها، لا تعرف كيف يمكن أن يكون إذا أحب امرأة، هل سيتغير من أجلها، لكنها لا تريد المجازفة ستكمل له مواعيده الثلاثة ثم تنسحب دون أضرار، فقد بدا لها واضحا وضوح الشمس أن هذا الرجل ليس هو الرجل الذي تنتظره لتحبه و تكمل حياتها و أحلامها معه، هي تريد رجلا متعقلا متزنا يمكنها أن تعيش معه هانئة مطمئنة لا يهمها حتى إن كان وسيما أو لا، لا يهمها شكله بقدر ما يهمها معدنه و أخلاقه، تريد رجلا يكتفي بها و يرى فيها الحياة، لم تكن لبنى تلك الفتاة الحالمة، بسنواتها الثماني و العشرين تعلمت مع مرور الزمن أن الحب أسطورة قد ماتت منذ أزمنة فاتت و رحلت، كانت تؤمن أن الزواج هو تعود و مودة و أن الحب الذي يحكون عنه في المسلسلات الأجنبية ما هو إلا كذبة ترويجية، لضمان أعلى مشاهدة و لم تكن هي من متتبعي هذه المسلسلات التي تصل إلى مئتي حلقة أو يفوق، كانت تعتبر ذلك مضيعة للوقت بل للعمر .

هي كانت فتاة جميلة و هي تعرف ذلك، مذ تجاوزت سنوات مراهقتها أدركت أن الرجال يقعون تحت تأثير جمالها، لكنها ترفض الارتباط برجل لا يرى فيها إلا وجها و جسدا، لذا ورغم طلبات الزواج الكثيرة إلا أنها تتريث دائما و ترفض الخضوع لضغط والدتها، هي لا تريد أن تتزوج لتطلق بعد سنة أو سنتين، لا تريد أن تنجب أطفالا في وسط عائلة مفككة، كان الزواج بالنسبة إليها مسؤولية كبيرة لأنه مؤسسة غير محددة المدة تتطلب أسسا متينة لتستمر وتنجح، لذا كان من أهم شروط نجاحها اختيار الشريك المناسب، و يبدو "طارق " للوهلة الأولى غير مناسب إطلاقا كشريك .

****

في المساء كان محمد و طارق يجلسان داخل المطعم في مكانهما المعتاد يتبادلان السمر وأخبارهما اليومية

- كيف كان موعدك ؟

- جيد بما يكفي لإثارة فضولي

- آآ، ما الذي فعلته هذه المسكينة لتوقع نفسها بين مخالبك

ارتفعت ضحكة طارق عالية وهو يمرر أصابعه على لحيته الشقراء الصغيرة المحددة بإتقان مبالغ فيه و يقول :

ـ مغرورة وعنيدة وتظن أن بإمكانها وضع قواعد معي

ـ ألن تتعقل يا رجل لقد بلغت الثلاثين من عمرك ومازلت تطارد النساء كحيوان لا يمكنه العيش إلا على طعم فرائسه.

رسم طارق الجدية على وجهه وهو يقول :

ـ لا تنعتني بالحيوان ثم أنني لا أرغم أية واحدة منهن على أي شيء، كل واحدة تقابلني تضع في رأسها أنها ستغيرني وتجعلني حملا وديعا وعاشقا متيما

ـ و بما أنك تعرف أنك لن تصبح كذلك فلماذا تدخل في هذه العلاقات أصلا ؟

أجاب طارق وهو يبتسم :

ـ لأنني أعيش حياتي مازلت شابا والحياة أمامي، فلماذا أسجن نفسي من الآن مع امرأة واحدة في حين أنني قادر على نيل ما أريد من النساء

ـ لأن جزءا من روحك يضيع مع كل امرأة تضيعها، عندما تتعرف على المرأة المنشودة لن تجد شيئا تمنحه إياها .

كان طارق يتهرب دائما من الخوض في عمق هذا الموضوع وهو يعرف التزام صديقه واعتكافه عن مصاحبة النساء فرد متهربا :

ـ أنا لا أورط امرأة معي إلا برغبتها هي.

ـ عندما تضع عينيك على امرأة تحاصرها ولا تترك لها الفرصة حتى تستسلم، هذا إرغام من نوع آخر .

ـ لأن تلك حقيقتها وهي لا تنتظر إلا من يكشف عنها الغطاء وأنا أقدّم معروفا للرّجال بكشفهن

ـ طارق يوما ما ستدفع ذنب كل امرأة ذبحت مشاعرها باستهتارك هذا .

في الغد كان محمد ووالده داخل شركة " كاميلي " لإنجاز مهمتهما الحرجة، ما إن أطل وجه صالح من باب مكتب سليمان حتى سمعه يقول وهو متقدم إليه فاتحا يديه :

ـ أهلا بك يا صديقي كم تسرني رؤيتك

تعانق الرجلان وصالح يرد :

ـ أهلا بك يا أخي!

ـ هل أنت محتاج لأخذ موعد حتى تأتي لزيارتي ؟

ـ أنا أعرف أنك مشغول، كما أردت أن أضمن وجودك.

نظر سليمان إلى محمد قائلا :

ـ كيف حالك يا محمد، لقد مرّ زمن على آخر زيارة لك لمكتبي!

رد محمد وهو يمد يده لمصافحة سليمان :

ـ بخير يا عماه، كيف حالك أنت.

لكن سليمان فتح يديه وهو يقول :

ـ ذات مرة كنت تعانقني لتسلم علي، أم لأنك أصبحت رجل أعمال تغيرت عاداتك الحسنة ؟

عانق محمد سليمان وهو يضحك مجيبا :

ـ لا والله ياعماه، و أنا أعتذر عن هذه.

ـ لا بأس عليك يا ولدي.

ربت سليمان على كتف محمد وهو يشير إلى الأرائك في آخر المكتب، طلب بعدها ثلاثة فناجين قهوة من سكريتيرته، وضعها السّاعي بعد لحظات على طاولة المكتب وأخذ الثلاثة يرتشفونها من فناجينهم و يتبادلون الأخبار.

ـ كيف حال الأعمال معك، أخبرني والدك أنك أصبحت تتولى أغلب أعمال الشركة، هو فخور جدا بك !

أحس محمد لأول مرة في حياته بأن هذه العبارة تؤلمه بدل أن تسعده وهو يتذكر سبب وجودهما عند كاميلي، لكنه ردَّ مبعدا هذه الأفكار التي تهدد بتشتيت تركيزه :

ـ إذا كان من شيء حسن بي فالفضل كلّه يعود لوالدي

ابتسم صالح وهو يسمع هذا الحديث، فلقد كان فخورا فعلا بولده وهو يعلم أن هذه الظروف الصّعبة التي تمر بها الشّركة ليست بخطإ من محمد، إنّما الظروف التي عاكسته ولكن محمد لم يكن يعرف ذلك وكان يتصور أن والده في أعماقه يحمّله مسؤولية ما حدث رغم أنه لا يخبره ذلك صراحة.

جاء صوت صالح قاطعا تفكير محمد :

ـ كيف حال الحاجة، وسلمى

ـ الحاجة بخير وسلمى لا تزال على حالها، جاءها خاطب جديد ورفضته كالعادة ورأيها لم يتغير حول العمل معي.

ـ امنحها بعض الوقت يا سليمان ربما هي ليست مستعدة الآن

ـ على كل ليس لدي خيار آخر فلا يمكنني إجبارها على شيء

ساد الصمت لبضع دقائق وكل يرتشف القهوة من فنجانه، نظر صالح لابنه كأنه يحتاج لمن يسانده حتى يبدأ حديثه الذي جاء من أجله فأشار له محمد بعينيه مشجعا

ـ في الحقيقة يا أخي لقد جئتك اليوم في عمل.

ـ أي عمل هذا ؟ هل يمكنني أن أساعدك في شيء

ـ في الحقيقة ...

سكت صالح محرجا و كأنه لا يجد الكلمات التي يبدأ بها ثم أضاف مسترسلا

ـ لقد دخلنا في عدة مشاريع مرة واحدة وكان من المفروض أن تدخلنا سيولة لاتمامها، لكن الدفع تأخر ونحن نحتاج إلى هذه السّيولة لاكمال المشاريع فكما تعلم نحن مقيدون بالوقت ...

جاء صوت سليمان مقاطعا كأنه فهم قصد صديقه وأحس بإحراجه :

ـ إذا أردت يمكنني أن أقرضك المبلغ الذي يكفيك إلى حين حلّ الأزمة.

حين ذاك تدخل محمد في الحديث وهو يرى إحراج والده :

ـ لا يا عماه إنما فكرنا في أنه يمكنك الدّخول معنا كشريك في هذه المشاريع، أقصد بمالك فقط و ستكون لك نسبة من الأرباح في نهاية كل مشروع.

كان محمد يتحدث وسليمان ينظر إليه مصغيا ثم أشاح بوجهه موجها كلامه لصالح:

يمكنني إعارتك المال تعيده متى أردت و الفائدة لكم، أنتم أحق بها.

ـ لا يا عماه نحن نحتاج إلى سيولة مضمونة ولا يمكن تقديرها حاليا، لذلك يلزمنا شريك متوفر بالمال متى احتجناه.

كان سليمان قد حول ناظريه إلى محمد عندما بدأ الحديث، وداخله معجب بهذا الفتى الذي أصبح رجل أعمال وهو يتذكره طفلا صغيرا خجولا ومراهقا هادئا، ثم وجّه كلامه مرة أخرى لصديقه الذي يعرف جيدا عزة نفسه :

ـ أعطيك المال من دون فائدة يا رجل نحن صديقان.

ـ يسرني أن آخذه على سبيل الشراكة، ذلك سيريحني أكثر يا صديقي.

ـ حسنا إذن كما تريد فأنا لن أضغط عليك.

رضخ سليمان مضطرا مراعاة لصديقه، وقف متجها إلى مكتبه ثم عاد يحمل دفتر شيكاته، جلس وفتحه على الطاولة وهو يقول :

ـ كم تحتاج ؟

جاءه صوت صالح محرجا :

ـ دعنا نحضر العقود أولا.

رفع سليمان نظره ثم قال مبتسما :

ـ أظن أنني سأتعامل مع ابنك أحسن، كم تحتاج يا محمد ؟؟

ـ خمسة ملايين دينار كدفعة أولية .

ـ هكذا هم رجال الأعمال، عمليون ولا يضيعون الوقت.

ملأ سليمان الشيك وأمضاه ثم سلمه لمحمد

ـ شكرا لك يا عماه سنحضر العقود ونضع فيها نسبة فائدتك عشرون بالمئة.

هز سليمان رأسه نفيا وهو يقول لا تضع أكثر من خمسة بالمئة ولا أريد المفاصلة في هذه

ـ لكن يا صديقي هذا قليل جدا!

ـ دعك من هذا يا صالح أتركنا نحن صديقين بينما الأعمال بيني وبين ابنك، أليس كذلك يا محمد

رد محمد مبتسما :

ـ يسرني ذلك يا عماه ولكن خمسة بالمئة نسبة قليلة فعلا!!

ـ تلك نسبة كافية جدا لي و لن أرجع عنها أو أناقشها.

وقف صالح يهمّ بالمغادرة وهو يقول :

ـ شكرا لك يا سليمان نعم الصديق أنت.

ـ لا تشكرني يا أخي أنا لم أفعل شيئا ..

ـ بل فعلت الكثير، سننصرف الآن لقد أخذنا من وقتك

ـ لا تقل هذا تسعدني جدا رؤيتكم

جاءه صوت محمد من هناك :

ـ يجب أن ننصرف فعلا فالأعمال لا تنتظر

ـ حسنا سأنتظر زيارتكم قريبا.

صافح سليمان صالح ومحمد مرافقا إياهما إلى الباب، عندما فتح الباب مودعا ضيوفه وقعت عيناه على شخص ينتظره جالسا

ـ سلمى حبيبتي ماذا تفعلين هنا ؟

وقبل أن تجيب أكمل :

ـ تعالي حبيبتي

وقفت سلمى متجهة إليه وضعت قبلة على خده الأيمن، بينما ضمها هو إلى حضنه ثم أمسكها من مرفقها قائلا :

ـ أنت تتذكر ابنتي سلمى يا صالح

مدت سلمى يدها مصافحة

ـ كيف حالك يا عماه

ـ طبعا أتذكرها، كيف حالك يا ابنتي مرّ وقت على آخر مرة رأيتك فيها لقد كبرت وأصبحت عروسا

كانت مثل هذه العبارات ما يثير انزعاج سلمى، وكأن جميع أصحاب والدها لا يرونها إلا عروسا لأبنائهم كصيد ثمين لا يجب تضييعه.

ـ وهذا محمد أتذكرينه

نظرت سلمى إلى محمد الذي مدّ يده، فتصافحا بينما كان ينظر إلى عينيها مباشرة وابتسامة سجينة على جانب فمه لا يريد تسريحها، وكأن هذه الابتسامة استفزتها فلم تستطع منع كلماتها

ـ أذكر ذلك المراهق الخجول صاحب الشعر الأشعث.

ارتفع حاجبه الأيسر وهو يجيب

ـ وأنا أذكر صاحبة الضفائر المشاغبة

ـ وكأن الفتاة لم ترق لك

سألته مستفزة كعادتها عندما لا يعجبها شخص ما، حتى و ولو كان ذلك دون أي سبب

ردّ عليها دون أن يشيح بنظره أو يبتسم.

ـ أذكر أنها كانت عنيدة ومجنونة ولا تكف عن إزعاج الآخرين

استفزتها كلماته الصّريحة فردت متناسية وجود والديها بقربهما :

ـ وأنت كنت صامتا ورفقتك مملّة للغاية

تدخل سليمان في الحديث وهو يعرف جنون ابنته.

ـ وها قد كبرتما أنتما الاثنان فدعانا من هذا الحديث.

ـ حسنا يا أخي سنتركك الآن سنحضر العقود وأتصل بك

ـ خذ وقتك يا صالح لا شيء مستعجل

نظر محمد إلى سليمان موجها كلامه :

ـ إلى اللقاء يا عمي.

ـ إلى اللقاء يا ولدي

حوّل نظره إلى سلمى خافضا رأسه في انحناءة صغيرة دون أن يبتسم

ـ آنستي

بينما لم تجب وهي تنظر إليه، كان بإمكانها أن تدخل معه في مباراة استفزازية لولا وجود والده ووالدها، صحيح أنها فوجئت بمحمد الذي تراه الآن، رجل أنيق

بوسامة رجولية خشنة حافظ على سمرته السّابقة لكن البثور اختفت من وجهه، شعره الأسود مصفف بطريقة مرتبة لا تشبه تسريحات آخر صيحات المودة ولكنه يناسبه وعيناه مازالتا قاتمتين بلون سواد الفحم مع لمعة غريبة في وسط بؤبؤهما، لقد رأته سابقا من بعيد منظره كان يعطيه أكثر من عمره، وحزمه وجديته كذلك لكن وهي تراه من قريب هكذا يبدو مختلفا جدا خاصة عن المراهق الخجول الذي كانه يوما.

انصرف صالح ومحمد ودخل سليمان وابنته المكتب

ـ ما الذي جاء بك عزيزتي

ـ كنت أمر من هنا فدخلت لرؤيتك، ماذا كانا يفعلان هنا ؟

ـ جاءا في زيارة عمل سنصبح شركاء

ـ و هل تحتاج الآن إلى الدخول في شراكة؟

ـ لا يا عزيزتي، لكن محمد هذا يعجبني كثيرا ويمكن للمرء الاعتماد عليه، كما أني أفكر في إمكانية توسعة الشراكة معه لاحقا.

ـ يبدو أنك تثق به كثير !

ـ أنا أعرف والده جيدا واسم محمد في السّوق موثوق به، لقد صنع هذا الفتى لنفسه سمعة ومهابة في وقت قصير، عجز البعض عن صنعها في عمر بأكمله

سكتت سلمى وعيناها سارحتان بعيدا، نظر إليها والدها مستفسرا :

ـ ما الذي جاء بك حقا ؟ إلى أين كنت ذاهبة ؟

ـ لا أعلم كنت أسير وفقط

أمسك سليمان كفّ ابنته بينما يده الأخرى ترفع رأسها بسبابته تحت ذقنها، ليقرأ في عينيها حيرة و ضياعا يلازمانها منذ فترة

ـ ما بك حبيبتي أخبريني سبب هذه الحيرة التي في عينيك ؟

طأطأت سلمى رأسها من جديد محاولة الهروب من نظرات والدها، لكنه رفع رأسها مرة أخرى وقال :

ـ أنا والدك ياعمري، يمكنك إخباري بأي شيء، أنت تعلمين أنه يمكنني تفهم كل ما تخبرينني به، وسأفعل أي شيء لمساعدتك.

أحسّت سلمى بالحاجة إلى التحدث إلى والدها، لكنها لم تكن تعرف فعلا ما الذي أصابها، فهي منذ فترة تعاني من هذا الضياع ولا تجد للحياة طعما أو هدفا.

ـ لا أعلم يا أبي أنا تائهة، أحس أنني خلقت في هذه الدنيا دون فائدة، أيامي كلها تمر متشابهة حياتي فارغة أحاول ملأ وقتي بالرفقة والخروج والنزهات، لكنني في النهاية أجد أن الفراغ لم يملأ إلا بفراغ آخر، أحس أنني بدون فائدة.

كان سليمان يحسّ بضياع ابنته، فمنذ أن تخرجت من الجامعة وهي في رحلة بحث عن الذات والطريق الذي سلكته لم يكن الطريق المناسب لذلك، لكنه لم يستطع إرغامها على العودة منه، أرادها أن تذهب إلى منتهاه وهو يراقبها وهو يعلم أنّها ستعود في النهاية عندما تجد الطريق مسدودة أمامها، ويبدو أنها تعود الآن.

- حبيبتي، لم لا تبدئين العمل، إذا كنت لا تريدين العمل معي هنا يمكن أن أجد لك عملا في مكان آخر، صدقيني عزيزتي العمل سيغير حياتك ويشعرك بفائدتك، جربي ولن تخسري شيئا، إذا لم يعجبك الأمر يمكن أن تتوقفي، لا أحد سيرغمك على شيء!

لطالما سمعت سلمى من والدها دعوة العمل معه، في قرارة نفسها كانت تحس أنه على حق لكنها كانت خائفة، لم تجد من رد الآن سوى قولها :

- دعني أفكر في الأمر ثم أرد عليك ..

- وقف سليمان وأوقف ابنته ثم عانقها وهو يقول :

- دعينا نخرج من هنا سآخذك في نزهة، ليس كنزهات أصدقائك لكنها ستعجبك

ضحكت سلمى وأمسكت يد والدها وهي تجيب :

- و من يمكنه أن يطال شرف النزهة مع سليمان كاميلي بجلالة قدره

أجابها ضاحكا وهو يضع قبلة على رأسها :

ـ أميرته الصغيرة

****

في موعدهما الثاني كانت الأمور أكثر هدوءا، فقد قرر طارق في قراراة نفسه أن لبنى ستكون فريسته الجديدة وهو أسد لا يقبل بفرار فريسة يشتهيها بهذا القدر، لذا قرر استعمال أسلحته التي طالما نجحت مع غيرها من النساء، رغم أنها نوع مختلف يحاول إيجاد أوجه شبه بينها و بين من سبقنها، لكنه لا يجد إلا وجها واحدا كلهن " نساء"، لكنه كان يقر في قرارة نفسه أنها امرأة مختلفة عن كل من عرفهن قبلها وهذا كان يثير جنونه وتحديه، كانت شرسة لا تخشى تضييعه من بين يديها، لا توافقه في كل شيء لترضيه، واثقة لا تبدل أي جهد في إغرائه و إغوائه، و كأن الأمر لا يعنيها، بل أسوأ من ذلك وكأنها لا تريده ولا تهتم برضاه من عدمه، لا يمكن لغروره أن يسمح بذلك، هو الرجل الوسيم الذي طالما أبكى نساءً كثيرات لأنه هجرهن، هو الرجل الخبير الذي لم تقاومه امرأة أرادها من قبل، لن تكون هي الأولى، لأن طارق الفتى الوسيم الأشقر بخبرته الطويلة مع النساء لا يمكن أن يهزمه غرور وعناد امرأة .

أخذها إلى مطعم جديد هذه المرة، كان ديكور الجلوس فيه أرائك طويلة منحنية من الجانب بحيث يمكنه الجلوس أمامها و ليس مقابلا لها، أخرج من كيس كان يحمله معه وردة حمراء ملفوفة في ورق شفاف وهو يعلم ولا يفهم حب النساء لهذه التفاهات الصغيرة، حيث يمكن أن تطير امرأة سعادة إذا قدمت لها وردة تذبل و

تموت بعد ساعات قليلة، تقرأ الواحدة منهن في هذه الوردة بلونها الدامي اعترافا لم يقله هو و لا تستطيع أن تحاسبه عليه لاحقا، لو أجادت النساء قراءة العلامات لعرفت أن من يهديها وردة حمراء، لا بد أن يدمي قلبها سريعا بذبول شهوته كما تذبل هذه الوردة ، هكذا كان يرى هو الأحمر لكن النساء عقلهن صغير، قدمها إليها في لهجة مغلفة بالاعتذار :

ـ كانت أحسن حالا عندما اشتريتها

أمسكتها مبتسمة وهي تقول :

ـ هي مثلي لا تحب أن يقطفها أحد ويخفيها في الظلام

وصله المعنى دون جهد تفكير وفاجأته ردة فعلها، هذه المرأة ذكية بشكل مثير للإهتمام نوع جديد لم يقابله قبلا، كل استراتجياته تتهاوى أمامها، لا بد أن يجد مفاتيحها، عليه فقط أن يصبر عليها قليلا، لم يرد الخوض في موضوع مستقبل علاقتهما، ذلك سلاح لم يكن يريد اقتناءه أصلا

ـ دعينا نطلب الغداء

كان الأكل شهيا كالعادة، لكن الجديد أن طارق كان مندهشا أمام رفيقته التي كانت تتناول الطعام بكل أريحية، لا تفتعل وضع لقيمات صغيرة في فمها، لا تفتعل الشبع بسرعة، بل كانت تملأ فمها فتتشكل كرة صغيرة على خدها وهي تمضغ الأكل غير مبالية بوجوده ولا بنظراته، كان منظرها هكذا جديدا عليه، لم يخرج من

قبل مع امرأة تأكل بهذه الطريقة، ليست شرهة ولكنها تأكل مثل الناس العاديين، ابتسم وهو ينظر إليها و يراقب حركة شفتيها المتراقصتين في سمفونية متناغمة النوتات.

ـ لماذا تبتسم هكذا ؟

انشقت شفتاه عن ابتسامة أعرض وهو يقول :

ـ منظرك شهي وأنت تأكلين

ـ تغاضت عن كلمة " شهي " وكأنها لم تسمعها

ـ هل ستنظر إلي هكذا بدل أن تأكل ؟

غمزها وهو يقول :

ـ أشتهي أكلك أنت

وضعت فرشاتها على حافة الصّحن و أمعنت النظر إليه وهي تقول :

ـ لا أصلح أكلا للحيوانات المفترسة

توقعت أن تغضبه الجملة فينتهي موعدهما، بل وعلاقتهما التي لم تبدأ بعد، لكنها فوجئت بضحكته العالية ترن في أنحاء المطعم ملفتة إليهما الأنظار

ـ ومن أخبرك أنني حيوان مفترس

لم تستطع منع نفسها وهي تجيب :

ـ كل شيء فيك يوحي بذلك

ـ مثل ماذا ؟

دحجته بنظرة غاضبة وهي تتساءل في داخلها لماذا ورطت نفسها بقبول الموعد الثاني، رغم أنها أدركت منذ البداية أنها لا تريد الذهاب معه بعيدا، آن لهذه المهزلة أن تتوقف، أبعدت صحنها عنها وضعت كلتا كفيها على الطاولة و هي تقول :

ـ شكلك الأشقر يوحي بذلك، هندامك المرتب بشكل مستفز و ضحكتك الرنانة التي لا تخشى شيئا، عيناك العسليتان المغرورتان في خبث واضح، كلماتك المستبدة التي تعتبر الأنثى "امرأتك " ووقاحتك في إعطاء نفسك حق اشتهاء أنثى بالكاد تعرفها ..

انفجر ضاحكا لكن بصوت أخفض هذه المرة وهو يقول :

ـ كل هذا عرفته في موعدين يبدو أن امرأتي صارت تعرفني جيدا!

زفرت في وجهه غاضبة :

ـ لست امرأتك ..

تراقصت ابتسامته وهو يقول :

ـ اعترفي أني لست مملا

ـ أنت مستفز.

ـ وأنت تبدين لذيذة جدا عندما تغضبين.

ـ وأنت وقح وبارد لأنك لا تغضب حتى وأنا أشتمك.

اختفت ابتسامته فجأة، التفت إليها بجسده محاصرا إياها بنظراته التي أخافتها وأربكتها، ينظر إلى وجهها المخملي يراقب خصلات شعرها المتناثرة وشفتاها الورديتان يكاد يقسم أنه رأى عليهما رجفة بالكاد ثم اختفت، حاولت هي تمالك نفسها، هما في مكان عام لا يمكنه أن يضربها أمام الناس، استجمعت شجاعتها تهم بإعلامه بانصرافها لكنها فوجئت بشفتيه تنفرجان ووجهه يقترب منها، أدركت قبل اللقاء بثوان أنه ينوي تقبيلها، انتفضت راجعة إلى الوراء، فلم تصل شفتاه إلا والصفعة قد سبقتهما.

حملت حقيبتها، دفعت الطاولة وخرجت مسرعة، بينما كانت مفاجأته كبيرة جعلته لا يشعر حتى بنظرات من حوله، وضع يده على خده يتحسس مكان صفعتها غير مصدق أن امرأة، امرأته هو تجرأت وصفعته.

****

ـ ماذا فعلت يا ولدي ؟

ـ حولت المال واشتريت السلع

سكت محمد ثم واصل في صوت متأسف:

ـ سنفقد خمسة بالمئة من فائدة كل مشروع، لكن ذلك لا يعني ضياع فائدتنا وأعدك أنني لن أخذلك مرة أخرى.

كان صالح يسمع كلمات ابنه غير مصدق، وقف فجأة وأمسك ابنه من كتفيه وهزه بقوة ينظر في عينيه و يقول:

ـ أنت لم تخذلني يوما وأعلم أنك لن تفعل أبدا، لأنك ابني الذي ربيته ، هذا الذي حدث لم يكن بخطأ منك أو تقصير، إنما حسابات أفسدها من لم ينفذ التزاماته، هذه هي التجارة و أنت منذ توليك الأعمال معي في الشركة ارتفعت أرباحنا و تضاعف رأسمالنا، أنا أثق بك ولا أريد أن يهز شيء في العالم ثقتك بنفسك أفهمت .

ـ نعم يا أبي

كان محمد يسمع والده و يحس بعضلات قلبه المقبوضة تسترخي على وقع هذا الكلام، فقد كان أشد ما أتعبه في هذا الأمر أن يفقد ثقة والده به، فبرغم ما وصلت إليه سمعته كرجل أعمال قوي و ناجح إلا أنه مازال في حضرة والده فتى يطلب رضاه و فخره .

ـ أنت فتى صالح و رجل أعمال ناجح ومميز، لا تدع أحدا يقنعك بالعكس أبدا

ابتسم محمد ابتسامة راحة وطمأنينة وهو يقول :

ـ أنا ابن صالح مالكي وهو علمني أن أكون ما أنا عليه

ضحك صالح وهو يجيبه :

ـ لا تنسى ذلك إذن.

بعد عدة أيام وصلت السلعة المطلوبة ووزعت على ورشات العمل، كان محمد ينتقل من مشروع لآخر ليتأكد من حسن سير الأشغال ومن كفاية السلع المسلمة، شاكرا الله الذي أنقذهم من هذه الورطة، طلب عمال إضافيين وهو ينوي مضاعفة الجهد والعمل حتى لا يتأخر في مواعيد تسليم المشاريع .

****

داخل غرفتها و على سريرها، كانت سلمى تفكر في كلام والدها، ربما ستطلب منه أن يجد لها عملا في مكان آخر، لكنها متخوفة فهي لا تفهم شيئا في مجال الأعمال، صحيح أن دراستها كانت في قانون الأعمال و التجارة الدولية لكنها تعرف أن التطبيق بعيد جدا عن النظري، هي لا تريد أن تعمل مع والدها ليعاملها الجميع هناك على أنها ابنة صاحب العمل، لن تستفيد شيئا لأن لا أحد سيجرؤ على أن يقول هذا الذي فعلته غير صائب، كانت تائهة في تفكيرها، عندما دخلت راشتا مسرعة و قفزت عليها و بالكاد وجدت الوقت لفتح ذراعيها وتلقيها

ـ يا إلهي راشتا لقد أخبرتك عدة مرات ألا تفعلي بي هذا، كدت تخدشين وجهي

لكن الكلبة أصدرت نباحا كأنها تعتذر و بدأت في لعق وجه صاحبتها، ثم سحبت رأسها و بدأت تحركه يمينا و شمالا و كأنها فهمت أن صاحبتها ليست في حالة جيدة

ـ ما بك يا راشتا لماذا تنظرين إلي هكذا ؟

نبحت الكلبة مرة أخرى

ـ أجل أنا قلقة.

أصدرت الكلبة نباحا آخر متقطعا.

ـ ليتني كنت أعلم ما بي !

أصدرت راشتا نباحا آخر لكنه كان طويلا، ضحكت سلمى و هي تقول :

ـ أعدك راشتا عندما أعلم ما بي سأخبرك.

أخذت راشتا في النباح و كأنها تؤكد ذلك و سلمى تضحك، أحيانا تدخل في حوارات معها وتحس أنها تفهمها بل و ترد عليها، يبدو لها الأمر جنونيا، لكنها تعشق كلبتها و هاته العلاقة المميزة التي تجمعها بها

****

في المساء كان طارق ومحمد يجلسان على طاولتهما المعتادة

ـ إذن ما جديدك مع امرأتك

اختفت الابتسامة فجأة من وجه طارق و ارتفعت يده من غير إدراك، تتحسس خده بظاهر أصابعه، صك على أسنانه ثم أجاب في ضيق واضح :

ـ تلك المغرورة الغبية، ما عليها إلا أن تنتظر لترى كيف سأربيها.

ـ ما الذي فعلته المسكينة ؟

تشنجت ملامح طارق وهو يرد :

ـ هي أبعد ما تكون عن المسكينة، الوقحة صفعتني على خدي

فتح محمد عينيه دهشة

ـ أقسم أنها فعلت

رد طارق و الغضب يعتريه :

ـ لا داعي لأن أقسم لك، لست مجنونا حتى أدعي أن امرأة صفعتني

نظر إليه صديقه غير مصدق ما يسمعه، ثم انفجر ضاحكا وهو يسمع صوت طارق الغاضب :

ـ توقف عن الضحك يا محمد

عندما توقف محمد عن الضحك قال في هدوء :

ـ و أخيرا وجدت أنت من ستربيك

نطق طارق زافرا

ـ أنا من سيربيها، سأعلمها كيف تتعامل مع الرجال

ـ بربك ماذا فعلت لها ؟

أدار طارق عينيه محاولا الهروب من نظرات صديقه

ـ لا شيء

ـ هي مجنونة إذن، تصفعك دون سبب، اعترف هيا ماذا فعلت لها ؟

ـ حاولت تقبيلها

لم يستطع محمد تمالك نفسه من الضحك وهو يتخيل منظر صديقه ساعتها

ـ تستحق ذلك، والله إنها امرأة تستحق أن ترفع لها القبعة

كز طارق على أسنانه وهو يقول :

ـ ترفع لها القبعة، سأرفع لها ضغطها والسكري ودقات قلبها، سأرفع لها أدرنالينها وأفقدها صوابها، ما عليها إلا أن تنتظر و سترى ما سأفعله بها.

تحول وجه محمد إلى جديته المعهودة وهو يعرف ما هو قادر عليه صديقه عندما يتعلق الأمر بصيد النساء.

ـ دعك منها يا طارق، يبدو أنها ليست من نوع نسائك اللاتي تعودت مطاردتهن، المرأة لم تفعل شيئا سوى أنها صانت نفسها منك.

سكت طارق و هو يعرف جدية صديقه في مثل هذه المواضيع، فلطالما كان محمد ضد سياسته في معاملة النساء وضد علاقاته المتعددة، ولكن داخله كان يتوعد تلك الحمقاء التي تجرأت على رفع يدها على طارق صبراوي .

****

كانت سلمى تجلس في حديقة الفيلا وراشتا على ركبتيها تداعبها وتحدثها، عندما بدأت سلمى في محادثة كلبتها بدى لها الأمر جنونيا لكنها تعودت على ذلك، بل وأصبح الأمر يريحها، تتذكر عندما فاجأت حديث والدتها مع والدها حول هذا الأمر، كانت تسأله إن كان الأمر طبيعيا وتخبره أنها تخشى على ابنتها لدرجة أنها طلبت منه عرضها على الطبيب، تدخلت سلمى في الحديث تؤكد لوالدتها أن الأمر طبيعي وأن من يملكون حيوانا أليفا يعتبرونه مع مرور الوقت صديقا وتنشأ بينهما

علاقة خاصة ومع مرور الوقت ألفت الحاجة زكية، كما الجميع رؤية سلمى تكلم " راشتا "

ـ أتعلمين يا راشتا أحيانا أتمنى لو كان والدي فلاحا، خبازا أو نجارا أو عاملا بسيطا أو أي شيء آخر ماعدا أن يكون صاحب شركات ورجل أعمال.

أصدرت الكلبة نباحا و هي تنظر لصاحبتها.

ـ أعلم أنه رجل رائع و أنا أريده هو لكن بدون أمواله الكثيرة، فالناس لا يرون إلا ماله ومن ثمة لا يرون فيَّ إلا وريثة هذه الثروة.

نبحت الكلبة مرة أخرى.

ـ تصوري يا راشتا لو كان والدي رجلا بسيطا، كنت سأذهب إلى المدرسة و الجامعة في الحافلة و أضطر أحيانا كثيرة للمشي، ربما كنت وجدت عملا لمساعدة والدي، كنت تعرفت على أناس آخرين يصادقونني لشخصي وربما وجدت بينهم رجلا أحبه ويحبني كما أنا، لكانت حياتي مختلفة تماما.

أصدرت راشتا صوتها المعتاد الذي يشبه الأنين، ابتسمت سلمى وهي تنظر إليها وتتخيل حياتها لوكانت هكذا.

ـ ربما حتى كانت والدته لن تقبل بي كعروس لابنها ووالده يرفض أن يضع يده في يد والدي الفقير و كنا سنتحدى العالم من أجل حبنا، أتظنين أنه كان سيتحدى

والديه من أجلي ؟ إن لم يفعل فهو لا يستحقني، لكنه من ناحية أخرى لا يجب أن يخسر والديه من أجلي ...

بدأت راشتا في نباح طويل وهي ترفع رأسها إلى السماء، أمسكت سلمى رأسها بكلتا يديها وهي تضحك و تقول :

ـ أعلم أنها مجرد ترهات، لكن لا مانع في أن يجد المرء فسحة للهروب من واقعه المر، لهذا خلقت الأحلام يا راشتا.

ـ ماذا تفعلين يا سلمى ؟

ـ ياسمين ماذا تفعلين أنت هنا ؟

ـ جئت لرؤيتك بما أنك ترفضين الخروج معنا.

ـ لست أرفض الخروج معكن، لكنني مللت الأماكن التي نذهب إليها وكل ما نفعله.

ـ و لم تملي الحديث مع راشتا ؟

ضحكت سلمى وهي تجيب.

ـ لا، على الأقل هي مستمعة جيدة.

جلست ياسمين قرب صديقتها بينما انطلقت راشتا راكضة بعيدا عنهما

ـ ونحن لا ؟

ـ أنت بلى أما أحلام ونادية فلا، بالمناسبة ما أخبارهما ؟

ـ إنهما تخرجان مع مجموعة أسامة.

ـ مستعدتان لأي شيء في سبيل فسحة.

أنت تعرفينهما اليوم هنا وغدا هناك.

ـ أجل وأعلم أنهما تخرجان معي لأني أوفر المال والسيارة.

ـ هما هكذا لا تقصدان الإساءة إلى أحد لكن هذا طبعهما.

كانت ياسمين تحاول إيجاد الأعذار لهما، فلطالما كانت أحلام ونادية أنانيتان ولا تبحثان إلا عن مصلحتهما، فخلال تعرفهما على سلمى وياسمين أثناء السنتين الأخيرتين من الجامعة كان واضحا أن رفقتهما لم تكن إلا من أجل السيارة والنزهات التي ترافقانهما فيها، لتدفع سلمى كل التكاليف دون أن تتظاهر إحداهما حتى بأنها هي من ستدفع ولطالما تكلمت ياسمين مع سلمى في هذا الأمر محاولة تحذيرها، لكن سلمى كانت تجيبها دائما أن المال متوفر وأنهما لا تأذيانها في شيء، كانت أحلام تنتمي لعائلة متوسطة الحال بالرغم من كون شقيقها يشغل منصبا مهما في شركة كبيرة استطاع الحصول عليه بحكم صداقته مع ابن مالكها، إلا أن أحلام كانت تتذمر دائما من كون شقيقها يقدم جزء معتبرا من راتبه لوالدها لمساعدته على

تحمل أعباء أسرته، لكن والدتها لم تكن تحب البذخ أو ربما لم تتعود عليه، فكانت تعتمد الادخار بدل الإغداق عليها هي، أما نادية فقد كانت يتيمة الأب و وحيدة والدتها، لذا لم تكن سلمى تحاسبهما ولا ترضى أبدا أو تفكر حتى أن تسمح لإحداهما أن تدفع شيئا .

ـ فيما كنت تتحدثين مع راشتا ؟

ـ مجرد تفاهات لإبعاد الضجر

ـ ما الذي يجعلك في هذه الحالة أخبريني، تعلمين أني صديقتك أم تظنينني مثلهما

نظرت سلمى إلى ياسمين نافية في دهشة

ـ أنت صديقتي الوحيدة، تعلمين أنني عندما أريد أن أشاطر أحدا سري لا أفعل إلا معك

ـ لماذا لا تفعلين هذه المرة إذن ؟

ـ لأنه ليس هناك سر !

ـ ما الذي يحدث لك إذن ؟

سحبت سلمى نفسا طويلا ثم أجابت :

ـ ربما كبرت !

فتحت ياسمين عينيها دهشة..

ـ كبرت، أنت لم تتجاوزي الخامسة والعشرين

ـ أجل، ألا تدركين أن هذا يعني ربع قرن!

ـ يا إلهي، أظن أنك فعلا تعانين من اكتئاب حاد و أنصحك برؤية طبيب نفسي

ـ لماذا ؟ لأني أفتح عيني على الحقيقة و أراها كما ينبغي؟

ـ بل لأنك تنظرين إلى الحياة نظرة تشاؤمية، كمن ينظر إلى النصف الفارغ من الكأس بدل المملوء.

ـ أتظنين أن هذا أو ذاك سيغير كمية الماء، ستبقى نصف كأس في الحالتين!

ـ أجل، لكن الذي يرى نصفها فارغا يرى أنه أضاع شرب هذا النصف، بينما الذي يراها مليئة يرى أن لديه نصف كوب ليشربه، النظرة هي التي تختلف.

ـ لكن الحقيقة واحدة ليس لديك إلا النصف!

ـ ما أريد قوله هو أن تنظري إلى الحياة بتفاؤل لكي تجدي السعادة.

ـ لكننا لا نعيش إلا الواقع ولا نستطيع الهروب منه

ـ لكننا نستطيع تغيير واقعنا.

ـ أحيانا كثيرة يكون قدرك أصعب من قدرتك على تغييره.

ـ القدر في علم الغيب لا يمكن التكهن به أو معرفته، لذلك على المرء أن يسعى للحصول على قدر يستحقه.

ـ منذ عرفتك وأنت تتفائلين، رغم أن حياتك هي ذاتها ولم يتغير فيها شيء.

ـ لكنه سيتغير لأنني أسعى لذلك.

ـ أتمنى لك ذلك.

كانت ياسمين فتاة حالمة إلى أبعد الحدود رغم أنها متخرجة من الجامعة، إلا أنها كانت ترى الحياة مختصرة في رجل يحبها، وطموحها الأكبر في هذه الحياة أن تتزوج وتكون أسرة، لم تكن سلمى تعترض على الفكرة بحد ذاتها فالزواج سنة الله في عباده ولكن أن ترى صديقتها حياتها كلها مختصرة في هذه الفكرة وتعيش فقط للوصول إليها فذلك كان محط اعتراضها.

****

حاول طارق الإتصال بلبنى لكنها كانت ترفض الرد عليه، لا يمكن أن يخرج من هذه المعركة خاسرا، هو لم يسبق له أن خسر في مواجهة امرأة، حتى تلك اللائي شاعت عنهن سمعتهن في الإيقاع بالرجال لم تسلم منه من تورطت منهن معه.

كانت لبنى تقفل الخط في وجهه كلما اتصل، أرسل رسائل عديدة معتذرا فيها عن تصرفه، اختار كلمات منمقة برر بأن هي من افقدته رشده بجمالها وسحر شخصيتها و كان تصرفه بلا وعي نتيجة تأثيرها عليه، هو لا يريد إلا فرصة أخرى ليثبت حسن نيته لكن كل كلماته لم تجد نفعا .

اضطر إلى انتظارها أمام بيتها و أمام عملها، تركب هي سيارتها و تنطلق بها تاركة إياه واقفا يضرب الأرض برجليه غضبا، لم تكلف نفسها عناء الاستماع إليه، كان الغضب يأكله والتحدي يكاد يقتله، مغرورة هي و يجب أن يكسر غرورها، جميلة بشكلها التلقائي الذي تتركه كذلك غير عامدة أو ربما غير مدركة أية فتنة تلقيها في قلب الرجال، أفتنته ؟ لا ليس هو إنه طارق صبراوي الرجل الذي لا يُفتن، الرجل الذي يفتن النساء، لماذا إذن كل هذا الشقاء و هذا الركض وراءها منذ أكثر من شهر و هي لا تتنازل و تتكرم عليه حتى بكلمة، كم يشتهي كسر كبريائها المغرورة، كم يشتهي ضمها حتى كسر أضلعها و الوصول إلى قلبها، كم يشتهي تقبيل شفتيها حتى تصرخان تستجديان أن يرحمها .

أدرك طارق أن كل استراتيجياته التي طبقها مع باقي النساء، كانت تأتي معها هي بنتيجة عكسية، كلما نفذ خطة وجدها تبعدها عنه أكثر لذا عليه أن يتوقف، أن يراجع خططه ويغيرها بما يناسب هذا النوع الجديد من الصيد، عليه أن يجد طعمها الذي سيأتي له بها راكعة غير قادرة على مقاومته، سيجده، سيفعل أقسم بداخله أنه سيفعل قريبا جدا.

في المساء كانت سلمى تجلس داخل غرفتها تشاهد فلما أمريكيا من تلك الأفلام التي تعشقها، كان فلم " لقاء مع الموت " فلما خياليا لكنه يحمل فكرة مهمة، فكرة الحياة و الموت بالإضافة إلى الرومنسية الطاغية فيه، يحكي قصة ملك الموت الذي يأتي لينتزع روح أحدهم فيقع في غرام ابنته في قصة حب مستحيلة، لقد شاهدت هذا الفلم عدة مرات لكنها في كل مرة تجد أحاسيسها به و كأنها أول مرة خاصة أن الممثل " شون كونري " الذي يلعب دور الاب كان يذكرها بوالدها في عنفوانه و استقامته و حبه لابنته، كان الفلم يصل إلى نهايته عندما تحين ساعة الحقيقة و يخبر ملك الموت والد حبيبته أنه سيأخذ روحه بعد لحظات و يأخذ معه ابنته إلى عالمه هو، عندما سمعت سلمى طرقا على الباب .

ـ تفضل

أطل وجه والدها الحبيب في هذه اللحظات بالذات وعينيها مليئتان بالدموع.

ـ عزيزتي هل يمكنني مكالمتك؟

سكت هنيهة وهو يكتشف دموعها.

ـ ما بك حبيبتي لماذا تبكين ؟

ـ لا شيء لقد تأثرت بالفلم فقط.

اقترب جالسا على جانب السرير ينظر إلى ابنته، بينما كانت هي تطفئ التلفاز

ـ لماذا تشاهدين هذه الأفلام الغريبة التي تسبب لك الحزن والبكاء.

ـ أسلي نفسي بابا.

ـ هذه ليست تسلية، هذا تعذيب !

ابتسمت سلمى وهي تجيب :

ـ بماذا كنت تريد أن تكلمني ؟

أمسك سليمان يد ابنته بين كفيه العريضتين.

ـ حبيبتي أنت تعلمين كم أحبك.

أومأت سلمى برأسها إيجابا بينما واصل سليمان حديثه :

ـ أنت ابنتي الوحيدة وإن كنت أفعل أي شيء فإنما لمصلحتك وإذا بدا لك أنه ضغط مني فذاك بعيد عن تفكيري، لأنني لا أبتغي إلا مساعدتك في إيجاد طريقك فقط.

ـ هذه المقدمة تخيفني يا أبي ... هل من خاطب جديد ؟

ضحك سليمان وهو يرى خوف ابنته وانزعاجها.

ـ لا يا حبيبتي، ليس هذه المرة.

ـ حسنا هذا على الأقل يطمئنني

ـ هل يخيفك أمر الزواج لهذه الدرجة ؟

ـ لا يا أبي ما يخيفني هي الطريقة التي تريد أن تزوجني بها

ـ أية طريقة ؟

ـ أن تأتي بخاطب لا أعرفه، لا يراني إلا كمشروع جديد و تخبرني أنه الزوج المناسب

وضع سليمان كفه على شعر ابنته يملسه في حب و حنان.

ـ ربما بدا لك الأمر كذلك، لكنني أحاول أن أختار لك من أراه مناسبا، أولاد عائلات و أغنياء

ـ لا يبنى الزواج على هذا يا والدي.

ـ أعلم ذلك حبيبتي، لكنني أفكر في أن غناهم يبعد عنهم طمعهم بمالك، تعلمين أني كبرت يا بنيتي و أخاف أن أتركك وحدك مع والدتك، كيف ستتصرفان و أنتما لا تعلمان حتى ما وصلت إليه ثروتي.

ـ أطال الله في عمرك يا أبي.

ـ يا ابنتي يجب على المرء أن يستعد ليوم كهذا فهو قادم لا محالة، و أنا أريد الاطمئنان عليكما في حياتي قبل موتي.

ـ أنا أيضا أريد الاطمئنان على نفسي، لذلك أريد أن أثريت في أمر الزواج إلى أن أجد الشخص المناسب.

ـ حسنا يا ابنتي، لكن في انتظار ذلك ابدئي بالعمل ستجدين أفقا آخر في الحياة، ستتعرفين على أناس جدد، كما أنك ستستعدين ليوم استلامك كل هذه الشركات.

سكتت سلمى لا تجد ما تجيب به والدها الذي أكمل مستفسرا:

ـ ما رأيك ؟ سأجد لك عملا بعيدا عني، مع أناس أثق بهم، بل ستكونين شريكة في المشروع تتحملين مسؤولية ما تقومين به وسأكون أنا دائما هنا إذا أردت استشارتي في شيء ما رأيك ؟

ـ لا أعلم يا أبي، أنا لم أبدأ في العمل حتى، بينما تريد أن تدخلني شريكة في شيء لا أعرف حتى إن كنت أستطيعه أولا.

ـ ستكونين محاطة بأناس أهل ثقة ومتى احتجت إلي سأكون حاضرا، هكذا تبدأ الحياة حبيبتي بالخطوة الأولى دائما.

ـ ألا تظن أن هذه الخطوة أكبر مني ؟

ـ لا، أنا أعرفك عنيدة وعندما تضعين شيئا نصب عينيك لا شيء في الدنيا سيمنعه عنك، كما أنك درست التجارة، كل ما ستفعلينه هو التطبيق مع بعض المساعدة و التوجيه.

سكتت سلمى قليلا تفكر في كلام والدها ثم سألته :

ـ من سيكون شركاؤنا، أأعرفهم ؟

ـ تقصدين شريكك أنت، إنه محمد

ـ محمد من ؟

ـ محمد مالكي، ابن الحاج صالح، لقد التقيته عندي في المكتب.

عاد فكر سلمى إلى ذكرى ذلك اللقاء وهي تقول :

ـ وتظن أنه الشخص المناسب لأبدأ حياتي المهنية معه .

ـ أجل حبيبتي إنه شاب في مثل عمرك، ذلك سيجعل التفاهم بينكما سهلا، كما أنه يملك من الخبرة المهنية و الأخلاق ما يجعلني مطمئنا عليك.

ـ و هل تكلمت معه في الموضوع؟

ـ ليس بعد، أردت موافقتك أولا، ماذا قلت ؟ أريحيني يا ابنتي إذا لم يعجبك الأمر تخرجين من المشروع وأكمله أنا.

كانت سلمى في حيرة من أمرها، إنها تخشى الإقدام على هذا الأمر فلا تكون أهلا لثقة والدها، لكنها ترى حيرته و خوفه عليها، وعلى كل فهي لا بد أن تبدأ يوما في العمل فلم لا تقبل هذا العرض حتى لو كان فقط من أجل راحة والدها.

ـ حسنا يا أبي أنا موافقة

سألها سليمان ليتأكد مما سمعه:

ـ أنت موافقة ؟

ـ نعم.

احتضن سليمان ابنته غير مصدق أنه توصل لاقناعها أخيرا.

ـ سأتصل بمحمد وأطلب منه إحضار العقود، يجب أن تكوني حاضرة من أجل إمضائها.

ـ حاضر يا أبي.

ـ بارك الله فيك يا حبيبة قلب أبيك.

خرج سليمان من عند ابنته، ما إن فتح باب غرفته حتى سمع صوت زوجته التي كانت في شوق لمعرفة رد سلمى.

ـ ماذا قالت ؟

ـ لقد وافقت

ـ حقا ؟

ـ أجل

ـ كيف استطعت اقناعها هذه المرة؟

ـ أظن أن الوقت هذه المرة كان مناسبا، إنها تبحث عن طريق جديد لتسلكه وأنا فتحته أمامها

سكتت الحاجة زكية برهة ثم قالت :

ـ ألا تظن أنه كان يجدر بك أن تجعلها تحت عينيك، العمل معك كان سيكون أحسن.

ـ لا يا زكية ما كانت لتقبل، كما أنني أريدها أن تحس بذاتها وتثبت لنفسها أنها قادرة، وأنا أثق كثيرا بمحمد.

ـ ربما لا تتفق هي معه.

ـ اسمعي يا حاجة، محمد ولد رباه والده على الإحساس بالمسؤولية والأمانة، اسمه في السوق ثقة، لكن أهم ما في الأمر أنه شاب، تقارب سنيهما سيجعل الاتفاق سهلا بينهما، كما أنه عنيد جدا ولا يستسلم، وإذا عهدت إليه بمسؤولية سلمى دون إخبارها فسيأخذ ذلك على عاتقه وبما أن ابنتك عنيدة أيضا فهي لن تنسحب بسهولة، أفهمت الآن يا زوجتي.

ـ نعم، وهل أوصيته عليها ابنتك حساسة جدا ولا يسهل التعامل معها.

ـ لا، لم أفاتحه بعد في الأمر، لقد اتصل بي من أجل إمضاء العقود لكنني طلبت منه مهلة لأني أفكر في أمر ما، كنت أريد أن أحصل على موافقة سلمى أولا .

في الغد كان سليمان يجلس مع محمد ووالده يرتشفون القهوة في مكتب صالح، بدل أن يتصل سليمان بمحمد من أجل تجديد الموعد، أخبره أنه قادم إليهما كان الثلاثة يتحدثون عن أخبارالصحة والعائلة إلى أن قرر سليمان الدخول في الموضوع

ـ حسنا بخصوص الشراكة التي بيننا، لقد سبق وحضرت العقود يا محمد لأمضيها وأخبرتك أنني أفكر في أمر ما قبل إمضائها

ـ أجل يا عمي.

ـ أريد أن أدخل سلمى شريكة في هذه المشاريع.

ـ تريد أن نضع اسمها بدل اسمك في العقود ؟

ـ لا يا محمد ليس هذا فقط، أريدها أن تعمل معك

اتسعت عينا محمد دهشة وهو يسمع سليمان يواصل حديثه :

ـ أنت تعلم يا صالح أني تعبت في حثها على العمل معي لكنها ترفض ذلك، لذا فكرت في أنها لو عملت مع شخص آخر سيكون ذلك أحسن، على أن يكون هذا الشخص ممن أثق بهم و عندما جئتني بأمر الشراكة بيننا فكرت أن أجعلها شريكتكما و ليس هناك من أثق فيه أكثر منكما

حول سليمان ناظريه إلى محمد مواصلا :

ـ هذا ليس شرطا إنما رجاء باسم الصداقة والعلاقة التي بيننا، أريدها أن تعمل معك يا محمد أنت شاب في مثل عمرها و تعرف كيف يتعامل الشباب بينهم، أريدك أن تعتبرها شقيقتك الصغرى وأن تعلمها كل ما تستطيع، لا أريدك أن تضغط عليها حتى تسأم العمل و لا أن تكون متسامحا جدا معها، بل أن تساعدها حتى تقف على رجليها وتحس بذاتها

سكت سليمان برهة ثم أردف :

ـ أنا أعلم أني أطلب من وقتك ومن صبرك وحلمك، لكنني أتشفع لنفسي بطيب خلقك وبأنك لن تردني.

نظر صالح لابنه نظرة استجداء كي لا يرفض طلب صديقه، كان يهم بالحديث لكن صوت محمد لم يمهله.

ـ لك ذلك يا عماه، وكيف لي أن أردك وأنت لم تردنا عندما قصدناك

ابتسم سليمان مسرورا وهو يجيب:

ـ بارك الله فيك يا بني، كريم ابن كريم.

ـ فيك البركة يا عمي.

ـ إذن سننتظركما غدا أنا وسلمى لإمضاء العقود لا تنس أن تجعلها باسمها

ـ سأكون عندك في الثانية زوالا أيناسبك ذلك

ـ جدا.

****

مرَّ أكثر من الشهر والنصف وطارق مازال يطاردها مستميتا رافضا نسيان أمرها، تجده أمام بيتها، وأمام عملها، اتصالاته لا تتوقف ورسائله لا تنتهي، أصبح موجودا في حياتها رغما عنها يطاردها في أيامها ويطاردها طيفه في مساءاتها وأحيانا في أحلامها، لماذا لا تستطيع إخراجه من عقلها، هي تعلم جيدا أي نوع من الرجال هو، لقد كرهت طوال حياتها هؤلاء الأبطال سواء في الروايات التي تقرأها أو حتى في الأفلام التي تشاهدها، هذا البطل الوقح المغامر الذي تذوب فيه النساء عشقا، لم تكن هي تحب هذا النوع من الأبطال " زير نساء" كيف لامرأة عاقلة أن تحب " زير نساء " لقد التقت في حياتها بأمثاله من الرجال ولكنها تجنبتهم بكل بساطة، لماذا هو يسكن تفكيرها، ألأنه يصر على الظهور في حياتها و عدم مغادرتها رغما عنها، لماذا لا تستطيع إخراجه من عقلها و فكرها، لا تنكر أن شكله يجذبها و رسائله، تلك الرسائل التي أصبحت تجد نفسها من غير وعي منها تفاجئ نفسها تمسك هاتفها و تفتحها لتعيد قراءتها مرارا و تكرارا، تسأل نفسها هل هذه مجرد كلمات أم أنه يعني فعلا ما يكتبه، تستيقظ كل صباح لتشغل هاتفها الذي تطفئه ليلا فترن رسالته الصباحية التي كانت محتجزة داخله و كأنها تستجدي أن تحررها فتقرأها ثم تحفظها في ذاكرة هاتفها :

" مورق عصرك سيدتي كخضار عينيك وأنا زامنت كل العصورالميتة قبلك، مزهر بورد جوري كلون شفتيك .. صباح الورد "

" صباح الخير يا وردة أشتهي شمها و ضمها رغم أن شوكها يدميني "

" يا قلبها القاسي جئت أستعيرك، أسكني أياما أو ساعات، علمني كيف أقسو عليها .. صباح الرّقة "

" يا قلبها القاسي ألا تشفع لي لديها، قبل أن أموت قتيل عينيها .. صباح الحياة "

" خذي قلبي يسكنك لحظات واعلميني بعدها كيف أستطيع بدونك الحياة .. صباح الأمل "

" صبي على قلبي ألوان التدلل، راضٍ هو رغم التعلل .. صباح الرضا "

" مذ أيقنت أيامي أنك موجودة ماعاد لوجودي يقين غيرك .. صباح الإيمان "

وغيرها من الكلمات التي تحس أنها تذيب صمودها يوما عن يوم، تقرر أن تتوقف عن قراءتها لكنها تجد نفسها غير قادرة وكأنها أدمنتها وهي تخشى أن تدمنه هو، كلماته تحمل من الرقة ما يدغدغ شعورها كامرأة و يرضي غرور الأنثى فيها، و لكنها تقاوم، مازالت تقاوم سحره وهي تؤكد لنفسها أنها مجرد كلمات.

****

عندما وصلت عقارب الساعة الثانية تماما كانت السكرتيرة تعلم سليمان أن محمد بالباب ليقف هو لاستقباله مسلما عليه يسأله عن والده، لكن هذا الأخير أخبره أن أشغالا مهمة عطلته عن الحضور، اتجه إلى أين كانت تجلس سلمى التي وقفت لاستقباله فمد محمد يده مصافحا وتلقتها سلمى ترد السلام .

كان الثلاثة جالسون، محمد يرتشف قهوته بينما سلمى ووالدها يطالعان العقود، عندما سمع صوت سلمى متسائلة :

ـ لماذا نأخذ خمسة بالمئة فقط من الفائدة.

ـ يمكنني رفعها، لا مشكلة عندي.

ـ ليس الأمر وكأنك تتصدق علينا.

جاء صوت سليمان مقاطعا.

ـ سلمى..

ـ أبي، أنا أرى أننا ندفع المال لإكمال المشاريع العالقة بينما الفائدة التي نجنيها قليلة جدا

ـ آنستي أنا اقترحت عشرون بالمئة ووالدك أصر على الخمسة.

نظرت سلمى إلى والدها وكأنها تتأكد من كلام محمد

ـ نعم بنيتي هذا صحيح، حتى أني اقترحت أن أعيرهما المال دون فائدة لكنهما رفضا.

ـ إذن فوجودنا في هذه المشاريع لمجرد إتمام الصورة فقط!

أمسك محمد لسانه وغيضه وترك سليمان يجيبها.

ـ هذا في البداية عندما كانت العقود ستكون باسمي، أما الآن فأنت ستدخلين شريكة فعلية و تتابعين معهم المشاريع إلى نهايتها

ـ ما تريد إخباري به أنه يملك خمسا وتسعين بالمئة من المشاريع وعليه سيكون له سلطة القرار والتنفيذ.

لم يستطع محمد كتم غيضه أكثر قائلا :

ـ لا أرى أين المشكل هنا ما الذي يزعجك في الأمر؟

نظرت سلمى إلى محمد وفتحت فمها لتجيب، لكن والدها سبقها مرغما إياها على السّكوت

ـ اسمعي يا ابنتي، أنت تعلمين أن هذه مجرد بداية، الخطوة الأولى وعندما تعتادين وتكتسبين الخبرة سأسلمك مشاريع كاملة ...

كان سليمان يتحدث محاولا إطفاء فتيل الشعلة التي اندلعت بين الاثنين، ينظر إلى محمد كأنه يذكره بالوعد الذي أخذه منه، تذكر محمد ذلك فحاول تهدئة نفسه ثم استدار إلى سلمى مخاطبا إياها في هدوء مفتعل محاولا اختيار كلماته :

ـ اسمعي آنستي هذه تجارة أنا احتجت إلى السيولة وطلبت من والدك شراكتي في مقابل نسبة من الفائدة، والدك وجد الاقتراح مناسبا فقبل، ستكونين عينه في هذه المشاريع، وإذا كانت المشكلة في النسبة يمكننا تعديلها

ـ إذا كان هذا اتفاقك مع والدي فلا يمكننا التراجع عنه

بعد إمضاء العقود تم الاتفاق أن سلمى ستبدأ العمل أول أيام الأسبوع المقبل، وقف محمد مغادرا عندما سمع صوت سليمان :

ـ دعني أرافقك إلى الخارج .

ـ لا بأس يا عماه فأنا أعرف طريقي.

ـ أعلم ذلك لكني سأوصلك.

عندما خرج محمد و سليمان، سحب هذا الأخير باب مكتبه وراءه وأمسك بيد محمد

ـ شكرا لك يا بني

ـ لم أفعل شيئا يستحق الشكر.

ـ بلى فعلت و لكنني أطمع في المزيد.

ـ أؤمرني يا عمي.

ـ بوركت يا ولدي، مؤكد أنك عرفت من هذا اللقاء القصير أن ابنتي عنيدة و أن العمل معها لن يكون سهلا، لا أريدك أن تيأس بسرعة منها، لأنها و إن كان هذا عيبها فهو أيضا ميزتها فهي لا تستسلم وستتشبث بكلتا يديها بهذا العمل، لذلك أريدك أن ترأف بها، أعني ألا تكون حادا معها، تغاضى عن تصرفاتها التي لاتضر هي فقط تريد أن تقول أنها هنا، أريدك أن تساعدها على أن تقولها تطبيقا في أن توجه عنادها إلى العمل .

كان محمد مصغيا ثم تكلم قائلا :

ـ اسمع يا عماه أريد أن أكون صريحا معك، كما قلت أنت العناد يمكن أن يكون ميزة ويمكن أن يكون عيبا فإذا أردنا جعله ميزة يجب أن يكون صاحبه مسؤولا، لا يتخذ قراراته و يتمسك بها لمجرد العناد فقط بل لأنه درسها وعرف احتمالاتها و نتائجها و اقتنع بها، لذا ما أريد قوله هو أنه إذا تعاملت معها بهذا الرفق الذي تتعامل أنت به معها، فلن يتغير في الأمر شيء ستبقى ابنتك المدللة، أعذرني يا عماه لكن إذا كانت ستدخل ميدان العمل و إذا كنت تريدها أن تصبح ما ترجوه لها فدعني أتعامل معها بطريقتي.

ـ يا بني لا أريدها أن تكره العمل، و لا ترغب إلا بتركه.

ـ لا تقلق يا عمي أنت تقول أنها لا تستسلم و أنا لن أوصلها إلى ذلك، إنما سأكون صارما معها بما يكفي لجعلها تحس بمسؤوليتها عن شيء هي شريكة فيه، دع الأمر لي ولا تقلق.

ـ حسنا يا ولدي أنا أتكل على الله ثم عليك.

عندما دخل محمد إلى مكتب والده وجده في انتظاره متشوقا لمعرفة ما أسفر عنه لقاؤه بسليمان وابنته.

ـ ماذا حدث ؟ هل أمضيتم العقود ؟

ـ أجل.

ـ لا تبدو سعيدا!

زفر محمد قبل أن يجيب والده :

ـ عندما طلبنا هذه الشراكة لم نطلب إلا المال، بينما أنا الآن متورط في تعليم فتاة مدللة أصول العمل و تحمل طيشها.

ـ ربما الأمر ليس بهذا السوء.

ـ بلى يا والدي لقائي بها اليوم لا يبشر أبدا بالخير ولا أدري كيف سأتحمل الأمر حتى نهاية المشاريع.

ـ لكنك قطعت عهدا لوالدها.

ـ نعم هذا ما يقلقني لكنك تعلم أني لا أرجع عن وعد قطعته أبدا.

ـ أنت رجل عاقل يا ولدي وستجد الطريقة المثلى للتعامل معها.

ـ أتمنى ذلك أبي.

****

أول أيام الأسبوع، الساعة الثامنة إلا خمس دقائق كانت سلمى ترسم أول خطواتها في ميدان العمل داخل شركة " مالكي للأشغال والإنجازات الكبرى " تستقل المصعد للقاء محمد، لقد أخذت وقتها في تحضير نفسها لأول يوم عمل في حياتها، انتقت طقما رمادي اللون يضفي على مظهرها حزما وجدية مع قميص أحمر يكسر عتمة اللون وحرصت على أن تترك انطباعا جيدا و ألا تكون متأخرة فهي تتذكر توصيات والدها " محمد دقيق جدا في مواعيده "

عندما كانت سلمى تستقل المصعد تذكرت ردة فعل ياسمين عندما أخبرتها أنها ستبدأ العمل صرخت من وقع المفاجأة و هي لا تصدق ما تسمعه مرددة (و أخيرا، أخيرا) عند وصولها أمام مكتب سكرتيرة المدير اضطرت لإبعاد كل هذه الأفكار عن ذهنها.

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير آنستي.

ـ لدي موعد مع السيد مالكي.

ـ ما هو اسمك من فضلك ؟

ـ سلمى كاميلي.

ـ تفضلي آنستي إنه باتظارك منذ الصباح.

نظرت سلمى إلى ساعتها التي كانت تشير إلى الثامنة إلا دقيقتين.

ـ إنها الثامنة أنا في الموعد
أعلم آنستي لكن السيد " مالكي " من الأشخاص الذين يستيقظون باكرا إنه أول من يدخل الشركة وآخر من يغادرها.

سكتت سلمى غير راغبة في التعليق على ما سمعته

ـ تفضلي آنستي لقد طلب أن تدخلي بمجرد قدومك

ـ شكرا لك.

عندما كانت سلمى تخطو هذه الخطوات القليلة إلى مكتب محمد أحست بخفقات قلبها تتزايد، لقد خشيت دائما العمل، لكنها لم تتصور أن حالتها ستكون هكذا و

ما يزيد في قلقها أنها ستعمل مع محمد، إنه من نوعية الأشخاص الذين لا يعيشون إلا لعملهم و سنوات الخبرة التي اكتسبها تجعله متقدما عليها بكثير .

طرقت الباب وانتظرت قليلا ليفتح ويطل منه وجه محمد حازما، صلبا لا تظهر عليه أية تعابير تفسر حالته.

- صباح الخير.

- صباح الخير، تفضلي بالدخول، كيف حالك؟

- بخير شكرا!

تقدم الاثنان إلى داخل المكتب ومحمد يسأل :

- هل أنت مستعدة للعمل؟

- طبعا لما أنا هنا إذن.. متى سنبدأ؟

- يبدو أنك مستعجلة !

- أنا لا أحب تضييع الوقت.

- وهذه ميزة أحبها، دعيني أريك مكتبك أولا.

خرج محمد تتبعه سلمى و فتح باب مكتب مجاور ليس ببعيد عن مكتبه .

ـ تفضلي هذا مكتبك.

دخلت سلمى وعيناها تتنقلان بين أرجاء المكتب، لم يكن في مثل فخامة مكتبه لكنه كان واسعا و أنيقا، أثارت اللوحة المعلقة على الجدارالمقابل انتباهها فتقدمت تتفحص بعينيها المنظر الطبيعي ليوم عاصف، بحر هائج تحت وقع أمطار غزيرة و رياح شديدة بينما كان في جانب اللوحة رجل يختبئ تحت معطفه متمسكا به بكلتا يديه يقاوم الريح العاتية و الأمطار المتساقطة، و بينما هي تتأمل اللوحة سمعت صوت محمد

ـ يمكنك تغييرها.

ـ لا أنا أحبها، إنها معبرة .

ـ عن ماذا ؟

ـ عن قسوة الحياة و تمسك الإنسان بها.

ـ أو ربما عن ضرورة التمسك بالأمل رغم قسوة الحياة.

كانت سلمى لا تزال تنظر إلى اللوحة و هي تقول :

ـ أتظن أن لو كان هذا المنظر حقيقيا فيمكن لهذا الرجل أن ينجو، فلو لم تقتله هذه العاصفة فسيقتله المرض بعدها، لا يمكنه النجاة في كل الأحوال .

ـ أتعلمين ما اسم هذه اللوحة ؟

ـ لا

ـ " حياة وسط العاصفة "، عندما رسمها صاحبها لم يكن يريد أن يوصل لمن يراها ما قلته للتو إنما العكس.

إلتفتت سلمى إليه و هي تقول :

ـ أظن أنه عندما انتهى من رسمها فاجأته حقيقتها، أراد أن يجد لها عذرا فاختلق لها هذا الإسم .

فوجئ محمد بما كان يسمعه من سلمى، وجهة نظرها محتملة واللوحة يمكن أن تحتمل المعنيين، لكنه لم يرَ أبدا اللوحة من هذه الوجهة التي تراها و تساءل في نفسه إن كانت ترى الحياة كلها من هذا المنظار و ما الذي يدفعها لذلك، فحياتها لم تكن بالتي توحي بهذا اليأس والتشاؤم، لكنه لن يناقش ذلك معها .

ـ و باقي المكتب هل يعجبك؟

ـ لا بأس به.

ـ حسنا هل يمكننا الذهاب الآن؟

ـ إلى أين ؟

ـ سنقوم بجولة على ورشات المشاريع التي تعتبرين شريكة فيها، ستتعرفين على المسؤولين هناك و على المراحل التي وصلتها الأشغال.

ـ فلنذهب إذن.

أرادت سلمى أن تركب سيارتها لكن محمد طلب منها الركوب معه لأنهما سيعودان إلى هنا وحتى لا تتوه عنه في الطريق، داخل السيارة كان الإثنان صامتان لا يجد أحدهما ما يقوله للآخر و لم يجد محمد لقطع هذا الصمت أحسن من تشغيل المذياع.

أول ورشة توقفا بها كان طارق يشرف على الأشغال بها عندما لمح محمد و الفتاة التي معه مخمنا أنها سلمى كاميلي فاتجه إليهما .

ـ صباح الخير طارق .

ـ صباح الخير محمد، آنستي .

ـ هذه سلمى كاميلي شريكتنا في العمل، و هذا طارق صبراوي المسؤول المباشر عن أغلب المشاريع .

أحست سلمى بأن لقب " صبراوي " ليس غريبا عليها، لكن صوته لم يمنحها الوقت للتوقف والتفكير فيه و أين سمعته من قبل .

ـ تشرفت بمعرفتك آنستي .

ـ الشرف لي .

كان الثلاثة يتجولون داخل المباني التي تكاد تصل إلى آخر مرحلة و محمد يحاول تقديم تفصيل موجز عن المشروع و طارق عن الأشغال و المرحلة التي وصلت إليها

و سلمى تحاول استيعاب هذا الكم من المعلومات التي يلقيانها على مسامعها، بينما لا تعلم حتى الآن ما سيكون دورها في كل هذا .

كان الأمر نفسه تقريبا في كل مشروع توقفا عنده، عندما انتهى محمد و سلمى من الجولة، لم تجد بدا من توجيه السؤال لمحمد

ـ ماذا سيكون عملي أنا ؟

ـ حسنا في البداية سيكون الوقوف على هذه المشاريع

ـ بمعنى ؟

ـ هذه المشاريع لكي تكتمل يجب أن يحس العمال و حتى مسؤوليهم أن صاحبها موجود يتابعهم باستمرار سنتفق لاحقا و سنقسم الزيارات، إذا كان هناك مشاكل سنحلها و اذا احتاجوا الى السلع نوفرها كما يجب أن تكوني على علم بالمشروع و تكلفته و قيمة السلع التي قدمت و فيما استعملت و تلك التي تحتاجها المرحلة القادمة، بعدها سندخل في مرحلة التسليم و استفاء المال من الزبائن الذين ستتعاملين معهم شخصيا.

هزت سلمى رأسها و هي تقول :

ألا يتم الدفع لنا مسبقا

ـ لا بل يكون ذلك على دفعات، هناك من يدفع شيكات و أو سفاتج مؤجلة الدفع و هذه أصعب مرحلة لأننا قد نقع مع من يتماطل في الدفع أو من لا يرغب في الدفع متحججا بأن الأشغال لم تكن في المستوى المطلوب أو شيء كهذا.

ـ و ماذا نفعل نحن حينها

ـ لا تقلقي عندما نصل لتلك المرحلة سأخبرك لا أريد أن أخلط عليك المعلومات الآن، ألا تريدين تناول الغداء.

نظرت سلمى إلى ساعتها التي كانت تشير إلى الثانية و النصف لقد مر وقت الغداء منذ أكثر من ساعتين.

ـ أليس المفروض أن لدينا ساعة غذاء

ـ بلى، لكن يجب أن تتعودي كصاحبة المشروع أنك في مرات كثيرة ستضطرين لتأخير الغذاء وربما إلغائه عندما تتطلب الضرورة ذلك .

ـ ليس هناك من مشكل.

ـ إذن سأغديك اليوم لأنه أول يوم عمل لك.

ـ لست جائعة.

ـ لكنني جائع ولن أدعك تخبري كاميلي أنني ذهبت للغذاء وتركتك في أول يوم عمل لك، سيكون لديك متسع من الأيام التي لن تجدي الوقت فيها للأكل حتى لو كنت جائعة .

تقدم محمد باتجاه السيارة بينما كانت سلمى تتبعه، كل منهما مرغم على مرافقة الآخر.

****

ما إن نزلت لبنى من بيتها حتى وجدت طارق بانتظارها كعادته أسرعت الخطى، فتحت سيارتها ودخلت لكنها فوجئت به يسرع بالدخول إليها من الجهة الأخرى و يغلق الباب عليهما

صرخت في دهشة :

ـ ما الذي تفعله هل أنت مجنون ؟

ابتسم ابتسامة ساحرة و هو يقول في هدوء غريب :

ـ ألم تكتشفي ذلك من قبل ؟

صرخت فيه منزعجة من جرأته :

ـ انزل من سيارتي!

أجابها والابتسامة لا تغادر وجهه :

ـ لا، لدي دين لديك جئت أحصله.

ارتبكت لبنى أيعقل أنه جاء ليرد لها الصفعة، هل سيفعل ليسترد حقه منها ثم يخرج من حياتها، فاجأها أنه رغما عنها انقبض قلبها للفكرة الأخيرة و ليس لفكرة صفعها عندما سمعته يقول :

ـ وعد الحر دين عليه و لقد وعدتني و أخلفت موعدك معي.

اتسعت عيناها في عدم إدراك لما يقوله ليضيف هو :

ـ وعدتني بثلاثة مواعيد و لم تعطني إلا اثنتين.

فتحت فمها مندهشة وهي تفكر أن هذا الرجل فعلا مجنون، بعد كل الذي حدث مازال يفكر أنها ستخرج معه في موعد آخر، سمعته يضيف وقد اتسعت ابتسامته :

ـ أريد موعدي الثالث ولك القرار بعدها.

فكرت أن هذه قد تكون فرصتها في الخلاص منه فقالت بدون تردد :

ـ حسنا سنلتقي أين التقينا أول مرة و تنسى أمري بعدها.

اتسعت ابتسامته أكثر حتى رأت إشراقة عينيه وهو يقول :

ـ لا، أريد موعدي داخل بيتك.

احتقن وجهها غضبا واحمرت عيناها، فتذكر هو أول مرة رآها بنفس هذه النظرة الغاضبة كنار تأكل الهشيم الذي كان منذ لحظة خضارا في عينيها عندما سمعها ترد عليه :

ـ يبدو أنك اشتقت لصفعاتي .

انفجر هو ضاحكا، تمالك نفسه ثم قال :

ـ سأزوركم الخميس المقبل مع أهلي، أخبري والديك حتى لا يتفاجآن بنا، لا أريد إحراجهما ولا إحراج والديّ.

فتح الباب يهم بالخروج ثم استدار مبتسما وهو يضيف :

ـ يا إلهي اشتقت حقا لشراستك أيتها اللبؤة.

تركها هناك فاغرة الفم غير مصدقة لما حدث معها للتو

****

مرت الأيام وتعودت سلمى التنقل عبر بعض ورشات العمل لتفقد سير المشاريع و اعتاد العمال على رؤيتها ومعاملتها باحترام كشريكة في العمل، كانوا ينقلون إليها طلباتهم وقيمة السلع التي يحتاجونها والمشاكل التي تعترضهم، اختلفت حياتها كلية أصبح يومها مشغولا ورغم التعب إلا أن إحساسا جميلا كان يغزوها ليستوطن بداخلها يوما بعد يوم، لم تعد تلك الفتاة عديمة الفائدة أصبح لها دور في الحياة

وكانت مصرة على إثبات نفسها، لكن ما كان يزعجها في الأمر أنها مضطرة دائما للعودة إلى محمد الذي يتخذ القرار، لم تعد تخرج في تلك النزهات التي ملتها، فارقتها حالة التوهان التي انتابتها منذ تخرجها من الجامعة، إتصالاتها لم تنقطع مع ياسمين التي كانت تزورها أيضا في عطلتها الأسبوعية .

ـ تبدين بحالة رائعة يبدو أنك تحبين هذا العمل فعلا .

ـ نعم هو عمل غير ممل، ما يميزه أنك لا تقضين نهارك جالسة على المكتب، فأنا طوال الوقت في الورشات وعندما أدخل المكتب أحاول دراسة الملفات لكي أستفيذ منها، لم أعد أشتكي من الفراغ و الملل .

ـ إذن فالعمل ليس بالسوء الذي كنت تعتقدينه.

ـ لا، ما يزعجني فقط أنني مضطرة للعودة إلى محمد في كل شيء .

ـ هذا أمر طبيعي فهو أعلم بهذه المشاريع منك.

ـ لا أعلم، لكن أحس و كأنه يقول لي لا تنسي أنني أنا الرئيس هنا.

ـ هل بدر منه ما يوحي بسوء .

ـ لا، لكنه ....

سكتت سلمى تبحث عن كلمات تصف هذا الرجل المتناقض دون أن تعثر عليها

ـ هو ماذا ؟

ـ ميت

ـ ماذا ؟

ـ يبدو كشخص لا يريد أن يعيش الحياة إلا من خلال عمله !

سكتت هنيهة ثم أضافت :

ـ لكنه في المقابل مسؤول وملتزم بشكل رهيب، كما اكتشفت شيئا آخر.

ـ ماذا ؟

ـ العمال والموظفين يحترمونه، بل ويحبونه يتحدثون عنه بود كبير جدا.

ـ كما تتحدثين عنه أنت الآن؟

نظرت سلمى لياسمين مدركة ما ترمي إليه صديقتها

ـ إلى ماذا تلمحين ؟

ـ أظنك بدأت تعجبين به.

صرخت سلمى في استنكار

ـ أنا ؟

ـ أجل و تكابرين، لذلك تحاولين إقناع نفسك بأنه يزعجك

ردت سلمى وهي تعرف طبع صديقتها الحالم، يمكن لياسمين أن تختلق قصة حب بين حبتي بطاطا و بصل يلتقيان داخل صينية فرن لتجعل الموقف رومنسيا ينتهي بتراجيديا الموت معا.

ـ أنت مجنونة كلما ظهر شاب في حياتي حاولتي جعلي معجبة به رغما عني.

ـ أخبريني إذن ما لا يعجبك به؟

حاولت سلمى إيجاد ما تقوله لينقذها من جنون صديقتها، لكنها لم تجد إلا أن قالت في انفعال واضح :

ـ ليس الأمر هكذا إنه ليس فستانا أريد شراءه يعجبني تفصيله ولكن ليس لونه أو...

ـ أو ماذا ؟

سكتت سلمى محاولة استعادة هدوئها ثم نظرت إلى ياسمين قائلة :

ـ تعلمين أني لو كنت أحبه لما أخفيت الأمر عنك.

صرخت ياسمين مجيبة :

ـ يا إلهي أنا لم أقل أنك تحبينه، إنما معجبة به، لكن يبدو أنك رغما عنك تعترفين بما لا تريدين تصديقه وهذا اللاوعي عندك يفضحك بزلة لسانك.

وجدت سلمى نفسها في موقف مجنون كجنون صديقتها ما الذي أوصل المحادثة إلى هذه النقطة، أرادت أن تحسم الموضوع قبل أن تبدأ ياسمين ببناء القصة داخل عقلها حتى تصدقها.

ـ أنا لا أحبه و لست معجبة به ولو حدث هذا فلا أرى ما يمنعني من الاعتراف به، كما أن محمد هذا ليس له أية علاقة بالرجل الذي أحلم أن أتزوجه.

ـ الحب دائما يبدأ بالخوف .

ـ الخوف من ماذا، بربك أنا لا أحبه.

ـ من أن يكون الشعور غير متبادل.

ردت سلمى في نفاذ صبر :

ـ ليس هذا فارس أحلامي

ـ و من قال أننا نحب فارس أحلامنا، الحب يا صديقتي لا يعرف المقاييس و لا القواعد و لا المنطق، عندما يأتي ليس لنا إلا أن نسلم له و نسعد به، دون أن نسأل .

ـ و كأنك عرفته.

نظرت ياسمين إلى صديقتها وابتسمت دون أن تجيب، صرخت سلمى في وجهها موجهة نحوها سبابتها.

ـ أنت مغرمة، يا إلهي أنت كذلك وتحاولين إلصاق التهمة بي.

ـ أجل أنا مغرمة ولا أخشى قول ذلك، لست جبانة مثلك أنت.

ضحكت سلمى مرة أخرى وهي تسمع اعتراف صديقتها.

ـ أيتها الخائنة ومتى كنت تنوين إخباري، لقد وقعت إذن و لا يعجبك أن تكوني الوحيدة، لذا تريدين توريطي معك.

صرخت ياسمين في تعجب و فرحة بادية لم تعد قادرة على إخفائها.

ـ توريطك، ليتني وجدت شخصا يورطني معه منذ زمن طويل، لكنت شكرته على هذا طوال حياتي .

ـ ألهذه الدرجة ؟

ـ نعم!

أمسكت سلمى يد صديقتها وسحبتها لتكاد تلتصق بها وهي تقول في ضحكة مشرقة.

ـ تعالي هنا أيتها الخائنة أريد أن أعرف كل التفاصيل، من هذا ؟ أين التقيته ؟ ومتى؟

ـ إنه حليم بائع المكتبة التي كنا نشتري بها الكتب.

ـ حليم .. ساحة أول ماي ؟

ـ أجل !

ـ يا لك من مخادعة، أين كنت أنا من كل هذا ؟

ـ أنت تعلمين أنه كان يعجبني وعندما انشغلت أنت بعملك الجديد فاتحني هو بالموضوع.

ـ ماذا قال لك ؟ أخبرك أنه يحبك ؟

ـ لا، لكنه قال أنه معجب بي وأنه ينوي الزواج و يبحث عن المرأة المناسبة.

ـ هل أخبرك أنك هذه المرأة المناسبة ؟

ـ ليس بالضبط لكنه قال أنه وجد فيّ أشياء كثيرة مناسبة، أن فترة التعارف بيننا لن تكون طويلة ليقرر كلانا إذا كنا سنستمر في إطار الخطبة أو لا!

اختفت الابتسامة من وجه سلمى و هي تسمع هذا الكلام من صديقتها التي تبدو مغرمة بهذا الفتى الذي بالكاد يريد التعرف عليها و خشيت عليها من الصدمة لو قرر هو عدم الاستمرار، كانت مصارحة ياسمين بما يدور في فكرها صعبة، لأنها لا تريد أن تجرحها لكن واجب الصداقة يحتم عليها أن تثير انتباهها لذلك، حاولت أن تتلطف في حديثها

ـ ألا تظنين أن الوقت لازال مبكرا لتغرمي به هكذا ؟

ـ أعرف ما تفكرين به تظنين أنني أتسرع في الأمر رغبة في الزواج، لكنني أحبه و سأجعله يحبني، يكفيني أن نيته ليست التلاعب بي وأعلم بأنه يمكنني أن أكون زوجة صالحة و أما جيدة

كان صوت ياسمين وهي تتحدث مغلف بنبرة حزينة، جعلت صوتها يبدو هادئا على غير عادتها، فكرت سلمى أن هذا يمكن أن يكون أثر الحب، ربما قد فات الوقت على ياسمين لتتراجع، لم تجد سلمى إلا أن تتمنى لها في أعماقها نجاح هذه العلاقة وألا ينكسر قلبها الغض على يدي حليم.

امتلأت عيني ياسمين بدموع حاولت منعها من السقوط دون جدوى، تأثرت سلمى برؤيتها كذلك فعانقتها وهي تقول :

ـ لا تقلقي أعلم أنه سيحبك، بل سيجن بك، أنت فتاة رائعة و تستحقين كل الحب و أين سيجد مثلك بقلبك الصافي، يكفي أن يعرفك جيدا ليغرم بك.

رفعت رأسها ونظرت إلى ياسمين وهي تضيف مبتسمة رغم الدّموع التي اغرورقت بها عيناها:

ـ إذا لم يحبك فسأخنقه بيدي هاتين.

ضحكت ياسمين وهي تقول :

ـ لكنك ستكسرين قلبي إن فعلت فأنا أحبه حقا.

عادت سلمى لاحتضان صديقتها وهي تجيب :

ـ لن أفعل إذن فقط توقفي عن البكاء.

****

لم تعرف لبنى بما ابتليت و لا ما تفعل في هذا المأزق الذي أوقعها طارق فيه، هل تخبر والديها أن هناك من سيأتي لخطبتها هذا الخميس أم تسكت، أتراه كان جادا ؟ لو كان جادا ولم تخبر هي أهلها ستقع في مشكلة ولو أخبرتهم ولم يأت هو ستقع في حرج كبير، يا إلهي ما الذي ستفعله لتخرج من هذه الورطة، بقيت هذه الهواجس تؤرقها طيلة الليل قضت ليلة بيضاء لم يغمض لها فيها جفن، قبل صلاة الفجر صلت ركعتي استخارة واستنجدت بربها لينقذها من هذا المأزق، عند طلوع بوادر إشراقة الصباح أشعلت هاتفها الذي رنّ كعادته فتحت رسالة طارق تقرؤها.

" بقي يومان على الموعد الثالث

جئت أستشيرك يا قلبها القاسي

أتراها تخلف الموعد "

لم تزدها هذه الرسالة إلا حيرة وتساؤلا، أكان يقصدها هي فعلا أم كان هو من سيخلف الموعد، استجمعت قواها الخائرة وحملت جسدها المتعب من عدم النوم واتجهت إلى المطبخ.

ـ صباح الخير ماما.

ـ صباح الخير حبيبتي، يبدو وجهك مرهقا، ألم تنامي جيدا ؟

ألقت بنفسها على الكرسي وهي تتحاشى الإجابة عن هذا السؤال.

ـ هل خرج بابا.

ـ نعم حبيبتي.

سكتت قليلا ثم تشجعت، لا بد لها من إخبار والدتها.

ـ ماما .

ـ نعم .

هلا جلست، أريد أن أتحدث معك في أمر مهم .

استدارت والدتها إليها وهي تتخذ مكانا على الكرسي الذي يقابلها.

ـ ماذا هناك ؟

ترددت لبنى قليلا ثم بدأت حديثها.

ـ هناك شاب مجنون أخبرني أنه سيأتي مع عائلته يوم الخميس من أجل خطبتي

فتحت والدتها عينيها دهشة و قالت مستفسرة :

ـ ماذا تعنين بمجنون أهو مريض عقليا ؟

توترت ملامح لبنى وهي تبحث عن كلماتها، بينما صورة طارق تتراقص أمام عينيها بابتسامته المستفزة.

ـ لا ماما و لكنه رجل غير طبيعي، مغرور ومتكبر، يتصرف تصرفات متعجرفة وغير لائقة، وقح اقتحم حياتي كالمجنون و رغم أني حاولت إفهامه بمليون طريقة أنني لا أريده إلا أنه جاء كالأحمق المعتوه و أخبرني أنه قادم مع أهله يوم الخميس ثم انصرف!

سكتت لبنى تحاول تهدئة نفسها، بينما والدتها تحاول استيعاب ما قالته ابنتها، ثم أضافت :

ـ لا أعلم إن كان جادا في كلامه أم لا ولكنني خشيت ألا أخبركم فتجدونه وعائلته يقتحمون علينا البيت يوم الخميس.

تعجبت أم لبنى من هذا الكلام الذي تسمعه، هي تعرف جيدا تعقل ابنتها وأخلاقها عندما سمعتها تضيف في توسل :

ـ أرجوك ماما أخبري أنت والدي و استقبلوهم أو لا تفعلوا، ذلك شأنكم و إن لم يأت فقد أخبرتك مسبقا أنه مجنون.

ـ ما هذه الحيرة يا ابنتي أي موقف هذا ؟

وقفت لبنى، وضعت قبلة على رأس والدتها.

ـ تصرفي ماما أرجوك!

****

كان الشرر يتطاير من عيني محمد وهو يتجه إلى مكتب سلمى كثور هائج فتح الباب بقوة دون أن يطرق أو يستأذن محدثا صوتا قويا.

ـ ما هذا الذي فعلته بحق السّماء ؟

فوجئت سلمى وارتعبت من رؤية التعابير التي ترتسم على وجه محمد .

ـ ماذا فعلت ؟

ـ لا تعلمين؟

ـ لا!

ـ ألم يكن من المفروض أن تسلمي ظرف مناقصة الأبيار؟

ـ لقد سلمته لمصلحة المناقصات !

ـ متى ؟

ـ البارحة.

كان محمد في قمة ثورته وغضبه وهو يصرخ :

ـ البارحة كان قد فات الأوان على آخر موعد يا آنسة.

أحست سلمى بالتوتر ولم تجد ما تجيب به سوى أن قالت :

ـ لم أكن أعلم، لم يخبرني أحد!

ـ كان الملف بكامله بين يديك وكان عليك أن تتأكدي من التواريخ، ليس هناك خدم هنا يذكرونك بما يجب فعله، هذا مالك وأنت المسؤولة عنه، أنت من تراقبين الموظفين وليس العكس

ـ لم ...

قطع جوابها بصوته الهادر غضبا

ـ إذا كنت قد ألفت تبدير مال والدك بدلالك المفرط وعدم إحساسك بالمسؤولية، فما كان عليك أن تتورطي في هذا العمل، هناك موظفين في هذه المؤسسة ينتظرون

رواتبهم آخر كل شهر وليسوا بحاجة لطفلة مثلك لتوصل مؤسستهم للإفلاس وتتسبب في قطع رزقهم.

كانت سلمى تسمع هذا الكلام وهي مذهولة لا تستطيع التفوه بكلمة واحدة.

ـ لقد حاولت أن أجعلك أكثر إنسانية لكنك شخص غير مسؤول، أنانية لا تفكرين إلا بنفسك ....

عند هذا الحد لم تستطع سلمى التّحمل أكثر، كانت تحسّ بأنها ستنفجر بالبكاء، لكنها قاومت وهي تحدث نفسها (لا ليس أمامه) حملت حقيبتها وخرجت مسرعة دون أن تلتفت وراءها.

ـ أين تذهبين أنا أكلمك عودي إلى هنا.

لكنها وبرغم صراخه واصلت سيرها الذي كان أقرب الى الرّكض، تاركة إياه في ذهول وغضب متصاعد.

داخل سيارتها انفجرت سلمى بالبكاء، كانت تقود وهي تكاد لا ترى الطريق من غمائم دموعها الكثيفة وشهقاتها تتعالى، إحساسها بالمهانة يكاد يقتلها، ما الذي أرغمها على تحمل هذا الذي حدث و لماذا لم تجب ؟ لماذا لم تجد من رد سوى الهروب وكأنها تؤكد له ما قاله عنها ؟

عندما وصلت أمام بيتها حاولت مسح دموعها حتى لا يظهر عليها شيء ثم صعدت مسرعة إلى غرفتها بينما " راشتا " تتبعها وهي تنبح وكأنها أدركت حالة صاحبتها المتوثرة و من حسن حظها أن والدتها لم تكن بالصالة، حاولت إسكات كلبتها و هي تأمرها بأن تتوقف عن النباح انصاعت " راشتا " لأوامرها وسكتت وهي تتبعها لغرفتها، إتصلت سلمى على الفور بياسمين وطلبت منها القدوم إليها عندما أدركت ياسمين أن صديقتها تبكي وافقت على الفور وأسرعت إليها.

أقفلت سلمى الهاتف وعادت دموعها تسابق أنفاسها المضطربة، احتضنت " راشتا "وهي تشهق محاولة منع صوتها للوصول إلى من بالبيت خاصة والدتها، بينما كانت الكلبة تنبح متعاطفة مع بكاء صاحبتها.

ما إن دخلت ياسمين حتى قفزت " راشتا " على الأرض خارجة من الباب المفتوح بينما تقدمت ياسمين للجلوس على السرير أمام صديقتها التي ارتمت في أحضانها شاهقة بالبكاء

ـ عزيزتي ما بك أنت تخيفينني!

ردت سلمى باكية :

ـ إنه ذاك المتعجرف ...

ـ من هذا محمد ؟

ـ نعم هذا الأحمق الذي يظن نفسه أحسن من كل الناس.

ـ ما الذي فعله ؟

حاولت سلمى ضبط أنفاسها و تجميع كلماتها و هي تقص على صديقتها ما حدث :

ـ لقد وضعت ظرف مناقصة البارحة بينما الأجل كان قد فات، دخل علي كالمجنون، خلته سيقتلني عيناه تشتعلان نارا و أسمعني كلاما جارحا جدا، لم أتعرض في حياتي كلها لمثل هذه المهانة.

ـ ما الذي قاله ؟

ـ أشياء كثيرة من بينها أنني أنانية وغير مسؤولة و مدللة و سأفلس الشركة وأشياء أخرى

كانت سلمى تتكلم ودموعها كأنها وديان تحركها رياح شديدة.

ـ أعلم أني ارتكبت خطأ، لكنني لا أستحق كل هذه القسوة والمهانة أنا أحاول بصدق، أعمل بجد منذ بدأت، أحاول الاستيعاب بسرعة حتى لا يقال هي هنا بسبب والدها لكنه كان ينتظر غلطة مني لينفجر في وجهي هكذا.

ـ ربما لم يكن يعني ما قاله!

ـ بلى، كان يعني كل كلمة، لو رأيته، لا أحد يغضب بهذه الطريقة إلا إذا كان يقصد كل كلمة و يصدقها وكأن حقدا كان يملأ قلبه وأطلق سراحه لينفجر في وجهي.

ـ لماذا يحقد عليك هو لا يعرفك إلا من فترة قصيرة و لم يحدث بينكما شيء سوى العمل

ـ لا أعلم، ربما لأنه كان مضطرا لقبولي معه في العمل، إنه مجنون عمل، هؤلاء الأشخاص لا يتحملون أن يشاركهم شخص في عملهم يريدون أن يسيطروا على كل شيء و لولا أزمته المالية لما كنت انا موجودة في تلك الشركة .

ـ وما الذي قلته أنت ردا على اتهاماته ؟

هدأت سلمى قليلا وهي تحاول تهدئة أنفاسها المتسارعة.

ـ هذا أسوأ ما في الأمر، لقد بقيت صامتة ثم هربت من أمامه ولحسن حظي أني لم أنفجر بالبكاء أمامه.

ـ ربما هذا أحسن هكذا سيكون هو المسيء وحده.

ـ لن أعود إلى ذلك المكان أبدا.

ـ و تدعينه يتغلب عليك، ليست هذه سلمى التي أعرفها !

ـ ربما كنت أدعي فقط أنني تلك التي كنت تعرفينها، ربما لأنني كنت أحتمي دائما وراء نفوذ والدي وهذه هي الحقيقة في أول مواجهة هربت ولم أستطع قول كلمة دفاعا عن نفسي.

ـ كانت تلك ردة فعل طبيعية من أثر المفاجأة، لكنك لن تنسحبي هكذا وتتركيه منتصرا صديقتي التي أعرفها جيدا قوية ولا تستسلم بسهولة.

ـ لا أريد العودة، ربما سأبدأ بالعمل مع والدي، لكنني لن أعمل مجددا مع هذا الأحمق المغرور.

ـ ربما، لكنني أعرفك جيدا سيبقى هذا الشعور يلازمك طوال حياتك ولن تتمكني من نسيان أنك انسحبت ولم تواجهيه.

ـ إذن سأكون مضطرة للعيش بهذا الشّعور لأنني بالفعل انسحبت و لم أواجهه.

ـ لكنك ستفعلين غدا، أنت تصرفت برقي امرأة ترفض الخوض مع رجل يفقد أعصابه ولا يستطيع محاورتها بعقل حاضر، غدا ستواجهينه وستشعرين بعدها بارتياح أكثر.

ـ لكنني فعلا لا أريد رؤيته أنا أكرهه.

ـ يمكنك التوقف عن العمل معه لاحقا، لكن ليس الآن.

نظرت سلمى إلى صديقتها متسائلة :

ـ متى أصبحت عاقلة هكذا ؟

أجابت ياسمين وهي تبتسم.

ـ أنا أترك لك التعقل عادة لكن عندما أراك تفقدين عقلك تتلبسني لحظات تعقل مجبرة، لا يسير حالنا ونحن الاثنتين مجنونتين.

انفرجت شفتا سلمى عن ابتسامة عريضة وهي تجيب :

ـ حسنا إذن غدا هو يوم المواجهة الكبرى، سلمى كاميلي ضد محمد مالكي وستكون الغلبة لي طبعا .

ـ مرحى بعودة صديقتي التي أعرفها، العنيدة التي لا تهزم.

تعالت ضحكات الفتاتين وتحسنت نفسية سلمى أخيرا، ليس هناك من يفهمها أفضل من صديقتها.

في الجهة الأخرى كان محمد يحاول التركيز لاتمام العمل الذي بين يديه، لكنه يجد صعوبة بالغة في ذلك، أخذ مفاتيح سيارته و خرج، من داخل سيارته اتصل بطارق و طلب أن يلاقيه في مكانهما المعتاد.

عندما كان محمد وطارق جالسان داخل المطعم الذي اعتادا اللقاء فيه، كان محمد صامتا وطارق يحاول فهم ما حدث.

ـ ألم تقل أنك تريد التحدث إلي، أنا أنتظر منذ وصلنا، وأنت على هذه الحال، لا تتوقع مني أن أفهم شيئا من صمتك، ليس لدي هذه القدرة مع الرجال.

نظر محمد الى صديقه الذي كان يحاول المزاح وهو يرى توتر صديقه.

ـ أحاول إيجاد كلماتي .

ـ يا رجل و كأن السّماء أطبقت فوق رأسك، ما الذي حدث ؟

ـ لقد فقدنا مناقصة " الأبيار "

ـ ماذا ؟ وهذا الذي يجعلك في هذه الحالة، هذه ليست أول مناقصة نفقدها وهي ليست بهذه الأهمية .

ـ فقدناها لأنها وضعت بعد الآجال المحددة.

ـ آ، ومن فعل ذلك ؟

ـ سلمى.

ـ سلمى ؟ إذا ؟؟

وضع محمد كفه يمسح بها على وجهه وسبابته وإبهامه يضغطان على عينيه المتألمتين من الضغط وهو يتذكر ما فعله .

ـ لقد ذهبت للحديث معها في هذا الأمر وأسمعتها كلاما .... قاسيا

ـ وماذا قلت لها ؟

ـ كل ذلك الكلام الذي كنت أكبته بداخلي بشأنها و بشأن رعونتها و دلالها و أنانيتها.

ـ و كيف كانت حالتك ؟

وجه طارق هذا السؤال لصديقه وهويتصور حالته التي يعرفها، عندما تخونه أعصابه وتتركه فريسة لاوعيه، محمد لا يغضب إلا نادرا لكنه مع الأسف إذا غضب أصبح يشبه المجانين لا أحد يمكنه مجادلته ساعتها أومناقشته، كان محمد مدركا لحالته تلك ويمقتها فما كان يسمح لنفسه بالغضب الا إذا غلبته الظروف ووصلت إلى أقصى حدودها معه.

أجاب متحاشيا النظر إلى صديقه :

ـ كما تعلم

ـ وصلت إلى تلك المرحلة ؟

ـ أجل .

عاد طارق بجسده على ظهر كرسيه و هو يقول محاولا تخفيف الأمر:

ـ حسنا أخبرها أنك تتعرض لحالات جنون مؤقت وأنك تعالج ذلك، ستتفهم الأمر وينتهي كل شيء فليس على المجنون حرج.

ـ ليس هذا وقت مزاحك

ـ أنا أحاول أن أجد لك حلا وأنا أتصور حالتك، كيف كانت ردة فعلها ؟

ـ كانت أغرب ردة فعل رأيتها في حياتي، تركتني أكلم نفسي وخرجت و كأن الأمر لا يعنيها بالمرة

ضحك طارق وهو يقول :

ـ لكن دعني أفهم ما الذي أوصلك لتلك الحالة، إنها ليست الا مناقصة وهي ليست بهاته القيمة والأهمية، كما أنها غلطة كان بإمكانك تجاوزها على الأقل لأنك وعدت والدها.

أخرج محمد زفيرا مضطربا وهو يقول :

ـ ربما هذه هي المشكلة، أنني منذ البداية أتعامل معها بهذا الحذر لأنها ابنة كاميلي وأنت تعرف كم أمقت معاملة الناس بما يوصلهم إليه مالهم أو نفوذهم و ليس بما يستحقونه.

ـ أعلم ذلك، لكن لا يمكنك الإنكار أن الفتاة بذلت مجهودا كبيرا لمسايرة العمل معك وأنها أبلت بلاءً حسنا رغم قصر المدة، هي نفسها تعمل جاهدة حتى لا يتم التعامل معها على أنها ابنة كاميلي.

سكت محمد وهو يدرك أن في كلام طارق كثير من الحقيقة .

ـ أتظن أني أخطأت؟

ـ ما رأيك أنت ؟

ـ لا أعلم ما علي فعله!

ـ الاعتذار.

ـ لا أستطيع ذلك.

ـ من الصعب عليك الاعتذار لامرأة ؟

ـ لا بد أنها أخبرت والدها، ووالدها أخبر والدي وهي الآن في حالة هستيريا، ولا عجب إن كان الأطباء يحيطون بمدللة " كاميلي " وهو يتوعدني.

ـ لماذا لا تجيب عن سؤالي أيصعب عليك الاعتذار لامرأة ؟

ـ ما هذا السّؤال الغبي ؟ تلك عقدك أنت فلا تحاول إلصاقها بي.

ـ فهمت الآن لماذا ليس لك علاقات بالنساء.

ـ ما الذي فهمته أيها الذكي ؟

ـ أنت تعلم أنها لا تنجح فتفضل عدم الخوض فيها من البداية.

ـ لم أكن أعلم أنك بهذا الذكاء الخارق، وكيف توصلت لهذه النظرية العبقرية ؟

ـ يا رجل أنت لا تجيد التّعامل مع النّساء فعلا، تصدر طاقة وتتكهرب بمجرد قربهن وإذا تجرأت إحداهن على دخول مجالك الجوي تتعرض لصدمة كهربائية.

ـ إذا واصلت هكذا ستتوصل حتما إلى اكتشاف نظرية خطيرة و ربما ستحصل على جائزة نوبل

ـ اعترف أنها تخيفك.

ـ من ؟

ـ سلمى.

ـ هل فقدت عقلك يا هذا ؟

أدنى طارق رأسه من صديقه و هو ينظر إليه و يقول في صوت خافت :

ـ لقد كنت تتوقع فتاة مدللة ستمل من العمل منذ الوهلة الاولى فتخلصك من التعامل معها ومن مسؤوليتها، لكنها فاجأتك لأنها أثبتت أنها عكس توقعاتك وأنت شخص يمقت المفاجآت، تحسب يومك بالدقيقة وتخطط لحياتك بالمسطرة، لذلك ما إن أخطأت حتى انفجرت في وجهها، طريقة أخرى لتجعلها تنسحب وتتخلص منها .

ـ أنا الغبي لأني أتحدث مع مجنون مثلك.

ـ أنت تعلم أنني الوحيد الذي يواجهك بما فيك ولا يخشاك وعلى كل يجب أن تجد أنت حلا لتثبت لكاميلي وابنته أنك عاقل.

سكت طارق قليلا ثم أضاف :

ـ بالمناسبة أعلم أن الوقت غير مناسب لكنني أردت أن أخبرك أمرا قبل أن تفاجأ به

استدار محمد إلى صديقه مترقبا.

ـ سأخطب هذا الخميس.

فتح محمد عينيه دهشة

ـ هل تمزح ؟

ـ لا، أنا في غاية الجدية.

ـ و من هذه ؟

ـ لبنى.

ـ لبنى التي صفعتك ؟

أجاب طارق ممتعضا.

ـ ستذكرني أنت بهذه الصفعة طوال حياتي، نعم إنها هي.

رغم الحالة التي كان عليها محمد إلا أنه لم يستطع منع ابتسامة ساخرة وهو يقول :

ـ لقد احتجت امرأة تصفعك لكي تتعقل أخيرا.

ـ أنا أنتظر يوم تصفعك أنت امرأة لتحرك أحاسيسك الباردة.

ـ هذا لن يكون أبدا، أنا لا أقوم بهذه التصرفات الحمقاء التي توصل امرأة إلى الرّغبة في صفعي

قال طارق محاولا استفزاز صديقه وقد كانت هذه من عاداته التي ألفها محمد :

ـ أنت القديس الذي لا يخطئ.

ـ لست أدعي ذلك ولكن نظرتنا للنساء مختلفة وأنت تعلم ذلك جيدا.

ابتسم طارق وأجاب في صوت ساخر:

ـ نظرتنا ؟ تقصد نظرتي فأنت لا تنظر حتّى، وكأنك صنعت من جليد.

ـ وماذا جنيت أنت من النظر، ففي آخر المطاف ستتزوج امرأة صفعتك و تقبلها على نفسك.

ـ على الأقل وجدت امرأة، انظر إليك أنت، ستنهي عمرك هكذا دون أن تجد امرأة تقبل بك.

ابتسم محمد وهو يجيب :

ـ أنت تعرف أني لو أردت فسأجد طابورا من النساء، لكن أنا من لا يريد.

ـ لماذا ؟

ـ لأنني أريد امرأة مميزة لتحمل اسمي.

ـ و إن لم تجدها هذه المميزة؟

ـ سأكتفي بامرأة تصون كرامتي واسمي .

جاءه صوت طارق مستفسرا :

ـ دون أن تحبها ؟

ـ انظروا من يتحدث عن الحب أنت آخر شخص يمكن أن يناقشني في ذلك.

ـ أنا مفروغ من أنه لا أمل مني ولكنك مختلف، أنت عشت عمرك كله دون أن تعرف امرأة.

ـ أحيانا لا يكون الحب ضروريا لبناء منزل وأسرة، إنها الحياة يكفي أن تكون قادرة على تحملي وأكون قادرا على التسليم بوجودها في حياتي.

ـ منطقك غريب يا رجل، لا أنت عاشق وفي و لا لاهٍ مزهو.

ـ لا يقتصر الأمر بين هذا وذاك فقط، أنا رجل عاقل أحسبها كما هي دون مبالغة ولا تقصير.

افترق الصديقان وقد ارتاح محمد قليلا بالكلام مع صديقه، لكنه مازال قلقا من عواقب فعلته، عندما وصل إلى البيت توقع أن يجد والده في انتظاره في حالة غضب ليستفسر عما فعله، كيف له أن يفسد علاقته بصديقه خاصة في هذا الوقت الحرج الذي دخل فيه معهما شريكا لانقاذ الشركة، لكن الأمر لم يكن كذلك حتى

الاتصال الذي كان ينتظره من " كاميلي " لم يأت، تساءل في نفسه " أيعقل أنها لم تخبر والدها " أم أن العاصفة تنتظر الصّباح لتندلع.

كانت سلمى تتجه إلى باب الشركة محاولة جعل خطاها ثابتة حتى لا تتعثر من شدة توترها، لقد اقتنعت بأنه لا يمكنها الانسحاب لمجرد أن شريكها في العمل رجل مغرور وأحمق وأنها ستواصل العمل وتثبت لنفسها وله أنها ليست أنانية وأنها مسؤولة، كما لا يمكنها أن تتركه يهزمها وهي التي عرف عنها أنها لا تستسلم، كانت صديقتها محقة يجب أن تواجهه، عندما جلست داخل مكتبها سمعت طرقا على الباب.

ـ تفضل

ـ فتح محمد الباب وأطل برأسه.

ـ أيمكنني الدخول ؟

عادت بنظرها إلى الملف الذي كان أمام يديها وأجابته بفتور دون أن تنظر إليه.

ـ أنت في شركتك يمكنك أن تفعل ما شئت.

لم تتوقع سلمى أن تراه بهذه السرعة، والحقيقة أنها لم تكن ترغب حتى في رؤيته الآن، فحالته بالأمس لازالت تشعرها بالتوتر.

أدرك محمد المعاني الخفية التي ألقتها سلمى في جملتها.

ـ إنه مكتبك أنت، أريد التحدث إليك من فضلك.

أجابت وعيناها مازالتا ترفضان النظر إليه .

ـ لا أظن أن هناك ما نتحدث به .

ـ أيمكنني الدخول لا أريد أن يسمع الموظفون حديثنا.

رفعت سلمى ناظريها أخيرا وعلى شفتيها ابتسامة مستهزئة .

ـ لم يكن هذا رأيك البارحة عندما أسمع صوتك من هم بالشارع الجانبي.

طأطأ محمد رأسه متفهما غضبها المخفي وحنقها عليه، دخل وأغلق الباب وراءه أمام نظراتها المستنكرة التي تحولت مستعجبة وهي تسمعه يقول :

ـ جئت أعتذر.

ـ عن ماذا ؟

ـ عن تصرفي بالأمس.

ـ ربما يجدر بك أن تحدد الشيء الذي تود الاعتذار عنه، هل هو طريقة دخولك مكتبي أم طريقة حديثك معي، أم تلك الكلمات المسمومة التي رميتها في وجهي.

ازدرد محمد ريقه مبللا حنجرته التي جفت على وقع كلماتها الشامخة التي تخفي جرح كلماته التي قالها.

ـ أعتذر عن كل هذا .

أمعنت النظر إليه وقد تحولت نظرتها إلى تحدٍ معلن.

ـ لماذا إذا كنت مقتنعا بما قلته ؟

ـ لم أكن أقصد ما قلته.

ارتفع حاجبها وهي ترسم على شفتيها ابتسامة آسفة.

ـ عندما عملت معك بدأت أحترمك لنزاهتك، فلا تجعل احترامي يزول كلية على الأقل دعني أشفع لك بأنك رجل نزيه لا يجيد النفاق.

تفاجأ محمد بهذا الرد و بالنظرة التي ارتسمت في عيني سلمى، كانت نظرة حادة مشبعة بالكبرياء و التحدي، ثباتها و هي ترميه بطلقات رصاص تصيب الهدف مباشرة، لم تكن تنويها قاتلة لكنها قصدتها جارحة و مؤلمة، نظر إليها و كأنه يراها لأول مرة، لم تكن سلمى فتاة فائقة الجمال لكنها كانت رقيقة التقاسيم كل شي في وجهها صغير متناسق مع بشرة بيضاء ناعمة و شعرها البني اللون المناسب للون بشرتها، تفاصيل مجتمعة تجعل المرء يرتاح لصاحبتها، لكنه الآن كان يتفحص روحها التي لم يهتم بالنظر إليها قبلا لأنه رسم في اعتقاده أنها مدللة أبيها و فقط، صدق ذلك كأنه كان يريحه فراح ينفجر فيها بكل ما آمن به دون أن يفتح عينيه ليتأكد منه، كانت هي امرأة تملأ منصبها بجهدها لا باسم والدها يمكنها أن تسمع رأيه فيها حتى لو لم يعجبها، لكنها لا تتحمل الكذب و النفاق .

قال و الدهشة تصدمه قبل أن تصل إليها مع وصول كلماته:

ـ أولا أعتذر لأني تصرفت بتلك الطريقة، ما كان يجدربي أن أفقد أعصابي، ثانيا أنا فعلا قصدت كل كلمة قلتها لكن ذلك لا يعني أني محق، أنا مخطئ لأنني رسمت لك صورة قبل أن أعرفك و صدقتها و لم يرضَ غروري تكذيبها رغم أنك كنت كل يوم تثبتين أنك تستحقين الاحترام لشخصك و ليس لشخص والدك .

كانت سلمى تسمع هذا الكلام غير مصدقة، بل تكاد تجزم أن مخيلتها تتلاعب بها الآن، لم يسبق لشخص في العالم أن أخبرها أنها تستحق الاحترام لأنها سلمى وليس لأنها ابنة " كاميلي"، أيعقل أن يكون هو أول شخص يخبرها بذلك، سمعته يضيف قاطعا أفكارها :

ـ لا أنتظر أن تقبلي اعتذاري لكنني أردت أن تعرفي أنني آسف.

استدار وخرج تاركا إياها في دهشتها، غير قادرة على تصديق أنها حصلت على أول تقدير لشخصها في حياتها من " محمد "، ابتسمت و هي تستوعب ذلك، ليس من السهل أبدا أن يعتذر رجل مثله و ليس من الهين أن تنال منه شهادة كتلك التي ألقاها في وجهها قبل لحظات، رغما عنها وجدت نفسها تنسى ما فعله البارحة، بل تشكر الأقدار عليه لتحصل بعدها على هذا الشعور بالفخر الذي يملأها الآن، اتسعت ابتسامتها وعادت بظهرها على الكرسي تستعيد وقع كلماته تحفظها مانعة إياها من الرحيل معه .

كانت ياسمين تجلس مع حليم في الكافتيريا، أخبرها هذا الأخير أنه حاصل على ليسانس في علم المحاسبة و المالية لكنه لم يجد عملا يناسب تخصصه فقبل العمل في المكتبة كبائع كتب بينما كانت تؤكد له عدم أهمية وظيفته :

ـ لا يهم ما هو عملك، المهم ألا تبقى بطالا وسيأتي يوم و تجد فيه العمل الذي يناسبك.

ـ لكن الأجرة زهيدة جدا بالكاد تكفيني لإتمام الشهر، كما أنني أساهم في مصاريف البيت فوالدي متقاعد و لدي شقيقتان تدرسان في الجامعة و أخي الأصغر في الصف الثانوي النهائي

ـ هذا دليل على أنك رجل يتحمل المسؤولية.

ـ ليس لي خيار في ذلك فعائلتي بسيطة ليس لنا إلا منحة تقاعد والدي، لا يمكنني رؤية حاجتهم والبقاء مكتوف اليدين، عندما كنت طالبا في الجامعة تحمل والدي مصاريفي، اليوم دور شقيقتاي وأخي ومن واجبي تخفيف الحمل على والدي قليلا.

ابتسمت ياسمين إعجابا بهذا الرجل وهي تقول :

ـ لست مجبرا، غيرك كان ليتحجج بأن الأجرة زهيدة ولكن ما يجبرك أنت أخلاقك وبرّك بعائلتك ليس إلا.

ـ تريدين الحقيقة، هناك إجبار من نوع آخر، أنا شاب كغيري من الشباب أريد الحياة أريد السفر أريد بناء بيت أريد شراء سيارة، لكن كل هذه الأشياء مركونة في قائمة الانتظار أحلم بها ومجبر على تأجيلها، لا أتذمر من مساعدتي لعائلتي لكنني أتذمر من ظروفي، من هذا الوطن الذي لم يعطِ أهله شيئا، هذا الوطن الذي استولى عليه بعض القراصنة ينهبون كل ما فيه ويتركوننا نتحسر دون القدرة على فعل شيء، المشكلة أننا نملك بلدا يأتي الغريب لينهل من ثرواته من شدة غناه لكننا نحن أصحاب الدار لا نرى شيئا من ذلك نسمع فقط و نتحسر .

ـ معك حقك هذا حالنا مع الأسف لكن ما باليد حيلة في النهاية هناك رب من فوق سبع سموات سيفرجها يوما ما.

ـ لولا ثقتنا بهذا الرّب لما استطعنا الاستمرار في العيش، ألا تسمعين بأولئك الذين يضعون حدا لحياتهم بالانتحار المعلن، وحتى أولئك الذين يركبون البحر في جنح الليل في قارب لا يصلح حتى لاصطياد السمك مغامرين بحياتهم لأنهم ما عاد لهم على هذه الارض حياة، أحيانا كثيرة أفكر بدرجة اليأس التي تسكن شابا يركب قاربا و هو يعلم أن وجهته هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة لكنه لا يتردد في الذهاب.

ـ " الحراقة " مع الأسف اسم ارتبط بشبابنا المهاجر إلى الموت.

ابتسم مرغما و هو يقول :

ـ فعلا، لكن دعينا من هذا الكلام، سينقلب موعدنا الأول إلى كآبة، حدثيني عن نفسك أنت

ضحكت ياسمين بخفة وهي ترد :

ـ أتظن أن الحديث عن حياتي سيبعدنا عن الكآبة، أظنك مخطئ في الشخص تماما

ضحك لضحكتها الجميلة وهو يجيب :

ـ إذن فقد التقينا وجمعتنا كآبتنا، لكنني مهتم بمعرفة تفاصيل كآبتك.

ـ أنا فتاة عادية من عائلة متوسطة الحال، حاصلة على ليسانس قانون الأعمال و التجارة الدولية و لا أعمل والديّ مطلقان، عندي قدرة رهيبة على التأقلم مع ظروفي ربما لأنني أعرف أن لا خيارات متاحة أمامي وربما لأنني قنوعة و حسب ولازالت الأحلام تسكنني، أرفض التفريط فيها لأن الانسان بدون أحلامه شخص استسلم لموت داخله و أنا أرفض أن أموت.

ابتسمت وهي تنظر إليه وتدرك أنها قالت أكثر مما يجب في موعدهما الأول، فهي كشفت له للتو عن جزء من روحها.

اقترب بوجهه منها وابتسامة ساحرة ترتسم على وجهه ينظر إليها بإعجاب وهو يقول:

ـ أنت مخطئة في شيء.

أومأت برأسها متسائلة وقد أربكها قربه عندما سمعته يضيف :

ـ أنت أبعد ما يكون عن " فتاة عادية "

سحب وجهه عائدا إلى الوراء وهو مازال يناظرها بتلك النظرة، بينما تتزايد دقات قلبها معلنة خضوعها لهذا الرجل.

دامت الجلسة أكثر من ساعتين، عرف فيها كل واحد منهما أشياء كثيرة عن الآخر، هواياته ميوله، ظروف حياته وأشياء عن طفولته، كان التوافق واضحا بينهما، استمرت لقاءاتهما واتصالاتهما الهاتفية التي تدوم لوقت متأخر من الليل، مستغلان عروض متعامل الهاتف النقال في الخصوم الليلية، يتحدثان عن اللاشيء وعن كل شيء حتى أصبح كل واحد منهما يتوقع كلمات الآخر قبل أن يقولها.

****

كانت لامية شقيقة لبنى تتلصص من باب الغرفة المفتوح قليلا، عندما رأت طارق خلف والديه، استدارت إلى أختها بفم فاغر على مصرعيه من وقع الصدمة، ضربتها بقبضة يدها المضمومة على كتفها وهي تقول :

ـ أهذا هو الذي وصفته بالمجنون، ألم تكوني قادرة على تحديد أنه بهذه الوسامة والجاذبية.

ـ لا يغرنك مظهره، أظن أن ذاك هو سبب جنونه .

داخل الصالة كان طارق يجلس رفقة والديه مع أهل لبنى، والديها وزوج شقيقتها الكبرى، كان الجميع في انتظار شاب أرعن متصاب، معتوه لا يجد كلماته، لكنهم فوجئوا بشاب أشقر وسيم يرتدي بدلة بلون أزرق قاتم و ربطة عنق جميلة على قميص ناصع البياض، لديه لحية متقنة التحديد، متحدث لبق يجيد انتقاء كلماته ووضعها في مكانها، بل ومستمع جيد والحديث معه مفتوح بسلاسة تصل حتى إلى المتعة.

جاءت والدة لبنى لتعلم ابنتها أن والدة الخاطب تريد رؤيتها

ـ لا أريد ماما، أخبرتك منذ البداية أنني غير موافقة على هذا المجنون.

عند ذلك اقتربت أمها منها تقول في صوت خافت لكنه حانق.

ـ مجنون، والله ليس هناك أجن منك، الحمد لله أننا لم نسمع كلامك واستقبلناهم، عائلة محترمة والرجل فرصة العمر وأنت تقولين مجنون.

ـ ماما أرجوك إنه مخادع، يمكن أن يسحر من معه لكنني أعلم أنه وقح مغرور ..

ـ كفى الآن، لا أريد أنا ووالدك أي إحراج، ستخرجين لمقابلة الضيوف وبعدها لنا كلام آخر .. و لا تضطريني للعودة لإخراجك.

استدارت أم لبنى خارجة وهي تتمتم " مجنون، إذا كان هذا مجنون فكيف يكون العاقل إذن "

سمعت لبنى صوت شقيقتها من هناك :

ـ الرجل سحر والديك، حديثه كله عاقل ومتقن ـ بربك أخبريني كيف وجدته أنت مجنونا أم هي عادتك في الهروب من الزواج ما جعلك تختلقين عذرا غريبا كهذا، ألم تشكي أن مجرد جلسة مع والديك ستكشف زيف عذرك

ـ أنا لا أهرب من الزواج، أيصعب لهذه الدرجة فهم أنني لن أرتبط إلا بمن أجده ندا لروحي وعقلي

ـ حبيبتي هذه أفكارٌ مراهقة، الواقع ليس فيه شيء من هذا، على كل أمك بانتظارك أخرجي قبل أن تعود لإخراجك بالقوة وأنت تعرفين والدتك عندما يتلبسها عفريتها.

تقدمت لبنى داخل الصالة بخطوات متثاقلة بينما تسبقها والدتها .

ـ هذه ابنتي لبنى.

جاءها ذلك الصوت النسائي الذي عرفت من كلماته أنه لوالدة طارق.

ـ بسم الله ماشاء الله، جعلها ربي من نصيبك يا بني.

سلمت لبنى على المرأة في خجل واضح كانت قد تخلت عنه من مدة من كثرة خطابها و لا مبالاتها، ولم تفهم لما يعود إليها هذه المرة بالذات.

جلست أمام والدة طارق بعد أن سلمت على والده وعليه بمجرد نظرة أرادتها غاضبة مهددة، لكن العيون التي كانت تراقبها جعلتها تصل مرتبكة، بينما ابتسامة مجنونها تكاد تنير الغرفة لولا ضوء المصابيح فيها.

عندما انصرف طارق ووالديه اقتحمت لامية الصّالة وهي تقول :

ـ ما الذي حدث أخبروني ؟

استدار والد لبنى إليها موجها كلامه بينما كانت هي تفرك أصابع يديها قلقا وتوترا

ـ يا ابنتي والدتك أعطتني وصفا غريبا لا يتطابق أبدا مع هذا الرّجل، أمتأكدة أنت أنه هو من وصفته بالمجنون.

ترددت لبنى و أجابت و هي لا ترفع نظرها عن الأرض :

ـ نعم بابا إنه هو.

جاءها صوت والدتها عاليا كعادتها عندما تغضب و تفقد السيطرة على نفسها

ـ و الله لا مجنون غيرك أنت و تريدين التسبب في جنوني أنا، أهذا مجنون

قاطعها زوجها و هو يقول :

ـ اهدئي يا صفية و دعيني أسمع من البنت

سكتت صفية مرغمة و هي تعرف سعة صدر زوجها، تحدث نفسها أنه لم يتسبب في دلال ابنتها هاته إلا هو، البنت وصلت ثمان و عشرون سنة و مازالت ترفض كل من تقدم لها رغم كثرتهم و كأن العمر سينتظرها حتى تختار من يناسبها

أضاف زوجها موجها كلامه لابنته :

ـ حبيبتي، الشاب بدا لي عاقلا و متزنا، إنه مدير مشاريع في شركة هامة، متخرج من الجامعة، ظروفه المادية جيدة، و حديثه أبعد ما يكون عن مجنون.

ـ إنه يتصنع ذلك يا أبي لكنه وقح مغرور و متكبر.

ـ يتصنع ماذا يا ابنتي أخبريني شيئا عاقلا أصدقه، الرجل بقي هنا لأكثر من ساعتين و حديثه كله موزون، والداه راضيان عنه و يشكران كرمه و بره بهما.

أجابت لبنى و هي تغالب دموعها :

ـ لا أريد الزواج منه بابا، لا أريده.

سمعت صوت والدتها التي لم تعد قادرة على الصمت :

ـ لا حول و لا قوة إلا بالله، أرأيت دلالك إلى أين أوصلها.

أدارت رأسها موجهة كلامها لابنتها :

ـ أتريدين أن تعنسي بجانبي أهذا ما تسعين إليه .

رفع والد لبنى ذقن ابنته بسبابته ليرى عينيها.

ـ أنا سأسأل عن الرجل وأنت فكري في الأمر جيدا حبيبتي ثم اعطني رأيك، الرجل بدا لي جيدا و لم أرَ ما يعيبه، وأنت تعلمين أنني في النهاية لن أرغمك على شيء.

وقفت لبنى تتجه إلى غرفتها بينما وصلها صوت والدتها.

ـ والله ما أفسدها إلا دلالك هذا، البنت ستعنس بجانبنا، بعدها قل حذرتني صفية لكن الوقت سيكون قد فات.

وقف سعيد منصرفا كعادته و قد ألف لحظات جنون زوجته خاصة في أمر زواج لبنى

ـ سأرتاح قليلا في الغرفة، أنا مجهد قليلا

ـ نعم انصرف هكذا، انصرفوا جميعا و اتركوني أحدث نفسي كالمجنونة

وقف عماد موجها كلامه لزوجته

ـ أننصرف لامية

عند ذلك استعادت صفية بعضا من وعيها و هي تخاطب زوج ابنتها

ـ لا يا بني مازال الوقت مبكرا

لتؤكد لامية كلام والدتها :

ـ أريد البقاء قليلا للتحدث مع لبنى

ـ نعم يا ابنتي عقلي شقيقتك التي ستتسبب في جنوني

****

في الأيام التي تلت كانت معاملة محمد أكثر احتراما و تقديرا، حتى أنه بدأ في تسليمها أعمالا جديدة في الشركة كطريقة أخرى للاعتذار كانت رسالة مضمونها الاحترام و الثقة، في البداية كان الجو فيه بعض التكهرب بينهما، لكن العمل معا و طريقة معاملة محمد جعلت الأمور تتحسن، بل و جعلت سلمى في حالة فرح غير مبررة و كأنها طالبة تتحصل على علامات تقدير من أستاذها، كان إحساسها لأول مرة في حياتها بهذا التقدير يجعلها تحس بهدوء غريب افتقدته منذ زمن طويل

دخلت سلمى البيت فوجدت والدها بانتظارها ما إن رآها حتى قام و احتضنها و هو يقول :

ـ العمل أخذك منا حتى ما عدنا نراك إلا صدفة

ردت و هي تبتسم

ـ أليس هذا ما كنت تريده بابا

ـ ليس لهذه الدرجة حبيبتي، أنا أريد أن أرى ابنتي

ـ العمل كثير هناك و أنا لا أريد أن يشتكي لك مني أحد

ـ إني أشتاق إليك يا حبيبة بابا و إلى جلساتنا، لكني أعزي نفسي بأنك تحققين تقدما رائعا في العمل.

ـ أتمنى ذلك .

ـ إنه كذلك حبيبتي، لقد تحدثت مع محمد و أكد لي أنك تبلين بلاءً رائعا

سألت سلمى في فضول :

ـ أقال محمد ذلك ؟

ـ أجل

ـ ماذا قال ؟

ـ أنك تحققين تقدما كبيرا و تتعلمين بسرعة و تملكين حسا كبيرا بالمسؤولية .

سألت سلمى وهي مازالت تتعجب من هذا الشخص الذي لا يتوقف عن مفاجأتها

ـ أقال ذلك فعلا ؟

ـ نعم لماذا تستغربين، حتى أني أردت استعادتك للعمل معي، لكنه فاجأني بطلب لم أكن أنتظره.

قالت سلمى في تلعثم و هي لا تفهم سبب ارتباكها مذ سمعت رغبة والدها باستعادتها للعمل معه

ـ أي طلب ؟

أجاب والدها و هو يضحك سعيدا.

ـ لقد طلب الزواج بك، لقد خطبك مني.

أحست سلمى أن المكان أصبح ضيقا من وقع المفاجأة و لم تجد ما تجيب به إلا أن فغرت فاها

ـ ما رأيك يا ابنتي ؟

ـ في ماذا ؟

ـ في زواجك من محمد ، لا بد أنه أخبرك و أظنكما متفقان على ذلك، أنت تعلمين أنه يمكنك مصارحتي.

ارتفع حاجبها مستنكرة.

ـ لا يا أبي الحقيقة أني أسمع هذا الأمر منك لأول مرة فهو لم يخبرني.

رد سليمان في تعجب .

ـ حقا ... ربما أراد أن يفاجئك !

أجابت سلمى بنبرة ساخرة :

ـ ولقد نجح في ذلك

رأى سليمان تعابير وجه ابنته التي لم تكن تعابير امرأة سعيدة بسماع مثل هذا الخبر و لأنه يعرف ابنته و يخشى رفضها كعادتها و لأن هذه المرة ليست ككل مرة، إنه محمد الذي طالما تمناه في سره زوجا لابنته لنبل اخلاقه و شخصيته النادرة فقد أراد ألا تتسرع سلمى في الرد خشية ألا يكون ما يرجوه

ـ اسمعي يا حبيبة أبيك، لقد رفضت كل خاطبيك لأنهم لا يعرفونك و لا تعرفينهم، لكنك تعرفين محمد و هو يعرفك أيضا كما أنه رجل ذو شخصية مميزة طيب و قوي في نفس الوقت صاحب مبادئ و على خلق كريم يمكن أن تأمنيه على حياتك لأنه سيراعي الله فيك و في معاملتك لذا أرجوك حبيبتي لا تتسرعي في الرد و فكري جيدا في طلبه .

أمام رجاء والدها وهي تدرك كم يتمنى تزويجها، ليس ليرتاح منها و إنما ليطمئن عليها خاصة وسنوات عمره تتقدم به لم تجد إلا أن وعدته بالتفكير.

ـ حسنا أبي أعدك أني سأفكر في الأمر.

عندما كانت سلمى تجلس في غرفتها كانت تحاول استيعاب الخبر الذي ألقاه والدها على مسامعها و كان الأمر يبدو لها جنونيا لا تفهمه، فكيف لمحمد أن يخطبها فرغم أنه كان لطيفا معها في المدة الأخيرة و كان يعاملها بتقدير و احترام إلا أنه لم يظهر لها

و لو مرة أنه يحبها أو حتى أنه معجب بها كانت تحاول تذكر أي إشارة على ذلك لكنها لاتجد، ثم كيف له أن يخطبها من والدها دون أن يتحدث في الأمر معها قبلا، عندما أدارت سلمى رأسها وجدت كلبتها "راشتا " تنظر إليها و أذناها البارزتان موجهتان كأنها في حالة ترقب و كأنها أصبحت تعرف حال صاحبتها عندما تكون قلقة، ابتسمت سلمى و هي تخاطبها :

ـ ألا تظنين أن هذا الرجل مجنون ؟

ثم أضافت بعد صمت قصير و راشتا تنظر إليها دائما في صمت و دون أن تحول ناظريها وكأنها على استعداد كامل لتلقي بقية الحديث :

ـ أنا أظنه كذلك فهو بالكاد يعرفني منذ أشهر قليلة وقد أظهر منذ البداية أنه يظنني دون عبقريته ثم أسمعني كلاما ما تجرأ شخص في الدنيا على قوله لي، ثم يخطبني بهذه الطريقة .

استطردت قائلة و كأنها تحلل الأحداث و تجمعها علّها تصل للحلقة المفقودة، صحيح أنه غير أسلوبه مؤخرا و أصبح أكثر احتراما لكن ليس لدرجة الرغبة بالزواج بي ألا تظنين ذلك يا راشتا ؟

تعالى نباح الكلبة و كأنها أخذت الإذن أخيرا بالكلام بتوجيه السؤال الصريح إليها، ثم اقتربت من صاحبتها و بدأت بحك رأسها على يدي سلمى التي أخذت تداعبها فروتها الكثيفة المنسدلة في انتظام و هي تضيف :

ـ أنت دائما توافقينني الرأي لكن أليس ذلك غريب فعلا أن يفاتح والدي في موضوع كهذا دون أخذ رأيي رغم أننا نتقابل كل يوم بل و لا يبدو عليه حتى أنه معجب بي.

كان التفكير في تصرف محمد الغريب يصرفها حتى عن التفكير في رأيها هي بالموضوع .

في اليوم الموالي ذهبت سلمى للعمل وهي تترقب بخشية ساعة لقائها مع محمد لكنها لم تره طيلة اليوم و أخبرتها السكرتيرة أنه عالق في تسوية مشكلة في مشروع معين.

في اليوم الثاني لم تره إلا آخر النهار و انتظرت أن يأتي للحديث معها و مفاتحتها في الموضوع لكنه تحاشاها إلى أن انصرفت دون أن يتحدثا وهي في طريقها إلى البيت عرجت على منزل ياسمين .

عندما انفردت سلمى بصديقتها بدأت كلامها بالقول :

ـ حدث معي أمر غريب.

ـ أي أمر هذا ؟

ـ لقد خطبني محمد من أبي.

صرخت ياسمين من وقع المفاجأة و الفرحة معا

ـ يا إلهي كنت أعلم أن هذا سيحدث

ردت سلمى في تعجب أبله فهي حتى الآن لم تفق من وقع المفاجأة و لا تجد تفسيرا للذي حدث

ـ كنت تعلمين أنه سيخطبني ؟

ـ كنت أعلم أن أمرا كهذا سيحدث بينكما .

ـ تقصدين منه هو لأنه لا شيء يحدث بيننا .

ـ ما الذي تقولينه أمازلت تكابرين حتى بعد أن خطبك .

ـ أنت لا تفهمين لقد خطبني من والدي دون أن يفتح الأمر معي أو يأخذ رأيي، حتى أني رأيته بعد ذلك لكنه لم يحدثني في شيء .

ـ حقا ..

ـ أجل، تعلمين بعد أن قلبت الأمر في رأسي أظن أن والده خطبني من والدي دون حتى أن يعلم هو

ـ لا يعقل ذلك إنه ليس من هذا النوع من الرجال هو يقود شركة بعمالها و مشاريعها فلا يعقل أن يعامله والده كطفل صغير .

ـ إذن ربما هدده والده بإبعاده عن الشركة فاضطر الى النزول عند رغبته.

ـ هذا غير معقول !

ـ ربما حتى أنه ينتظر مني ألا اوافق و بالتالي بدل أن يعلق هو مع والده أعلق أنا مع والدي !

ـ من أين تأتين بهذه الأفكار المجنونة ؟

ـ من جنون تصرفه، لماذا يخطبني و هو لا يملك أي شعور اتجاهي أو تقدير لي كأنثى لم أرَ يوما نظرة إعجاب في عينيه، هو لم يرَ حتى ضرورة الحديث معي في الموضوع و كأنه يتجاهلني و يستصغرني ليرغمني على الرفض بل لم أره منذ يومين كأنه يرسل لي رسالة أنه ليس مهتما بالرّد، أتظنين أن هذا تصرفا طبيعي لرجل يريد الزواج بي فعلا؟

ـ ربما هو مشغول و لديه مشاكل في الورشات.

ـ نحن نعمل في شركة واحدة ياسمين.

ـ ربما يريد إعطاءك وقتا للتفكير

ـ عليه أن يسأل أولا.

ـ لقد فعل، الرّجل خطبك من والدك .

أجابت سلمى في غضب بدأ يتملكها .

ـ لا تفقديني صوابي ياسمين برومنسيتك المجنونة، هل بقي رجل في هذا الزمن يتزوج بهذه الطريقة

****

من جهة أخرى كان محمد يتحدث مع طارق في نفس الموضوع

ـ طلبت يدها من والدها ؟

ـ أجل.

ـ أنت لا تضيع وقتك يا رجل أليست هذه سلمى التي كانت تثير قلقك وتحفظك؟

ـ كان ذلك في الماضي .

ـ أجل في الماضي البعيد جدا قبل عشرين سنة .

ـ ألا يمكن أن تكون جادا أبدا

ـ لأنك ترى أن ما فعلته أنت جاد ؟ أنت لم تفاتحها حتى في الموضوع و بعد ذلك لم ترَ أنه يجدر بك الحديث معها.

ـ الرسالة وصلتها و أنا أنتظر ردها.

ـ بكل بساطة

ـ و لم لا ؟

ـ هل تحبها ؟

أجاب محمد بعد هنيهة من الصمت

ـ لا

ـ لماذا تريد الزواج بها إذن

ـ لأني أريد زوجة أستأمنها على اسمي وأبنائي وأجدها مناسبة لذلك .

ـ و هل تظن ذلك كافيا لتكون سعيدا خاصة أنك رجل لم يخضَ بامرأة من قبل و لا تعرف ما أنت مقبل عليه بزواجك من امرأة لا يربطك بها أي شيء ولا حتى شعور بالانجذاب إليها، أنت لا تعرف فتنة النساء لا تعرف معنى الشغف، لماذا تورط نفسك مع امرأة لا يربطك بها شيء حتى الشغف أو الانجذاب

اعتدل محمد في جلسته و هو ينطر لصديقه مجيبا :

ـ كون أنني أرفض أن يكون لي علاقات متعددة بالنساء لا يعني أني جاهل بأمرهن، أنا رجل لي مركزي و مكانتي و النساء ينجذبن إلي و يحاولن الإيقاع بي، لكنني لا أريد امرأة تتقرب إلي في جرأة تفقدها أنوثتها، لا أريد امرأة تخلت عن حيائها للايقاع بصيد ثمين و سلمى امرأة ليست بحاجة للايقاع بصيد ثمين، لذلك هي تلك المرأة التي أحتاجها في حياتي .

ـ و هل تظن أن هذا سيكون كافيا لتسعد معها ؟

ـ و لما لا منذ بضعة أشهر كنت لا أطيقها و اليوم أنا أحترمها و أستلطفها

ـ هذا غير كافٍ يا رجل، بحر النساء غميق ما إن تتذوق أول رشفة شهد حتى تبحث عن المزيد

ـ هذا أنت من عودت نفسك على التحكم فيك، أنا رجل ربى نفسه على الانصياع له وعلى الانضباط، أنا أتحكم في نفسي و ليس العكس أنا أرفض أن أغرق نفسي في ملذاتها غير المشروعة، أن أطلب الحلال و لا أرضى لنفسي بغيره، و بالمناسبة أين وصلت مع لبنى ؟

تفجأ طارق بسؤال محمد الذي كان يغير مجرى الحديث، لكنه ارتاح لأن صديقه لم يدخل في وصلة وعظ عن الحلال والحرام، ما كان يميز الصداقة التي تجمعهما أن محمد و برغم التزامه لم يحكم عليه يوما، كان يوجه له النصيحة من حين لآخر بشكل غير مباشر، لكنه أبدا لم يحكم عليه من خلال أغلاطه التي يعرفها هو أكثر من صديقه، لكن طارق كان يراها مجرد صغائر سيتوقف يوما عن ارتكابها، بينما كان محمد يرى أنه له عيوبه هو الآخر و لا يحق له أن يحكم عليه أو على شخص آخر، فلا أحد عينه رقيبا على الناس .

أجابه عن سؤاله مرتاحا :

ـ خطبتها و انتظر ردها، يبدو أنها تتدلل.

ـ و كأنك متأكد من وافقتها.

ـ و هل يمكن لامرأة أن ترفضني أنا فرصة لا تعوض يا صديقي.

قالها بابتسامة لئيمة ليأتيه صوت محمد.

ـ مغرور و متكبر، أتطلع ليوم أرى من تسقط غرورك، لبنى ليست من نوع نسائك السابقات و يمكن أن تفاجئك

انفجر طارق ضاحكا وهو يجيب مؤكدا :

ـ لم تولد بعد امرأة تقاوم سحر طارق صبراوي .

****

عندما خطبها طارق كانت لبنى ترفض الأمر جملة و تفصيلا لكن والدتها رفضت إرسال الرد لطارق وحثتها على التفكير مجددا، الكل يرى فيه فرصة جيدة قد لا تعوض، الرجل منصبه مرموق و ظروفه المالية جيدة ولديه شقة جاهزة في أرقى مكان في البلد وهي تبلغ من العمر ثمان وعشرين سنة، الكل يذكرها بأن العمر يمضي وقطار الزواج قد يفوتها دون أن تجد فرصة مثل هذه، كانت كلمات أمها التي ترددها عليها منذ خطبها طارق دون كلل أو ملل لتذكرها بسنها و بأن تحمد الله على هذه الفرصة النادرة التي لا تأتي في العمر مرتين فلماذا ترفضه ؟

لم تكن لبنى تستطيع أن توضح لماذا ترفضه، كل حججها كانت أنه مغرور متكبر ومجنون لم تخبر أحدا بتفاصيل علاقتها الوجيزة به وبأنها صفعته على وجهه في ثاني موعد لهما لأنه حاول تقبيلها، سوى شقيقتها لامية التي انفجرت ضاحكة غير قادرة على السيطرة على ضحكتها إلا بعد جهد جهيد :

ـ أكان ذلك أمام الناس؟

ـ نعم

ـ يا له من وقح لكنني، أحببت وقاحته.

نظرت لبنى إلى أختها مستغربة.

ـ ما الذي يعجبك في وقاحته رجل مغرور لا يحترم أحدا.

ابتسمت لامية وهي تقول:

ـ لا أعلم ربما جرأته، لن تملي الحياة مع رجل مثله ولا تستطعين الانكار أنه وسيم وجذاب جدا بتقاسيم وجهه العابثة و طوله الفارع و جسده المتناسق.

ردت لبنى في سخرية :

ـ هذا ما لا يستطيع أحد إنكاره عليه و هذا سبب غروره، لأنه يعرف جيدا مدى وسامته وتأثيره على النساء

ـ حسنا لكن بعد الصفعة جاء الرجل مباشرة وخطبك هذا يعني أنه ليس بهذا السوء، ربما كان يبحث عن المرأة التي تقاوم وسامته وترغمه على احترامها، كما أن الرّجل قضى شهرين وهو يقنعك بمنحه موعدا، إن رجلا مثله لا يحتاج أن يخطب ليحصل على امرأة ربما هو عاشق أو على الأقل معجب ومقتنع بأنك المرأة التي يريد أن يكمل حياته معها، رجل بتجارب سابقة يبحث عن امرأة يثق فيها ولا يؤرقه ماضيها، وطارق وجد فيك هذه المرأة التي صدته ولم ترضخ له، لذا يرغب بالزواج منك .

لم تجد لبنى ما تجيب به لأنها إلى اليوم لا تدرك سبب خطبته لها، لا يعقل أنه أحبها في موعدين مرَ أغلبهما في المناقرة، عندما تتذكره لا ترى إلا وجهه بابتسامة لا تدري إذا كانت مستهزأة أم ساحرة، لا تنكر أنّ الرّجل ترك أثرا في نفسها بكلماته التي يرسلها كل يوم فهي بقدر ما تكره غروره بقدر ما تعجبها جرأته و إصراره على الارتباط بها، إنها امرأة و لا يمكن لاية امرأة أن تقاوم تمسك رجل كطارق بها ومطاردته لها و خطبته لها ربما يكون إثبات حسن نيته هو مقصده، كما أن إرادة كهذه عند أي رجل يمكن أن تذهب به بعيدا و هي طالما أسرها الطموح والارادة القوية عند أي شخص ذلك دليل قوة الشخصية، لكنها تكره كبره الذي يقفز من عينيه وغروره الذي لا يحاول حتى السيطرة عليه واخفاءه.

سمعت صوت شقيقتها يخرجها من أفكارها.

ـ عندما خطبني عماد كنت خائفة جدا أتذكرين، خشيت الخطوة و استعظمتها، أن أربط حياتي مع رجل غريب علي تحمل طباعه، علي أخذ موافقته في قرارات مهمة سأتخذها في حياتي عندما أصبح زوجته، لكنني اليوم عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أضحك على حالتي تلك، الأمور ليست بهذا التعقيد، ستعتادين الأمر و تتقبلينه مع الوقت .

صمتت لامية قليلا تطالع شقيقتها ثم أضافت:

ـ حبيبتي أنت تقاربين على الثلاثين وترفضين كل خاطب تقدم لك، إنك تنتظرين رجلا غير موجود إلا في مخيلتك، العمر لن يمنحك وقتا طويلا للاختيار، يوما ما سيتوقف الرجال عن خطبتك لأنهم يريدون فتاة شابة أصغر سنا، أنت تعلمين بأني أحبك جدا لذا أقول لك هذا الكلام، ماما محقة في كلامها رغم ضغطها عليك و طريقتها التي تبدو قاسية، لكنها تفعل ذلك بخوف أم تخشى على ابنتها فوات الوقت وضياع فرصتها في السعادة، أي رجل ستقبلين الزواج به سيكون رجلا غريبا عليك، لكنك ستألفينه بعد الزواج و تحبينه فلماذا لا يكون طارق ؟

ترددت لبنى في الإجابة ثم ردت في تراخ وهي تقول:

ـ لا أعلم !

كان واضحا أن التفكير في هذا الموضوع ينهكها ويرهق أعصابها، مذ جاءها طارق خاطبا، شيء بداخلها يخشاه و يرفضه و بعض منها يريد القبول به دون أن تدري

لماذا تخشاه و لا لماذا تريده، كما أنها في قرارة نفسها تدرك أن كلام والدتها و شقيقتها صحيح، العمر يمضي بها وهي تنتظر رجلا رسمت صفاته في مخيلتها وراجعتها لسنوات طويلة من عمرها حتى باتت ترى هذا الرجل الوهم الذي ربما لن يأتي أبدا.

سمعت صوت شقيقتها من جديد :

ـ اسمعي يا لبنى ليس كل يوم يتقدم لك رجل كطارق خاطبا وبما أنك لا تجدين فيه عيبا منطقيا فلا أفهم رفضك له، كل الرجال حبيبتي لديهم عيوبهم وتجاربهم السابقة أتظنين أن عماد مثلا بلا عيوب و بلا تجارب حتى والدك حبيبتي لديه عيوبه، عماد يكاد يفقدني صوابي أحيانا لكن له حسناته أيضا هذه طبيعة البشر و يوما ما ستتوصلين لحب هذا الشخص بعيوبه و مميزاته .

****

بعد مرور عدة أيام التقت سلمى محمد وجها لوجه و لم يستطع أحدهما تجاهل الآخر، كان كلاهما ينظر الى رفيقه و كأنه ينتظر أن يبدأ هو بالكلام ثم قطعت سلمى ذلك الصمت غير قادرة على ضبط لسانها أكثر :

ـ أليس هناك شيء يجدر بك اخباري به؟

ـ ألا يجدر بك الأمر عينه؟

ـ ربما كان الأجدر أن نبدأ من حيث بدأ الأمر.

ـ حسنا أتريدين أن نتحدث؟

ـ لا أرى بدا من ذلك بل حتى أننا تأخرنا.

ـ مكتبك أو مكتبي ؟

ـ ليس مهما!

ـ إذن تفضلي في مكتبي.

عندما جلس محمد بقيت سلمى تنظر إليه و قد قررت أن الكلام يجب أن يبدأ من عنده عندما سمعته يقول أخيرا

ـ لا بد أن والدك أخبرك بالأمر؟

ـ أي أمر هذا ؟ والدي يخبرني أشياء كثيرة .

لم تكن تنوي تسهيل الأمر عليه و أدرك هو ذلك.

ـ حسنا لقد خطبتك من والدك.

ـ ألم يكن يجدر بك مفاتحتي في الموضوع أولا؟

ـ ظننت أني أثبت حسن نيتي.

ـ في تجاهلي ؟؟؟

ـ لم يكن ذلك قصدي.

ـ ألست صاحبة الشأن أم أن الأمر صفقة بينك و بين والدي لا تخصني و لا رأي لي فيها؟

ـ أنا لم أعن ذلك أبدا، كل ما في الأمر أني أعرف والدك و أني لم أر من اللائق أن أفاتح ابنته في أمر كهذا دون أخذ رأيه خاصة أنه ما تركك تعملين معي إلا بدافع الثقة .

ـ أتظن أني طفلة تركت تحت رعايتك ؟

ـ ليس الأمر كذلك إنما هو احترام رجل لرجل.

أجابت سلمى و الغضب يتملكها.

ـ بينما احترام الرجل للمرأة غير وارد .

وقف محمد وعلامات الغضب بدأت تتلبسه

ـ لو لم أكن أحترمك لطلبت رفقتك بدل الزواج بك، لو لم أكن أحترمك لما طلبتك من والدك كما تطلب الكريمة من والدها، و لو لم أكن أحترمك لما طلبتك أصلا للزواج .

وقفت سلمى تواجه عينيه الغاضبتين رغم فرق الطول بينهما :

ـ أتريد أن تقنعني بأنك تؤمن حقا بما قلته للتو؟

كان محمد يحاول السيطرة على غضبه حتى لا يصل به إلى ما يكرهه لذا أراد إنهاء الموضوع

ـ على كل الأمر برمته كان بين يديك، موافقتك كانت ستفتحه و رفضك كان سيغلقه و لم أرد أن أتسبب في الحرج لي و لا لك في حالة ما إذا رفضت بحكم أننا نعمل معا و ما دام الموضوع يزعجك إلى هذا الحد فانسي أنني فتحته من الأساس .. يجب أن أنصرف الآن عندي عمل ضروري .

استدار وخرج من المكتب تاركا إياها مذهولة تحس أن الجملة الأخيرة كانت كصفعة على خدها و كأنه بكل بساطة يخبرها بأنه عدل عن طلبه، خرجت من المكتب غاضبة كبرياؤها كأنثى تعلو على السطح لتغطي على أي إحساس آخر، كيف يمكن لهذا المغرور أن يطلبها للزواج دون اخبارها ثم يعدل عن الأمر دون أن يسمع ردها و كأن الأمر كله بيده هو وحده و ما هي إلا شيئا أراده ثم عدل عنه، بينما الرجال يتوسلون إليها من أجل القبول بهم هي" سلمى كاميلي " وهذا الرجل يعاملها و كأنه تنازل وأخطأ عندما خطبها كيف يرفضها هكذا، من المفروض أن ترفضه هي وليس العكس .

في الأيام التي تلت كان التوتر مشحونا بين محمد وسلمى وكلاهما يتجنب الآخر، بينما محمد لم يخبر والد سلمى أنه عدل عن طلبه و سليمان مازال يلح على سلمى لمعرفة جوابها و محاولة اقناعها أنها لن تجد أحسن من محمد بتعداد مناقب الرجل و أخلاقه و مميزاته و تميزه في عمله كان هذا الأمر يقلقها و يضغط على أعصابها، لماذا يظن والدها أنها لن تجد أحسن من هذا المعتوه الذي يظن نفسه أحسن منها و كيف ستخبر والديها أن محمد تراجع عن خطبتها، عندما ضاق الأمر بها اتصلت بياسمين و خرجتا للغداء

ـ لم أعد أطيق ضغط والدي علي و لا تعالي هذا الأحمق.

ـ أخبريه أن محمد تراجع عن طلبه.

ـ سيغضب أبي و يتهمني أني فعلت شيئا أجبره على ذلك.

ـ أخبريه أنك لا توافقين و ينتهي الأمر.

ـ ألا ترين أن هذا ما يسعى إليه أن يكون الرفض من عندي أنا و ليس هو.

ـ هذا جنون يا سلمى لا أحد أجبره على خطبتك.

ـ ربما مشاريعه مع والدي.

ـ كان ذلك ممكنا لو لم يكونا قد دخلا فعلا في شراكة

ـ ربما يريد توسيعها أكثر هي مجرد شركة مقارنة بمجمع والدي

ـ و ربما لا

ـ لقد توصلت إلى حل لهذا المأزق، قررت أن أوافق

صرخت ياسمين من المفاجاة

ـ ماذا ؟ كل هذا و في النهاية ستتزوجينه

ـ من قال أني سأتزوجه سأوافق لأضطره إلى التراجع عن الخطبة .

ـ لم أفهم !

ـ لقد خطبني وهو متأكد أني سأرفضه، اختلق الأسباب لدفعي لذلك فلم يخبرني ثم استفزني بافهامي أنه تراجع و لم يعد يريدني، لذا عندما أوافق سيجد خططه كلها قد فشلت كما أنني سأرد له الصاع صاعين عندما أريه قدر نفسه خلال الخطبة و أنتقم منه و من غروره و بما أنه يؤمن أني لست أهلا له سوف يضطر إلى القول أنه لم يعد يريد الزواج بي و بذلك سيخسر هو والدي و يعلق مع والده و أبقى أنا الفائزة الوحيدة في الموضوع.

ـ هل تدركين أنك أجن فتاة عرفتها في حياتي؟

ما لم تقله سلمى و لم تعترف بها حتى لنفسها أن تراجعه عن الخطبة قد كسر كبرياءها و أن " سلمى كاميلي "هي من ترفض خاطبيها و ليس العكس، لذا كانت تنوي قبول الخطبة فقط لتكسر غرور هذا الرجل دون الوصول إلى إتمام هذا الزواج .

كان الحاج سليمان جالسا بغرفة الجلوس رفقة زوجته يشاهدان التلفاز عندما دخلت سلمى انحنت مقبلة والدها ووالدتها.

ـ مساء الخير.

رد الاثنان عليها التحية ثم سألتها والدتها .

ـ كيف حالك ابنتي؟

ـ بخير ماما .

ـ والعمل؟

ـ لا بأس به

جاءها صوت والدها سائلا :

ـ هل تحدثت مع محمد ؟

ـ نعم بابا.

ـ و هل توصلت إلى قرار ؟

ـ نعم بابا أخبره أني أوافق على طلبه.

كاد الحاج سليمان يصرخ فرحا بهذا الخبر لكنه تمالك نفسه أمام صغيرته عندما سمع صوت زوجته سائلا :

ـ هل تعنين أنك قبلت الزواج بمحمد ؟

ـ أجل ماما، ليس هناك طلب آخر أوافق عليه.

وقف سليمان فاتحا يديه.

ـ تعالي عانقي والدك العجوز

ارتمت سلمى في حضن والدها تسمع تهنئته وهي متوجسة مما تخفيه موافقتها.

ـ مبارك عليك حبيبتي و أخيرا أتى هذا اليوم خفت أن أغادر هذه الدنيا قبل أن أراك عروسا وأطمئن عليك.

رفعت سلمى رأسها إلى وجه والدها وهي تقول

ـ لا تقل هذا يا والدي أطال الله في عمرك حبيب قلبي.

سيكون لك حبيب قلب جديد سيأخذ مكاني.

ابتسمت لوالدها وهي تجيبه.

ـ لن يأخذ أحد في الدنيا مكانك فأنت حبيبي الأول وبطلي.

جاءها صوت والدتها من هناك.

ـ سأبدأ أنا بالغيرة من هذا الحب أوليس لي نصيب فيه؟

ارتفعت ضحكة سليمان مجلجلة مخاطبا زوجته.

ـ و هل أكون أنا شيئا بدونك أنت رفيقة الدرب يا غالية؟

انسحبت سلمى من حضن والدها تعانق والدتها ضاحكة و هي تقول

ـ ويلي من الحب و الدلال و ضعت أنا بينكما.

اتسعت ابتسامة الحاجة زكية وهي تحتضن ابنتها قائلة

ـ جعلك الله قرة عين زوجك و أسعد به قلبك يا حبيبة أمك.

انقبض قلب سلمى و هي ترى هذه الفرحة الكبيرة التي سكنت قلب والديها بموافقتها على الزواج من محمد عندما سمعت صوت والدها يسألها من جديد :

ـ هل أخبرت محمد بموافقتك ..

ـ لا يا أبي أترك لك أنت أمر إخباره .

في الغد اتصل سليمان بصالح و أخبره بموافقة سلمى على الزواج بمحمد، كان محمد قد التقى بسلمى لكن لا أحد منهما فتح الموضوع عندما دخل إلى البيت مساءً وجد والده في انتظاره والذي أخبره باتصال سليمان به وموافقة سلمى على عرض

الزواج به، ابتسم محمد وهو يدرك أنها تردها له فكما أرسل الرسالة مع والدها تعيد الجواب عليها مع والده الذي احتضنه مباركا ليعلمه فيما بعد أنه و كاميلي مستعجلان ويرغبان في تحديد أجل قريب، لم يمانع محمد فهو جاهز للزواج متى تم الاتفاق على التاريخ

بعد أيام قليلة فوجئت سلمى بوالدها يخبرها أنه تم الاتفاق في جلسة الرجال على أن حفل الزفاف سيكون بعد شهر.

ـ شهر هذا وقت قصير جدا يا أبي لن يكون كافيا لي.

ـ و لماذا تحتاجين لوقت طويل حبيبتي أنا سأهتم بكل شيء و صالح و محمد سيتكفلان بالأمور التي تخص أهل العريس ليس عليك إلا اختيار ملابس عرسك

ارتعبت سلمى و هي ترى تورطها في الأمر، هي لم تخطط أبدا لهذا.

ـ حتى من أجل ذلك لن يكون الوقت كافيا.

تقدم سليمان من ابنته وأمسكها من كتفيها محاولا تهدئتها.

ـ أعلم أنك مرتبكة و خائفة لأنك ستتزوجين و تبدئين حياة جديدة، لكن تأخير الزواج لا فائدة منه و محمد رجل بمعنى الكلمة سيصونك و يكرمك، الاتفاق تم أمام الرجال و لا يمكنني العودة عنه، هل ترضين لي أن أعود في كلمتي يا بنيتي.

هزت رأسها نفيا و لم تستطع أن تضيف شيئا، كيف يمكنها أن تبرر لوالدها أنها لا تريد هذا الزواج، أنها وافقت لتجعل محمد يتورط في فسخ الخطبة بعد أن تذيقه مر انتقامها و تجعله يندم على هذه الخطبة، شهر لن يكون أبدا كافيا لها لفعل شيء مما خططت له و ها هي تجد نفسها متورطة في اتمام الزواج بعد شهر واحد فقط .

خلال الأسابيع التالية كان محمد منشغلا بين العمل و بين ترتيب تجهيزات العرس و اضطر إلى السفر أسبوعا كاملا لمتابعة تخليص صفقة توريدات مهمة وبالكاد التقته سلمى صدفة مرة أومرتين كان فيها على عجلة من أمره، وجدت نفسها مجرورة إلى تحضير نفسها وشراء لوازمها غير مصدقة أنها تجهز فعلا لزفافها.

عندما دخل الأسبوع الرابع والأخير قبل اليوم الموعود وصلت سلمى الى قمة توترها وهي تدرك أن أياما قليلة فقط تفصلها على الزواج من محمد، كانت في غرفتها برفقة ياسمين التي بادرتها بالقول :

ـ إذن ستتزوجين بعد أيام قليلة.

ـ مازلت أتوقع أن هذا كابوس سأستفيق منه في أية لحظة.

ـ الزواج ليس لعبة يا سلمى إنه ارتباط أبدي، إذا كنت لا تريدينه فالوقت مازال سانحا لتقولي ذلك.

ـ ليس الأمر بهذه السهولة لقد تأخر الوقت على التراجع كل الترتيبات جهزت و كل معارف والدي مدعوون للعرس لا يمكنني أن أتراجع الآن.

ـ لكنها حياتك، سيتكلم الناس قليلا ثم ينسون الامر.

ـ لا أستطيع فعل ذلك بوالدي لقد عاش عمره يصنع هذا الاسم و يحافظ عليه، لا يمكن أن أكون سببا للمساس به أو جعله مضغة تلوكها الألسن.

ـ والدك سيتفهم الأمر في النهاية و لن يرغمك على إتمام هذا الزواج.

ـ أدرك ذلك لكن لا يمكنني أن أفعل به هذا، الخطأ خطئي بدأت الأمر بتفكير أحمق وورطت نفسي و علي أنا أن أنهيه دون أن أمس بسمعة والدي.

أحست ياسمين بورطة صديقتها فحاولت إيجاد كلمات و أعذار لمساعدتها.

ـ على الأقل محمد ليس بهذا السوء كلام والدك عنه يوحي أنه شخص جيد و ما كان ارتضاه لك زوجا لو رأى فيه ما يسوؤك و مع الوقت ستتعودان على بعضكما و ربما قد تحبينه أيضا

ـ لا أظن ذلك لكن هناك شيء اسمه الطلاق.

اتسعت عينا ياسمين و هي تسمع صديقتها

ـ أنت تتحدثين عن الطلاق و أنت لم تتزوجي بعد، لا تتسرعي يا سلمى امنحي الرجل و امنحي نفسك فرصة .

****

كانت أحلام تجلس في السيارة مع أسامة، بعد أن أقنعها بضرورة الخروج وحدهما لأنه معجب بها و يريد أن يتعرفا على بعضهما أكثر بعيدا عن باقي المجموعة، توقفت السيارة أمام فندق فاخر، ترجل أسامة و هو ينتظر نزول أحلام التي ترددت في النزول و هي ترى المكان الذي جلبها إليه .

فتح أسامة باب السيارة من الجهة التي تجلس بها أحلام متسائلا :

ـ لماذا لا تنزلين ؟

ـ لماذا نحن هنا، من تظنني لتفكر أنني سأدخل معك إلى فندق ؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة و هو يجيب :

ـ من تظنينني أنت لتفكري بي هكذا ؟ نحن سندخل مطعم الفندق فقط لأن أكلهم لذيذ، أردتك أن تجربيه و معاملتهم محترمة جدا.

ترددت أحلام في الإجابة ففاجأها هو قاطعا ترددها بصوت عاتب، بعد أن اختفت ابتسامته :

ـ على كل إذا كنت لا تثقين بي فمن الأحسن أن نعود أدراجنا و نتوقف عن المحاولة، لا داعي لإضاعة وقتي في التعرف على امرأة لا يمكنها حتى أن تثق بي.

سارعت أحلام بالنزول و هي تردد في نبرة معتذرة

ـ أعذرني أسامة أنا لم أقصد ذلك

ابتسم مستغلا الفرصة وهو يقول :

ـ تفضلي أميرتي سأجعلك تتذوقين أحلى طبق جمبري أكلته في حياتك، أرجو أن تكوني من عشاق فواكه البحر يقدمونها طازجة هنا .

أمسكت كفه الممدودة إليها وتقدمت بخطواتها معه ترتسم على محياها ابتسامة منتصرة وهي تستعيد وقع كلمة " أميرتي " على إحساسها .

****

عندما زاد الضغط على لبنى للموافقة على طارق طلبت رؤيته قبل أن تقرر و تعطي رأيها النهائي، جاءها زائرا في بيت والديها، عندما انفردت به وجهت له سؤالا صريحا لعلّ الإجابة عليه تساعدها في اتخاذ قرارها.

ـ لماذا أنا ؟

أحست لبرهة أن نظرة عينيه اختلفت، اختفت ابتسامته لم يجب مباشرة، أخذ نفسا طويلا ثم أجابها وهو ينظر مباشرة إلى عينيها :

ـ لأنك مختلفة عن كل من قابلتهن ، كل امرأة قبلك كانت مجرد عابرة في حياتي، أنت الوحيدة التي تركت أثرا في حياتي و جعلتني أرغب في رضاها، في موافقتها على دخول حياتي، أنت المرأة الوحيدة التي جعلتني أبدل كل هذا المجهود للحصول عليها .

انقبض قلب لبنى وهي تسمع هذه الكلمات من طارق غير قادرة على تحديد إذا كان يفترض بكلماته هاته أن تطمئنها أم تخيفها أكثر، وجدت نفسها تطرح تخوفها في صيغة سؤال :

ـ ربما أنك تريدني فقط لهذا السبب و ما إن تحصل عليّ حتى تمل و تسأم

أدرك طارق أن الفتاة بصدد الإفلات من بين يديه، لا يعلم إن كان ذكاؤها من يفضح أسبابه أو إحساسها هو ما يجعله مكشوف أمامها هكذا، لذا لم يكن أمامه من حل إلا طمأنتها و بعثرت خوفها هذا :

ـ لبنى أنا أعلم أنك متخوفة، لكنني لست طفلا صغيرا، أنا أطلب الزواج منك، أطلب منك أن تصبحي زوجتي و ليس شيئا آخر!

صمت طارق هنيهة ثم أردف :

ـ وافقي لبنى، أرجوك قولي أنك موافقة .

في هذه الأثناء اختارت والدة لبنى ـ التي كانت واقفة أمام الباب تستمع إلى حديثهما ـ الدخول خوفا من رفض ابنتها قائلة :

ـ وهل ستجد لبنى أفضل منك، إنها تتدلل فقط.

دحجتها لبنى بنظرة غاضبة، لما تحاول أمها إظهارها بمظهر الفتاة اليائسة، لكن والدتها تظاهرت بعدم الفهم وهي تضيف :

ـ السكوت علامة الرضا، ابنتي خجولة و لن تقولها لك مباشرة .

استغل طارق الفرصة قائلا :

ـ حسنا أنا أتفهم خجلها هي، و لكن ألن نسمع منك زغرودة الفرح دليل موافقتها

اتسعت عينا لبنى في خوف تنظر إلى والدتها نظرة متوسلة كي لا تفعل لكن والدتها لم تكترث وراحت تطلق زغرودة مغردة، ليدخل على إثرها والد لبنى الصالة و تبدأ المباركة لها ولطارق و تجد لبنى نفسها متورطة في موافقة رسمية على خطبة طارق .

تم تحديد موعد الخطبة، وجدت لبنى نفسها منصاعة بعد أن أقنعها الجميع أنه ليس هناك من سبب لرفضها سوى خوفها الذي سيتبدد بمجرد تعودها عليه، تمت الخطبة في إطار عائلي محض لم يزد عنه سوى محمد، عندما ألبس طارق لبنى خاتم الخطوبة أحس بارتعاشة يدها بين يديه، كان الخجل و الارتباك رفيقاها طيلة الوقت و تحاشت النظر إليه، تلك الشرسة التي سيروضها تدعي الخجل أمام عائلتها و عائلته، أين كان خجلها عندما صفعته أمام الناس غير مبالية بمن يوجد بالمكان، كان ينظر إليها مبتسما و أحيانا ضاحكا يبدو كأسعد خاطب حصل على حبيبته في الحلال، لكن داخله كان يتوعدها " انتظريني لم يبق إلا القليل "

في اليوم الموالي إتصل طارق بلبنى، رنّ هاتفها مرتين حتى ظن أنها لن تجيب ثم جاءه صوتها و هو يهم بإغلاق الخط.

ـ ألو..

ـ صباح الخير يا خطيبتي.

أربكتها الكلمة التي تسمعها لأول مرة .

ـ صباح الخير.

ـ كيف حال امرأتي ؟

انتفض داخلها فجأة .

ـ أخبرتك أنني لا أحب أن تناديني كذلك.

انفجر ضاحكا و هو يقول :

ـ و أخبرتك أنك ستحبين ذلك.

ـ لا تكن متأكدا هذه كلمة أرفضها رفضا تاما

أجاب و هو يبتسم .

ـ لماذا ما الذي يزعجك في هذه الكلمة

ـ ما يزعجني نبرة التملك التي تنطقها بها

استفزتها ضحكته من هناك وهو يقول

ـ ستصبحين زوجتي قريبا هذا يعني أنك ملكي.

أجابت في غضب وصله و لم يخطئه

ـ لن أصبح يوما ملكا لك و لا لغيرك، إذا كان الزواج يعني عندك أن تستعبدني فأنت مخطئ في الشخص و في المفهوم.

لم تر وجهه الذي انقلب جادا و لكن نبرته الحازمة و صلتها

ـ دعك من هذا العناد أريد أن أراك

ـ لماذا ؟

ـ أريد أن أرى خطيبتي

ـ لا يمكن

رد مستعجبا :

ـ لماذا ؟

ـ لأنك خطر في الأماكن العامة

لم يستطع كبح ضحكته التي أطلقها ترن في أذنها حتى اضطرت لإبعاد الهاتف عنها ثم سمعته يضيف بعد أن أعادت الهاتف إلى أذنها :

ـ ستعرفين قريبا خطورتي في الأماكن الخاصة

أقفلت الهاتف في وجهه و هي تتمتم بكلماتها بين شفتيها

ـ وقح، مغرور، أحمق و متكبر

- أحنت رأسها تحيطه بيديها و هي تقول

- يا إلهي ما الذي ورطني مع هذا المجنون

بينما كان هو يضحك من الجانب الآخر ينظر إلى هاتفه في زهو و هو يردد

(لم تري شيئا بعد)

في المساء فوجئت لبنى به زائرا، عندما دخل سلمت عليه و هي تنظر إليه شزرا بينما يرمقها بابتسامة رقيقة يخفي بها سعادته لرؤيتها هكذا

بعد مرور وقت ظنه لن ينتهي أبدا، أعلن مجالسه أنه سيرسل خطيبته ليتحدثا قليلا لوحدهما

كان ذلك في الصالة المشرعة أبوابها، تجلس هي في الجانب الآخر من الغرفة ورغم ذلك كان شيء بداخلها يرتجف اضطرابا، لم تكن تستطيع أن تحدد هذا الشعور الذي بداخلها، أكان خوفا من هذا الغريب الذي تعرفه و لا تعرفه، أم كان خجلا أو ربما شعورا آخرا لم تتبينه بعد عندما سمعت صوته :

- ألم تشتاقي لرؤيتي ؟

فاجأتها الكلمة و أربكتها، هل اشتاقت له ؟ رفعت بصرها الذي كان يتجاهله إليه، صدمتها رجفة قلبها و هو ينظر إليها، يكاد يلتهمها بعينين تبتسمان بسحر كأن الشوق يسكنهما، لم تجد من مهرب إلا الجواب بسؤال :

- أيفترض بي أن أشتاق ؟

إنشقت شفتاه عن ابتسامة عريضة

- أولا تشتاق المرأة لخطيبها ؟

ردت و هي تسيطر على اضطرابها

ـ أولا يشتاق الرجل لخطيبته ؟

إنفجر ضاحكا

ـ أنا سألت و طلبت رؤيتك و أنت رفضت

يا لهذا الرجل أيعني هذا الجواب المبهم أنه اشتاق أم مجرد تهرب من الإجابة (أتراه اشتاق) سألت نفسها ألا يمكنه أن يقول ببساطة " إشتقت لك " فييسر الأمور على كليهما، أيجب أن يتلاعب هكذا بالكلمات حتى يخرصها فلا تجد ما تجيب به، عندما سمعته يضيف :

ـ أراك سكتت

ـ و ماذا تريدني أن أقول ؟

ـ سألتك سؤالا

ـ و أنا سألتك أيضا

ـ أنا جاوبت

إرتسمت ابتسامة ساخرة على جانب شفتيها

ـ أوكان ذلك جوابا ؟

ـ نعم

ـ لم أفهم منه شيئا

جلجلت ضحكته مجددا، قام من مكانه مقتربا منها، إنتفضت واقفة و هي تتذكر محاولته تقبيلها سابقا، دنا منها حتى أحست بأنفاسه تدغدغ وجهها و هو يقول في

صوت أجش تسمعه منه لأول مرة :

ـ نعم اشتقت، اشتقت لعينيك الثائرتين، اشتقت لشعرك الغجري، اشتقت لشفتيك المجنونتين اللتين لا تجيدان سوى استفزازي

أحست بالحرارة تصعد إلى رأسها، ضربات قلبها تتزايد كطبول الحرب الوشيكة و قدماها ترتجفان، أفاقت على صوت نحنحة والدها و انسحاب خطيبها لا ينبئ وجهه بشيء مما حدث للتو، بينما انتهزت هي الفرصة للخروج بما بقي لقدميها من قوة لحملها

هناك في غرفتها كانت تستعيد ما حدث و ما فعله بها بمجرد كلمات ألقاها على مسامعها زرعت كل هذا الاضطراب بداخلها حتى ما عادت تدرك شيئا في واقعها سوى أنها ستكون زوجة لهذا الرجل .

****

كانت سلمى تتقلب في فراشها محاولة النوم فغدا سيكون يوما طويلا و صعبا ستحتاج لكل يقظتها لتدخل أصعب مرحلة في حياتها، غدا ستصبح زوجة محمد و هي تلعن حماقتها التي أدخلتها في زيجة لا ترتضيها، غدا سيغلق عليهما باب غرفة واحدة و ستبدأ بينهما حياة مشتركة، بينما لا قلبها و لا عقلها جاهزان لخوض غمار هذه التجربة .

بعد جهد جهيد استطاعت أخيرا أن تغمض عينيها و تغفو، فتحت عينيها على صوت المنبه كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا، نظرت إلى غرفتها، سريرها و

أشيائها، هنا كان عالمها دائما، هنا كانت أحلامها و لم يكن محمد يوما من بينها و لا حتى خيالا يشبهه .

أدركت أنها اليوم تمضي لعالم آخر، عالم مجهول مع رجل لا تعرفه حقا و لا يمكنها أن تخمن دواخله التي يخفيها ببراعة، محمد رجل غامض بالنسبة لها، لا تعرف منه إلا جانبه في العمل ووجهه كمدير و رجل أعمال، انقبض قلبها لهذه الأفكار التي تراودها عندما سمعت طرقا على الباب

ـ تفضل

ولجت والدتها مبتسمة و هي تقول :

ـ صباح الخير حبيبتي

بينما تبعتها " راشتا " مسرعة ترتمي في حضن صاحبتها التي راحت تداعب فروتها

ـ صباح الخير ماما

ـ هل نمت جيدا ؟

ـ حاولت

جلست الحاجة زكية إلى جانب ابنتها على السرير تحنو على شعر ابنتها

ـ أنت قلقة هذا طبيعي كل عروس تشعر بذلك قبل عرسها.

ابتسمت سلمى و هي ترتمي في حضن والدتها محاولة إخفاء قلقها ثم سمعت والدتها تضيف :

ـ حبيبتي لقد كبرت بسرعة، الليلة ستصبحين امرأة متزوجة و قريبا سأحمل أطفالك بين يدي كم حلمت بهذا اليوم و انتظرته، لو تعلمين مدى سعادتي اليوم .

رفعت سلمى رأسها تنظر لوجه والدتها الحبيب فرأت الدموع الصامتة التي تنهمر على خديها، احتضنتها بقوة و لم تستطع هي الأخرى منع دموعها و الشوق يغالب كليهما لفراق مقدر على كل امرأة، كأنه انفصام روح عن روح فعندما تلد المرأة طفلها ينفصل عن روحها لتراه وتحتضنه بينما عندما تزوج المرأة ابنتها فإنها تنفصل عنها لتقدمها لرجل آخر، لا تعلم إن كان سيكرمها أو يؤلمها وما كانت الحاجة زكية ـ كأي أم في العالم ـ تملك إلا الدعاء لابنتها والصبر على فراقها، كانت الأم تودع ابنتها بينما كانت سلمى تودع حياتها الهانئة إلى حياة لا تعرف ما تخفيه لها الاقدار فيها

كان العرس ليلة من ليالي الأحلام بأحد الفنادق الشهيرة، انتهى بعشاء فاخر داخل مطعم الفندق، فساتين سلمى كانت ملكية و تسريحتها أنيقة جدا، مع مكياج العروس كانت تبدو كملاك في فستانها الأبيض عندما دخل محمد في بدلته الأنيقة باللون الأزرق القاتم و قميصه الأزرق السماوي و ربطة عنق، بينما كانت تنظر إليه داخلا من الباب لم تستطع منع نفسها من الاعتراف أنه يبدو وسيما بعيونه المكحلة طبيعيا و هالة هو وحده من يملكها، هالة رجل يعرف ما يميزه في كبرياء شامخ، رافعا رأسه مع لمحة خجل خفيفة جدا كتلك التي تظهر على وجوه العرسان عادة ،

تناظره عيون النساء بينما لا ينظر هو إلا إليها متقدما نحوها، لكن ذلك لم يخفف قلقها بل زاد في تسارع نبضات قلبها كلما اقتربت خطواته منها، على يمينه والدها وعلى يساره والده هو .

عندما وصل إليها أخيرا وقف بجانبها ومدّ يده لتحتضن يدها التي ارتعشت في كفه، بدأت الزغاريد تتعالى بينما كان هو يلبسها الخاتم الذي يعلنها أمام الناس زوجته لتلبسه هي بدورها خاتمه الفضي، مدّ رأسه واضعا قبلة على جبينها بينما كلها هذه المرة يرتعش بين يديه، نظر إليها و هو يحس بارتباكها و يقول :

ـ مبارك عليك

ابتسمت ابتسامة مرتبكة بالكاد ظهرت سماتها و هي تجيب بصوت مبحوح مرتبك، رأى محمد تحرك شفتيها دون أن تصله كلماتها، بينما تقدم والده منه يهنئه ووالدها يحتضنها مهنئا ثم تبادل الوالدان الأماكن ليهنئ كل منهما الفرد الجديد في عائلته وأخيرا ارتمت سلمى بين أحضان والدتها غير قادرة على منع بكائها و انخرطت المرأتان في لحظات حنين و شوق لفراق قريب محتوم لم تعهداه من قبل، بينما محمد يناظر زوجته الباكية بين ذراعي والدتها غير قادر على فعل شيء، عندما تقدم سليمان محاولا تفرقتهما.

ـ هيا يا حاجة إنه يوم فرح و ليس يوم بكاء، ابنتك عروس اليوم.

ـ إنها دموع الفرح.

مدت يدها تمسح دموع ابنتها.

- يكفي هذا يا ابنتي، افرحي إنه يوم عرسك.

جاء صوت منشط الحفل يعلن عن دور رقصة العروسان و يدعوهما للتقدم إلى وسط الصالة انطفأت الأضواء الساطعة لتنير الصالة أضواءً خافتة متراقصة بجميع الألوان، مدّ محمد كفه ليمسك بكفها و يقودها لوسط الصالة، بينما كانت هي تنقاد وراءه دون إدراك و الرعب يتملكها استدار إليها مطوقا خصرها بينما تنطلق موسيقى هادئة ناعمة و بدأ يتحرك بجانبها، تقودها كفاه و خطواته و كأنها مغيبة و تتعالى الزغاريد مرة بعد مرة .

أحس محمد بارتباك سلمى فأنهى الرقصة وعاد بها يقودها ممسكا كفها إلى مكانهما، بقي جالسا يناظرها ثم تقدم الأهل والأصدقاء مقاطعين اللّحظة، كل يهنئهما بينما المصورة تأخذ صور تذكارية للعروسان مع أفراد العائلة .

انسحب محمد أخيرا لاحقا بأصدقائه الذين تعالت أصواتهم بين مهنئ ومستهزئ مازح وانخرط الجميع في موجات من المرح والضحك .

امتد الحفل إلى ساعة متأخرة من الليل، حوالي السّاعة الثالثة صباحا صعد العريس وعروسه إلى جناحهما بنفس الفندق تاركين الضيوف يكملون حفلتهم .داخل الغرفة كانت سلمى تجلس على السرير مترقبة، عندما دخل عليها محمد رفعت

بصرها إليه فقرأ نظرات الارتباك المتراقصة في عينيها ، جلس قبالتها يبحث عن كلمة يبدأ بها حديثه لكنها فاجأته بقولها :

ـ يجب أن نتحدث

رد مبتسما :

ـ فكرة جيدة.

سكتت تستجمع شجاعتها وتبحث عن كلماتها ثم قالت :

ـ لا أعلم كيف وصلنا إلى هنا، غرفة واحدة مغلق علينا بابها نحن الاثنان، لكنك تعلم كما أعلم أنا أن هذا الزواج لم يكن ليتم لولا علاقة والدينا.

اتسعت عينا محمد دهشة و هو يحاول استيعاب ما تعنيه وراء هذه الكلمات

ـ لماذا ؟

تنحنحت سلمى ثم أضافت :

ـ لأسباب كثيرة أهمها أنه لا يوجد أي ود أو حب بيننا.

هز رأسه مخفيا عدم رضاه بابتسامة باهتة .

ـ ليس هذا كلاما كنت أتوقع أن نبدأ به حياتنا المشتركة كزوجين.

ردت دون تردد :

ـ بالإسم فقط و أمام الناس .

اشتدت نظراته حدة و هو يسأل محاولا الوصول إلى مقصدها :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنه لن يحدث و بيني و بينك شيء.

صمتت قليلا مترددة ثم أردفت :

ـ سنعيش كأخوين فترة من الزمن ثم نطلق.

على عكس كل توقعاتها كانت ردة فعل محمد أن انفجر ضاحكا، ضحكة حادة جافة و ساخرة لا تحمل فرح الضحك و لا سروره.

ـ أخوين، حقا ... آن لي بعد هذا العمر أن أجرب إحساس الأخوة .

احمرت وجنتاها و ارتبكت كلماتها عاجزة عن مغادرة شفتاها.

احتقن داخل محمد غضبا و انتفضت كبرياؤه، وقف مواجها لها فانتفضت بدورها واقفة و هي تسمعه يقول :

ـ و من سيجبرني على هذا الكلام، من سيمنعك عني

ردت متشبتة بالشيء الوحيد الذي قد يردعه، آملة أن تكون محقة و قد سكنها الخوف و أرعبتها كلماته :

ـ كرامتك، محمد الذي أعرفه لا يقبل أن يأخذ امرأة رغما عنها .

رمقها هو بنظرة حانقة و قد زادت ظلمة عينيه الكحيلتين ثم استدار متجها إلى الباب يهم بفتحه عندما سمع صوتها :

ـ إلى أين تذهب ؟

ـ إلى الجحيم، و ما همك أنت ؟

ردت متوجسة :

ـ هل أنت خارج ؟

ـ نعم

ـ لا يمكنك فعل ذلك .

استدار إليها يطالع وجهها ووقاحتها و هو يبتسم بسخرية

ـ حقا لأنك ستمنعينني.

أطلت من عينيها نظرات متوسلة و هي تجيب :

ـ أعلم جيدا أني لا أستطيع حتى طلب ذلك منك، لكنك إن خرجت الآن سيراك كل من في الفندق و المدعوون لم يغادروا الحفل بعد.

كز محمد على أسنانه محاولا ألا يفقد السيطرة على نفسه و هو يقول :

ـ كل ما يهمك هو ما سيفكر الناس فيه!

طأطأت رأسها مجيبة :

ـ إنها سمعتي.

اقترب منها يشتعل غضبا يحاول السيطرة عليه .

ـ ولماذا تظنين أني سأكترث لسمعتك و ما يقوله الناس عنك ؟

رفعت رأسها تواجه نيران الغضب المشتعلة في عينيه

ـ لأنها سمعة والدي وأنا أعلم أنك لن تفعل هذا به.

حدجها بنظراته المتقدة ثم نطق بلهجة تحمل فحيح نيرانه :

ـ لماذا تزوجت بي، هل أرغمك والدك؟

ـ لا

ـ لماذا إذن ؟

سكتت سلمى وهي لا تجد ما تجيب به، رغم رغبتها في توجيه السّؤال ذاته له، لكنها تدرك أن الوقت وقت مهادنة، هي قد جربت انفجار ثورة غضبه من قبل وذلك أبعد ما تريد تجربته الآن، كل ما تحتاجه أن يبقى اليوم هنا معها دون إثارة أية فضيحة حتى تمر هذه الليلة بسلام.

خرج محمد من الغرفة إلى غرفة الصالة في الجناح، وداخله يستشيط غضبا بينما هي تمسك قلبها المرتعش داخلها، ترهف السّمع لتتأكد من صوت الباب الخارجي لكنها لم تسمعه هذا يعني أنه لم يغادر الجناح، بعدها سمعت صوت الماء الغزير و تأكدت أنه دخل الحمام .

كان هو يطلق الماء البارد لعله يطفئ نار غضبه و يلعن اليوم الذي فكر فيه بالزواج من مدللة أبيها، تدفعه رغبة جامحة في التوجه إليها و أخذها رغما عنها حتى يكسر روحها و غرورها وتشده كرامته، تمنعه عن فعل شيء سيندم عليه بقية حياته، هو لم يمنع نفسه عن النساء طيلة حياته لينتهي الأمر به مرغما لزوجته على القبول به، تذكر تحذيرات طارق له و راح يسأل نفسه أيعقل أن النساء في هذا الزمن لا يليق بهن إلا رجل يذلهن حتى يتعلقن به، أكان ساذجا عندما نأى بنفسه عن مغامرات مع النساء، كانت ستعلمه كيف يعامل تلك الحمقاء التي تنام بالداخل مرتاحة وحدها يوم زفافه بها .

حاولت هي النوم لكن تفكيرها كان يمنعها، كيف ستمر عليها باقي الليالي ؟ ما الذي ستفعله ؟ هل سيتقبل محمد هذا الوضع وهو لم يقل شيئا عن الموضوع ؟

كانت تلعن عقلها الصغير وتفكيرها المحدود بل وعنادها الأحمق، الذي أوصلها إلى هنا عندما سمعت توقف المياه وصوت باب الحمام .

كان محمد في الغرفة الأخرى يحاول السيطرة على غضبه وهو يفكر في هذا الأمر الجلل، أبعد صبره لسنوات وهو يمنع نفسه من أية علاقة غير مشروعة مع أية امرأة، أبعد كل صبره يحصل على امرأة لا تريده، بل و تريده أخا ... كيف يعقل أنه من بين كل نساء الأرض اختار هذه المرأة التي لا تطيقه، ما الذي سيفعله الآن، هل سيطلقها ؟ و ماذا سيقول لوالده و والدها وهل سيستطيع فعل ذلك بسمعة كاميلي الرجل لا يستحق ذلك، كان يعرف منذ البداية أن ابنته مدللة لكنه خدع بها في هذه الشهور التي عملت معه فيها، يا إلهي لماذا نسي ذلك ؟

قام من مكانه متجها إلى الحمام مرة أخرى و هي تحاول التقاط صوت حركاته مرعوبة من ردة فعله، لتسمع بعدها صوته مكبرا للصلاة.

عند السادسة استيقظت سلمى بعد سويعات قليلة من النوم المتقطع، خرجت من الغرفة متجهة للحمام لتلتقي بزوجها خارجا منه عاري الصدر مشعث الشعر، كانت نظراته قاتمة كحيوان مجروح مستعد للانقضاض على غريمه ثأرا لمعركة أولى خاسرة، أرعبتها تلك النظرات تراجعت إلى الوراء بلا وعي كردة فعل لا إرادية اقترب منها بخطوات هادئة ليقول أخيرا.

ـ لست رجلا بلا كرامة و لست المرأة التي لا تقاوم .

لفحتها أنفاسه الساخنة من أثر حمامه الساخن وهي تتحاشى مواجهة عينيه، انسحب و هو يقول بنبرة مستهزئة .

ـ سأطلب الفطور هنا كأي عروسين في صباحهما الأول، حتى لا يفكر الناس بشيء سيء فيك لا سمح الله.

أسرعت هي بخطواتها إلى الحمام تغلقه عليها، علها تحتمي من وجوده الطاغي ونظراته الغاضبة و نفسها تردد (ما الذي فعلته بنفسك أيتها الحمقاء، هذا أول يوم فكيف ستمر عليك شهور بأكملها)

مر الفطور في صمت مطبق حتى نطق محمد أخيرا.

ـ كنت قد حجزت لنا تذكرتي سفر إلى إيطاليا بتاريخ الغد، كان يفترض بالأمر أن يكون مفاجأة لك، لكن والدي ووالديك على دراية بهذه الرحلة وطارق كذلك لأني رتبت أمور العمل على أساس أني سأكون غائبا.

صمت هنيهة وهو يطالع ردة فعل منها، لكنها كانت صامتة رغم داخلها المتقد لهيبا أضاف حينها :

ـ إلغاء السفر سيثير الريبة لذا حضري نفسك للسفر غدا، لقد جهزت لك والدتك حقيبة صغيرة، كان المفترض أن نبقى أسبوعان لكننا سنعود بعد أسبوع بحجة ظهور عمل طارئ.

وقف محمد متجها الى الجهة الأخرى من الصالة، ارتدى جاكيته دون أن يرفع بصره عنها يترقب أي حركة منها، أية ردة فعل، أية كلمة، لكن لا شيء إلا الصمت.

ـ أنا خارج سأعود متأخرا

اقترب منها مرة أخرى حيث كانت لاتزال جالسة ووضع مبلغا من النقود على الطاولة وهو يضيف :

ـ إذا أردت شراء شيء قبل السفر فالفندق مليء بالمحلات.

كان محمد مع طارق في سيارته بعد أن أقله هذا الأخير من الفندق بعدما اتصل به محمد

ـ أي عريس أنت لتترك عروسك، هل مللت من ثاني يوم ؟

نظر محمد إلى صديقه متفاديا الحديث في الموضوع.

ـ اسمع يا طارق لقد اتفقت معك على عطلة أسبوعين، لكنني سأعود بعد أسبوع واحد، اختلق مشكلة أمام والدي حتى نبرر عودتي.

ـ ما هذا الكلام الذي تقوله ؟ لقد رتبنا كل شيء، يمكننا تدبر الأمر بدونك لمدة أسبوعين.

ـ طارق أرجوك، تدبر الأمر أنا سأعود بعد أسبوع.

استدار طارق ناحية محمد وهو يقول :

ـ أنت عريس يا رجل لن يهرب العمل!

ـ طارق لم لا تفعل ما أطلبه منك دون أن تتعبني؟ الأمر تقرر وانتهى.

لاحظ طارق انقباض ملامح صديقه التي يعرفها كدليل قلق مكتوم.

ـ ماذا هناك محمد هل من مشكل ؟

ـ ليس هناك أي مشكل نفذ فقط ما طلبته منك أرجوك .

التقط طارق نبرة الحزن في صوت صديقه.

ـ أنت تعلم أنه يمكنك اخباري، هل حدث شيء ليلة البارحة؟

ـ لا أريد الحديث في الأمر.

ـ هل مرت ليلتكما بسلام ؟ أنت تعلم أنه ربما يمكنني تقديم يد المساعدة .

خرجت الجملة من فم محمد دون أن يراقبها.

ـ لا أحد يستطيع المساعدة في هذا الأمر .

ـ ألم تستطع ....

رد محمد مقاطعا صديقه :

ـ لم يحدث شيء حتى المحاولة .

حاول طارق التحكم في صوته حتى لا تظهر صدمته :

ـ المشكل منك أو منها ؟

ارتفع صوت محمد و قد أدرك أخيرا ما يفكر فيه طارق.

ـ ليس الأمر كما تظن .

ـ إذن ماذا ؟

ـ الأمر لا يخصك طارق ولا أريد الحديث فيه .

ـ أنت صديقي يا رجل أريد فقط أن أطمئن .

نظر محمد إلى طارق وهو يعلم جيدا أن هذا الاخير لن يتركه حتى يأخذ جوابه.

ـ حسنا سأخبرك، لكن هذه أول وآخر مرة سنتحدث فيها في هذا الموضوع ولا أريد أسئلة أخرى.

ـ حسنا

ـ إنها تنوي أن نبقى كأخوين إلى أن يتم الطلاق.

صرخ طارق مصدوما .

ـ ماذا ؟ لكنكما زوجين!

ـ شكرا على المعلومة.

ـ لكن لماذا هذا الموقف الغريب

ـ طلبت منك ألا تسأل!

ـ سأفهم ثم يغلق الموضوع، لماذا ؟

ـ لأنها لا تحبني.

ـ هناك شخص آخر ؟

ـ لا أدري!

ـ هل أجبرها والدها على الزواج بك ؟

ـ لا أعلم !

ـ لكن لا بد من سبب.

ـ لا تحبني وانتهى الأمر، أغلق الموضوع يا طارق.

أمسك طارق لسانه دقائق لكنه لم يستطع أكثر.

ـ لماذا تزوجتك إذن ؟

زفر محمد بضيق وهو يجيب :

ـ لا أعلم يا طارق ولا أريد أن أعرف

ضرب طارق مقود السّيارة بقبضة يده وهو يقول.

ـ النساء كلهن سواء... وماذا ستفعل الآن؟

ـ اختلق مشكلة في العمل حتى أعود بنهاية الأسبوع وانتهى الموضوع .

عندما عاد محمد الى الفندق كانت السّاعة حوالي السّابعة ليلا، وجد سلمى جالسة بالصالة،

وقعت عيناه على الطاولة أين كانت النّقود التي تركها كما هي في مكانها .

ـ لم تشتر شيئا ؟

ـ لا

ـ لماذا ؟

ـ لست بحاجة لشيء لا أحتاج النقود يمكنك استعادتها.

نظر محمد إلى سلمى شزرا و قال محاولا كبث غضبه

ـ حسنا، لقد وضعت قوانين لعبتك لكن عليك اتباع قوانيني أيضا، أنت زوجتي سواءً حدث بيننا شيء أو لم يحدث و أنا الرجل مادمنا متزوجين، لذا أنا المسؤول عن المصروف و عن حاجياتك و لا أريد أن أسمع أنك طلبت شيئا من والدك.

ـ ولكن ...

قاطعها محمد بحدة :

ـ اسمعيني جيدا كما تريدين مني الحفاظ على سمعتك، عليك عدم المساس بسمعتي، لا أريد أن يظن والدك أنني مقصر في حق زوجتي.

ـ لكنني أعمل وأتقاضى راتبا ولست بحاجة ...

أضاف هو مقاطعا كلامها مرة أخرى:

ـ ذلك أمر آخر لكنني مسؤول عنك كما هو الأمر بالنسبة لأي زوجين عاديين

سكتت سلمى عن الإجابة لكنها اعتزمت في نفسها أنها لن تطلب منه شيئا.

****

في الأيام التي تلت كانت أحلام تقص على نادية تفاصيل لقائها بأسامة .

ـ إذن فهو يعجبك ؟

ـ جدا، اللقاء كان رائعا، إنه يعاملني فعلا كأميرة.

ـ أسامة شاب من عائلة غنية تعود على الترف والحياة الرغيدة، لا عجب أنه يعاملك كأميرة، لأنه هو نفسه أمير، إنه فرصة لا تعوض يا فتاة تمسكي بها ولا تضيعيها حاولي إرضاءه وتعليقه بك.

ـ أنا أعرف ذلك وهو يبدو معجبا جدا بي، لذا سأجعله يدمنني، إنها فرصتي ولا أنوي أبدا تضييعها والتفريط فيها، ليس كل يوم تجد الواحدة منا شابا في غنى أسامة، صحيح أنه ليس وسيما ولكن غناه و اسم عائلته يغنيانه عن أي شيء آخر.

ـ صدقت يا فتاة.

رغم انتماء أحلام لعائلة متوسطة الحال إلا أنها لم تكن تعاني من أي نقص فشقيقها الذي يعمل في منصب مهم، يغدق عليها ولا يحرمها من شيء لكن نفسها كانت تتوق لأكثر من ذلك كانت تبحث عن زوج من عائلة غنية، منذ أدركت أن هناك طبقة أخرى في الحياة تعيش عيش الأمراء و تتقلب في النعيم، عزمت في قرارة نفسها أنها ستكون منهم، كانت تعلم أن الله لم يخلقها ضمن هذه الطبقة، لكنها كانت تدرك يقينا أن الله لم يخلقها بهذا الجمال عبثا، كانت أحلام تشبه كثيرا والدتها و شقيقها الأكبر بعيون عسلية واسعة و شعر أشقر، لذا حرصت في الجامعة أن تصادق طلاب هذه الطبقة ومن يومها وهي تحلم باليوم الذي ستلتقي فيه بفارس أحلامها، ذلك الأمير الذي سيجعلها أميرة وسيعاملها كملكة، ذلك الشاب الذي سينقلها إلى طبقة الأغنياء التي تحلم بها منذ اقتنعت أنها جاءت إلى الدنيا لتنتمي إلى تلك الطبقة، و ها هو أسامة يحمل تلك الصفات التي كانت تطمح لإيجادها عدا

الوسامة التي لم يكن يتمتع بها لكن ذلك لم يكن مهما، هكذا هي تستطيع أن تفتنه و تجعله يهيم بها .

كانت نادية تقل عنها جمالا بدرجات كبيرة، كانت دائما تشجعها على اصطياد زوج غني يجعلها تعرف رغد العيش، بل كانت تحثها حتى على بعض التنازلات إذا تطلب الأمر ذلك، المهم هو الوصول إلى النتيجة المرغوبة و جمالها يسمح لها بالاختيار و التدلل، لم تكن نادية يوما تلك الصديقة التي تمنعها عن الخطأ إذا رأتها تسقط فيه، و لا تلك التي تبادرها بالنصيحة التي تحفظ كرامتها و سمعتها، إنما هي زميلة عرضية و ضعها القدر في طريقها، و ارتضتها نفس أحلام لأنها لم تكن تعارضها في شيء و كانت تشجعها على ما يدفعها إليه هوى نفسها .

****

عندما وصل محمد و سلمى إلى روما اكتشفت أن زوجها يتكلم الايطالية بطلاقة شديدة، حاول إيجاد غرفة أخرى لكن الفندق كان محجوزا بالكامل لأن الفترة صيف، الموسم السياحي بدأ والحجوزات تتم قبل الوقت، اضطر الزوجان بقبول ما حجزاه مسبقا، طلب محمد العشاء في الغرفة و اضطر أخيرا للنوم على الأريكة تاركا السرير العريض بأكمله لعروسه، بينما كانت السخرية تملأ نفسه و هو يفكر في هذا الوضع الذي ارتضاه وقبل به مرغما، بينما عزة نفسه وكبرياؤه يمنعانه من اتخاذ أية خطوة نحو هذه العروس المستلقية على فراشها متدثرة من رأسها حتى أخمص قدميها وكأن الوقت ليس صيفا، مستديرة إلى الجانب الآخر تمنعه من رؤية وجهها

أو قراءة أية علامات عليه، عادت تلك الفكرة تراوده بينما صورة صديقه بابتسامته الساخرة تلح عليه، أكان طارق محقا أيجب في هذا الزمان أن تعامل النساء كما يعاملهن طارق ؟ أكان يجب أن يكون زير نساء وقح و مغرور حتى تتراكض النساء حوله و حتى تقبل تلك النائمة أن تكون زوجته، لماذا تزوجته إذا كانت لا تنوي إتمام الزواج ؟ لماذا قبلت هذا الارتباط لتصل إلى الطلاق ؟ و لماذا يقبل هو بهذا الوضع ؟ استيقظت شياطينه التي كان يكبتها على هذه الفكرة و لماذا يقبل بهذا الوضع ؟ لماذا لا يقوم الآن و يأخذ حقه كزوج برضاها أو رغما عنها لماذا يتركها تتحكم هي في الموضوع و كأنه ليس له حق القرار ؟ انقبض صدره و علا صوت أنفاسه الهادرة على وقع هذه الأفكار الغاضبة، اعتدل فجأة جالسا يطالع تلك الغافلة عنه و عن أفكاره المجنونة .

لكنها لم تكن حقا غافلة، كانت تدعي النوم هروبا من أية مواجهة، أحست بهدير أنفاسه الذي علا فجأة ثم سمعت صوت حركاته ارتعبت في صمت و هي تدعو ألا يتهور و ألا يقوم بما تخشاه، كانت تدرك في هذه اللحظات أكثر من أي وقت مضى حجم الحماقة التي ارتكبتها، محمد رجل ككل الرجال و هو معها في غرفة واحدة و الشيطان ثالثهما و الأدهى أنه كان زوجها و له كل الحقوق عليها، أي غباء جعل تفكيرها يوصلها أنها ستعيش معه هكذا دون أن يحدث شيء، كانت تتمسك بالدعاء الصامت في مناجاة غريق يرجو الخلاص و لا يعرف كيف عندما سمعت حركة أخرى انقبض قلبها و تمسكت بغطائها مترقبة خائفة.

تحرك هو يبعد عينيه عن جسدها المغطى متجها إلى الحمام، ليطلق الماء البارد يضرب جسده المشتعل عله يهدأ و يعود إلى رشده، ما كان " محمد مالكي " الذي عاش عمره يرفض الوقوع في الخطأ مع كل الفرص التي أتيحت له أن يخضع اليوم لرغبة تسكنه في لحظة غضب، ما كانت كرامته و لا كبرياؤه و لا رجولته يسمحون له أن يقبل ذلّ الحصول على لحظات متعة مع امرأة لا تريده حتى لو كانت زوجته و حلاله .

مرت الليلة في سلام على سلمى التي استيقظت لتجد محمد غائبا، تذكرت أنه من الأشخاص الذين لهم عادة الاستيقاظ باكرا، اتجهت إلى الحمام تغسل وجهها لتجد ورقة معلقة على المرآة مكتوبة بخط جميل أثار انتباهها، خط واثق بأحرف كبيرة تدل على ثقة واضحة، توقعت أنه خط محمد و تأكدت و هي تقرأ ما كتب عليها، كان ينبئها أنه خرج و سيعود قبل الغداء، رغما عنها أخذها تفكيرها إلى تقدير هذه اللفتة، كان بإمكانه ألا يكترث و يتركها لجهلها أو قلقها باعتبار الوضع بينهما لكنه لم يفعل .

قبل موعد الغداء بقليل فتح باب الغرفة ليدخل منه محمد حاملا كيسا ورقيا يحمل علامة معروفة التقت عيناهما وهي جالسة على الأريكة التي استعملها هو كسرير، ألقى عليها تحية مقتضبة متجها إلى الغرفة و هو يسمع رد تحيته دون أن ينظر إليها.

بعد دقائق قليلة خرج مرتديا سروال جينز وقميصا رياضيا أبيضا يحدد تفاصيل صدره العريض ويظهر عضلاته تحت القماش، فاجأتها طلته وهي تراه هكذا لأول

مرة في حياتها، فهي لم تره إلا وهو يرتدي ملابس كلاسيكية، بدلات مرفقة بربطات عنق طالما جذبتها ألوانها المميزة، رغم تعقيد شخصيته الحازمة والغامضة إلا أنها اعترفت له دائما في قرارة نفسها بذوقه العالي في اختيار هندامه وقدرته الكبيرة على تنسيق الألوان.

كان الآن يبدو أصغر سنا، أكثر شبابا وأقل حزما، مختلفا عن ذلك الرّجل الذي عرفته دائما أيقظها صوته من غفوة تأملاتها.

ـ جهزي نفسك للخروج سنتغدى في مطعم الفندق ثم نقوم بجولة في المدينة.

أجابته بصوت مرتبك :

ـ لا أريد الخروج، سأصعد بعد الغداء يمكنك أنت الذهاب كما تشاء لا تزعج نفسك بي.

نظر إليها بطرف عينه وهو يقول:

ـ لن تبقي في الغرفة وأنت في روما حضري نفسك، وستنتعشى في الخارج .

تنحنحت و هي تقول.

ـ لا أريد إزعاجك .

هذه المرة استادر إليها بكامل وجهه وهو يقول :

ـ إذن توقفي عن التصرف كطفلة، هل تنوين البقاء محتجزة في الغرفة أسبوعا كاملا ؟

كانت سترد على إهانته لكن صوتا قادما من أعماقها أسكتها وهي تتذكر أنها هي من وضعت نفسها في هذا الموقف وليست بحاجة لإثارة حنقه أكثر، خاصة وهي منفردة معه في غرفة واحدة في أرض بعيدة.

مرت الأمسية في التجوال على معالم سياحية في المدينة بينما كان الضغط والصمت ما ميزاها بعدها قادها إلى مطعم في الهواء الطلق، تعشيا و عادا إلى الفندق ليستلقي كل في مكانه محاولا النوم مصارعا أفكاره المرعبة.

في اليوم الموالي أخذها في جولة على المحلات لاقتناء هدايا للعائلة والأصدقاء، فوجئت بوجهه الذي لم تعرفه قبلا وجه مبتسم منطلق، كان يدخل في حوارات مازحة مع البائعين وأصحاب المحلات في قدرة هائلة على التحكم في مفردات اللغة الإيطالية، لمحت نظرات تلك البائعة التي استقبلته بابتسامة عريضة أول ما رأته داخلا من باب المحل، طريقة كلامها معه رغم أنها لم تفهم حديثهما، إلا أنها أدركت أن هناك سابق معرفة بينهما، و تأكدت من ذلك عندما ترجم لها زوجها كلمات البائعة التي كانت تهنئها على زواجها بمحمد، اقتنى هو بضعة أشياء مميزة لكنها كانت ترفض شراء أي شيء بحجة أنها لا تجد ما يعجبها، في اليوم الثالث أعلمها أنه كان قد حجز لحفلة منذ مدة في أوبرا " لا سكالا " بمدينة ميلانو وأن الحفلة بعد غد لتحضر نفسها، اتسعت عيناها دهشة وهي تسأل نفسها (لماذا يريد

شخص حضور حفلة أوبرا ما الفائدة وما المتعة التي يرتجيها من ذلك) لكنها طبعا لم تستطع قول هذا الكلام له، أجابته فقط أنها ليست من عشاق الأوبرا، لكنه أخبرها أنها تجربة فريدة ستحبها إذا جربتها و أنه على كل حال قد حجز لشخصين و ليس لها خيار الرفض، مرة أخرى سكتت تجنبا لأي مشكل معه، خرج معها في اليوم الموالي لانتقاء فستان سهرة ومعطف من الفرو لحضور الحفلة، اعترضت على الأمر طويلا ورفضت شراء أي فستان، لكنها رضخت في الأخير بعدما تأكدت أنه لن يستسلم حتى تقتني فستان السهرة اللعين، اكتشفت أنه عنيد جدا و لديه قدرة هائلة على الصّبر والتحمل واستسلمت هي في النهاية .

في الأوبرا كانت تجلس بجانبه في مكانهما المخصصان حسب رقم التذكرتين، تنتظر في ملل واضح بينما يراقب هو حركاتها وامتعاضها دون قول شيء، امتلأت القاعة وعمّ المكان صمت مطبق، تم تخفيف الضوء ليشتعل ضوء آخر ينير منصة المسرح الكبيرة ويصدح صوت قوي جهوري بنغمة مميزة ممزقا صمت المكان.

كان صوت المغنية جميلا وقويا لكنها لم تكن تفهم الكلمات التي تبينت أنها ليست باللغة الايطالية، أحست بداية بالملل أمام عدم الفهم هذا لكن مع تواصل العرض ودخول الشخصيات الأخرى إلى الخشبة بدأت تتبين القصة التي فهمت رويدا رويدا أنها قصة حب درامية بين بطلي العرض الأساسيين اللذين كانا ينشدان مقطوعة حزينة فهمت منها أنها مناجاة حبيبن، مع تقدم العرض اندمجت مع الموسيقى والحركات وأحبت الأصوات القوية التي كانت تصدح في تناغم مع

الحركات، كان محمد يراقب تغير حركات وجهها دليلا على اندماجها ويلاحظ أنها بدأت تتابع بشغف أكبر.

عندما عادت إلى الفندق فاجأها إحساسها بأنها استمتعت فعلا بالأمسية، كان يطغى عليها إحساس غريب بالنشوة تركته آثار المسرحية التي حضرتها ونامت هانئة لأول مرة منذ حضورها إلى إيطاليا، بل منذ زواجها من محمد، بينما نام هو مضطربا يغالب هواجسه ويسأل نفسه (ما هذا الذي يفعله)

في اليوم السادس أخذها إلى مدينة فينيسيا (البندقية) في جولة سياحية في قارب الجندول الطويل المعروف في فينيسيا والذي يبلغ طوله عشرة أمتار، حيث يستطيع الراكب رؤية المدينة التي بنيت فوق المياه بشكل أفضل ومختلف ومشاهدة معالمها السّياحية، في المساء تلقى محمد الاتصال المنتظر من طارق، كان قد غير الحجز للعودة قبل المجيء، أعلمه أنه وجد صعوبة في إقناع والده بضرورة عودته لحل المشكل وأنه اختلق مشكلا طويلا عريضا ليوافق الأب على إزعاج ابنه العريس في رحلته.

كانت سلمى تحضر حقيبة السّفر عندما وجدته يفعل نفس الشيء ويحضر حقيبته، فوجئت وهي تراقبه بطريقته المتقنة في طي الملابس ووضعها في الحقيبة فاجأ نظراتها التي تطالع حقيبته وفهم سر اندهاشها، هو يعرف أنه رجل يشغله هاجس العمل المتقن لكنه لا يحتمل رؤية العمل ناقصا، بادرها مجيبا عن سؤالها الذي لم تطرحه.

ـ أنا أسافر كثيرا بحكم العمل، لقد تعودت على ترتيب حقيبتي وحدي.

هزت رأسها تطالع حقيبتها، كانت تبدو غير مرتبة نظرا الى إتقان ترتيب حقيبته هو .

حاولت تغيير الموضوع وقالت :

ـ كنت أنوي الخروج لشراء بعض الأشياء.

ـ حسنا، سأنتهي من هذا ثم نخرج.

ردت متحرجة بصوت متردد.

ـ كنت أريد الخروج وحدي.

أحس محمد بالانقباض يسكن قلبه، لكنه حاول إخفاءه

ـ أنت لا تعرفين المدينة كيف ستتصرفين

ـ سأستأجر سيارة أجرة.

رفع رأسه يدعي اللامبالاة لكن كلماته التي لم يستطع السيطرة عليها فضحته.

ـ إذا كنت تفضلين رفقة رجل غريب على رفقتي فلك ذلك

خرجت كلماتها محاولة منع التهمة عنها.

ـ إنه سائق ليقلني لا ليرافقني!

ـ ليس مهما، النتيجة واحدة.

سكتت سلمى على مضض وهي لا ترغب في الدخول معه في نقاش ستكون الخاسرة فيه الأسبوع يكاد ينتهي فلا داعي لاختلاق مشكلة في نهايته.

أغلق حقيبته وقد انتهى من تحضيرها، اتجه إلى هناك حيث فتح حقيبة يد صغيرة وأخرج منها بعض النقود باليورو ومد يده لها، لكنها نظرت إلى يده ثم إليه دون أن تمد يدها لتأخذ منه المال

جاءها صوته المستنكر :

ـ بماذا تنوين شراء حاجياتك ؟ ..بالدّينار ؟؟

انتبهت إلى غفلتها عن كونها لم تحضر معها اليورو لأنها أساسا لم تكن على علم بهذه الرحلة وأحست بحمقها في إبداء رغبتها هذه دون تفكير، كيف ستبرر له الآن أنها لم تعد تريد المال، عندما قاطعها صوته المشحون غضبا مكتوما يقاومه حتى لا ينفجر في وجهها :

ـ أظن أننا حسمنا هذا الأمر، أنت اخترت اللّعبة وعليك احترام كل قواعدها، لا أريد أن تلصق بي تهمة الشّح لأني لم أشتر شيئا لأهل زوجتي.

مدت سلمى يدها مترددة وهي تدرك أنه لم يعد لها إمكانية الرّفض ولا التهرب .

****

في الأيام التي تلت قرر طارق تخفيف طريقة استفزازه للبنى، حتى لا تهرب من قبضة يده وهي مازالت خطيبته فقط ويمكنها التراجع في أية لحظة عن إتمام هذا الزواج، استبدل إستراتيجية حربه بما يهادن به عنادها ليهزم أية بادرة تردد لديها، قلل من زيارته إلى بيتهم وبدأ في إرسال الورد مع بطاقات صغيرة تحمل كلمات منمقة من كلماته التي يجيد استعمالها مع نسائه، لطالما كان سيد الكلمات وسيد الغزل ولطالما ذابت فاتنات على وقع سحر كلماته، أرسل علبة شوكولا فاخرة لكنه عرف بعد اتصاله أنها لا تحب إلا الشكولا السوداء تعجب من ذوقها وهو يقول:

ـ عجيب أمرك كل النساء تعشقن كل أنواع الشكولا.

أجابته بكلمات مقصودة لتواري رسالة أرادتها مفضوحة :

ـ لست كأي من النساء اللواتي عرفتهن قبلي، أنا لا أشبه إلا نفسي!

انفجر ضاحكا رغم استيعابه للرسالة غير قادر على منع نفسه من اجابتها بكلمة واحدة :

ـ مغرورة!

جاءه صوتها عبر الهاتف واثقا :

ـ إن كان لا يرضيك ذلك فأنت مازلت على البر

أجابها بصوت حاد مختلط بنبرة مازحة :

ـ يكاد غرورك يضاهي غروري

ابتسمت ساخرة من كلماته

ـ على الأقل تعترف أنك مغرور

ـ وأنت كذلك.

ـ أنا واثقة و لست مغرورة، سيان بين هذا وذاك.

انفجر ضاحكا مرة أخرى بتلك الضحكة التي أصبحت تلعب بأعصابها مذ سمعتها أول مرة لكنها غير قادرة على التأقلم معها واعتيادها، ضحكة عابثة مجلجلة واثقة تضرب بكل شيء عرض الحائط، غير عابئة بمن يسمعها أو ينزعج منها، توشي بغرور صاحبها و ثقته الزائدة من أين له بكل هذه الثقة ؟ من أين له بكل هذا الغرور؟ أترى هناك شيء في العالم يمكن أن يهز ثقته و يكسر غروره ؟ هل سيأتي يوم عليها وتعتاد هذا الطبع فيه أم بإمكانها صقله وتهذيبه ؟

في المرات القليلة التي زارهم في البيت حاول السيطرة على نفسه ليبدو ذلك الرجل الهادئ المهذب الذي لا يرجو شيئا سوى اتمام زواجه بالمرأة التي اختارها، كلماته كانت تربكها ولكنه لم يتحدث يوما عن الحب .

في آخر زيارة له ألح على والدها من أجل تحديد موعد الزفاف هو حاضر بكل شيء و يريد تعجيل الأمر بما أنهم متفقون، فلا داعي لإضاعة الوقت أكثر و ذلك حتى يستقر وضعه وتفكيره في عمله .

عندما أخبر والد لبنى ابنته بطلب خطيبها بدا تخوفها جليا وترددها، بدأ النقاش في البيت من أجل تحديد الموعد المناسب، بينما صاحبة الأمر تائهة و ساكتة كأن الطير على رأسها، عندما سألها والدها :

ـ ما رأيك يا لبنى في هذا التاريخ ؟ جهازك جاهز والرجل مستعجل.

عندما لم يجد ردا من ابنته كرر سؤاله :

ـ ما رأيك يا ابنتي ؟

عندها و كمن استفاق لتوه قالت بصوت متثاقل :

ـ الوقت مبكر يا أبي، أريد أن أطيل الخطبة قليلا حتى أتعرف عليه أكثر.

ـ يا ابنتي الرجل مستعجل، إنه يريد أن يستقر مع زوجته في بيته حتى ينتبه لأعماله و ذلك من حقه

ـ أرجوك يا أبي أنا لست جاهزة بعد.

تدخلت والدتها في الحديث

ـ لو انتظرناك فلن تجهزي ولو بعد سنة، دعك من ترددك هذا و توكلي على الله الرجل لن ينتظرك طويلا.

حولت لبنى ناظريها إلى والدها وهي تستجديه :

ـ أرجوك بابا، أريد على الأقل خمسة أو ستة أشهر.

انفجرت والدتها من هناك :

هذا يعني السنة القادمة أتريدين التسبب لي بجلطة يا فتاة، أنت تنسين أن عمرك ثمان وعشرين سنة و السنة القادمة ستحسب عليك تسع و عشرين هل تظنين ....

قاطعها صوت زوجها :

ـ اهدئي عزيزتي النقاش لا يكون بهذه الطريقة.

حول كلامه مرة أخرى لابنته :

ـ هذا كثير يا ابنتي، الرجل مستعجل و معه حق، إطالة الخطبة مضيعة للوقت فقط.

ـ إذا كان مستعجلا فليجد امرأة أخرى.

حدجتها والدتها بنظرة حادة قالت أكثر من الكلمات

بعد مفاوضات وشد وجذب حصلت لبنى على مهلة شهرين قبل الزفاف .

عاد محمد وسلمى من السفر مباشرة إلى بيت والد محمد، أقلهما طارق الذي استقبلهما في المطار حيث تغدى الجميع هناك برفقة والدي سلمى، بعدها استأذن محمد وخرج هو وطارق بحجة المشكل الذي قطع بسببه سفره.

في السّيارة لم يستطع طارق لجم لسانه وهو يسأل :

ـ هل تحسنت أحوالك مع زوجتك ؟

أجاب محمد في ضيق

ـ لا، هي على حالها.

ـ لم يحدث شيء ؟

دحجه محمد بنظراته.

ـ طارق وعدتني أنك لن تتحدث في الموضوع مرة ثانية .

ـ أريد أن أطمئن يا رجل .

ـ الأمر لا يخصك يا طارق والنقاش فيه ممنوع.

ساد الصمت لحظات حتى قطعه طارق مغيرا الموضوع.

ـ كيف حال روما ونسائها.

ابتسم محمد وهو يجيب :

ـ يسألن عنك.

انفجر طارق ضاحكا :

ـ حقا ؟

ـ سألتني مارقريت عنك وكذلك سوزانا.

ـ هل رأتك زوجتك تتحدث إليهما ؟

ـ نعم وماذا في ذلك ؟

ـ يا صديقي النساء مصابات بداء الغيرة .

ـ ليس زوجتي.

خرجت الجملة قبل أن يستطيع محمد إدراكها حتى، لكنه أكمل متجاهلا معناها :

ـ إحداهما بائعة في محل و الأخرى تعمل في الفندق الذي نزلنا به و لا علاقة لي بهما، عليك أنت أن تحذر إذا أخذت زوجتك إلى روما .

ـ شكرا على النصيحة لكن لا أظن أن روما ستكون وجهتنا.

ـ بالمناسبة كيف حال خطيبتك ؟

بخير، لقد حددنا موعد الزفاف.

ـ مبارك يا رجل أخيرا ستقيدك امرأة، أنا أتطلع منذ سنوات لهذا اليوم.

ـ أنا رجل حر يا صديقي، لم تولد بعد المرأة التي تقيدني حتى لو كانت زوجتي .

داخل منزل محمد كانت سلمى تنتظر عودته في قلق، الغرفة التي اقتيدت إليها هي غرفة واسعة بأثاث جديد لعروسين، مرفق بها حمام، تجلس هي بحذر فوق السرير لا تجرأ حتى على الاستلقاء عليه رغم تعبها من السفر، عندما دخل محمد أخيرا ليجدها على هذه الوضعية والقلق باد على وجهها ليلقي عليها تحية باردة .

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير.

اتجه إلى الخزانة وهو ينزع عنه " قميصه " فتح الخزانة وأخرج منها بعض الملابس ثم استدار متوجها إلى الحمام، عندما سمع صوتها يناديه بنبرة خافتة :

ـ محمد.

استدار إليها مجيبا.

ـ نعم!

بدا عليها الإحراج وهي تغالب لإخراج كلماتها، مع حمرة خفيفة ارتسمت على وجنتيها وهي تقول في صعوبة واضحة :

ـ كيف سنفعل بالنسبة للمبيت ... أقصد الغرفة ... واحدة ...

كز محمد على أسنانه يضغط على كبريائه، لم يتصور في أسوأ كوابيسه أن زوجته سيكون شاغلها الشاغل كيفية الهروب من البقاء معه في مكان واحد.

رأت صمته ثم انقباض عضلات وجهه وهو يجيب :

ـ سننام الليلة هنا وغدا سأطلب منهم نقل الأثاث إلى الطابق العلوي، فيه غرفتين ملحقتين ببعضهما.

استدار وهو يضيف:

ـ سأنام على الأرض.

مرت الليلة مؤرقة على كليهما، لا هي استطاعت النوم الهانئ مع وقع أنفاسه و رائحة جسده الطاغية التي عمت الغرفة و التي امتزجت مع رائحة عطر رجولي و عطر بعد الحلاقة و لا هو استطاع إغماض عينيه و هو يحسها بهذا القرب و هواجسه تؤرقه و غضبه ينهشه .

عندما فتحت عينيها وجدت إزاره مطويا على السرير بجانب وسادته، اتصلت سلمى بصديقتها ياسمين وطلبت منها القدوم لرؤيتها بعد أن وصفت لها طريق الوصول إليها وأعطتها اسم الشارع .

تعانقت الصديقتان طويلا و كأنهما افترقتا دهرا، ثم جلستا بغرفة الصالون بينما كان نقل الأثاث للطابق العلوي قائما على قدم وساق.

ـ كيف حالك ؟

أجابت سلمى متذمرة :

ـ لست على ما يرام، لقد تورطت و لا أعرف الآن كيف أتصرف

ـ ما الذي حدث بينكما ؟

ـ لا شيء سوى أنني أخبرته أننا سنعيش كأخوين

فغرت ياسمين فمها دهشة ثم قالت :

ـ و هل قبل هو ذلك ؟

ـ نعم و وربما ذلك أسوا ما في الأمر

ردت ياسمين مستعجبة :

ـ وهل كنت تتوقعين ألا يقبل ؟

ـ ليس هذا و لكن طريقته في التعامل مع هذا الأمر تقتلني، وجهه لا يبدي أية تعابير وردة فعله هادئة إلى درجة البرود وكأن الأمر ناسبه، وافق على الأمر، قطع الرحلة و نقل الغرفة إلى غرفتين مستقلتين وهذا يحيرني لا أعرف حتى الآن دوافعه للزواج بي .

ـ هذا يعني أنكما ستنامان كل في غرفته ؟

ـ أجل.

ـ وهل يعتبر هذا زواجا ؟

ـ لم يكن كذلك منذ البداية

ـ و إلى متى سيستمر هذا الوضع ؟

ـ حتى يمكننا إعلان انفصالنا .

ـ يا الهي سلمى، هذا جنون حقيقي .

ـ أعلم ذلك، أعلم أنها كانت لحظة جنون من جانبي و قلة تقدير للأمر، لكنني لا أعلم لما تزوج هو بي، ليقبل في النهاية بشروطي دون أي احتجاج أو محاولة لتغيير الأمر.

ـ ربما كانت دوافعه سليمة ربما كان المشكل في رأسك أنت فقط .

ـ لكنه وافق على الأمر.

ـ أكنت تنتظرين أن يمارس حقوقه عليك بالقوة.

سكتت سلمى والرعشة تعتريها لمجرد تخيل ذلك.

وضعت ياسمين يدها تربت بها على كتف صديقتها وهي تقول :

ـ أصدقيني القول يا سلمى، ما هو شعورك الحقيقي نحو محمد.

ـ لا أعرف، أنا لا أكرهه و لكنني لا أحبه، أحس أنني أمام رجل غريب لا مواضيع مشتركة بيننا و لا أستطيع أن أكون على طبيعتي معه، هناك دائما ضغط و طاقة سلبية تعم المكان الذي نتواجد فيه سويا .

ـ ربما لأنك لم تتركي الأمر يتطور بالشكل الطبيعي، أنت لم ترغبي بالتعرف عليه و أغلقت الباب في وجهه من أول ليلة، كان بإمكانك مصارحته و طلب بعض الوقت للتعرف على بعضكما، لكنك قطعت المجال لأية محاولة من جانبه، ضعي نفسك مكانه و هو يتلقى كلماتك في ليلتكما الأولى، أي رجل يملك كرامة ما كانت كرامته ستسمح له بالمحاولة و لا أتوقع أن رجلا بمكانة محمد و عزة نفسه سيسعى لتغيير هذا الأمر .

ـ على كل حال أنا و هو ليس بيننا شيء ليسعى أحدنا لتغيير الأمر، هي فترة ستمر و سيذهب كل في طريقه

سكتت المرأتان تدركان صعوبة الوضع عندما قطعت سلمى الصمت بقولها :

ـ دعينا من هذا الآن، حدثيني عن أخبارك مع حليم.

استبشرت أسارير ياسمين و هي تتحدث عنه.

ـ إنه يهاتفني يوميا و قد خرجنا معا مرتين منذ سفرك، أظن أن الأمر يتطور بيننا بشكل جيد

ـ هل صرح لك بشيء ؟ هل تحدث عن الخطبة أو عن مستقبل علاقتكما ؟

ـ ليس بشكل صريح، لكن كلامه كله يرمي إلى رغبته في الارتباط بي، هو فقط يحتاج وقتا كافيا للتعرف عليّ.

ـ ألازلت مغرمة به ؟

ـ أكثر من السابق.

احتضنت سلمى كف صديقتها تضغط عليها بشدة وهي تقول :

ـ كوني حذرة يا صديقتي، في النهاية هو رجل وأنت فتاة والمجتمع يغفر للرجل ما لا يغفره للمرأة.

أجابت ياسمين في تأثر واضح :

ـ لا تقلقي عزيزتي أنا أعرف حدودي معه و هو لم يتجاوزها

ـ أتمنى أن تجدي السعادة معه، أتمنى أن يحبك بقدر كل أحلامك وأمنياتك

عندما دخلت سلمى غرفة النوم راحت تفكر في هذا الوضع الغريب الذي تعيشه، كيف سيستمر بها الحال، تعيش مع زوجها كغريبين يلتقي أحدهما الآخر صدفة، اكتشفت أن محمد من الأشخاص الذين يستيقظون باكرا جدا، هذا يعني أن فرصة ملاقاته صباحا تكاد تكون منعدمة و يعود إلى البيت متأخرا، ربما هذا سيساعدها و سيمنع عنها حرج تواجدهما معا، لكن إلى متى سيصبر هو على هذا الوضع ؟ و إلى متى ستتحمل هي هذا الضغط ؟

عند الساعة التاسعة ليلا بينما كانت مستلقية على سريرها أحست بخطواته و هو يدخل الغرفة الثانية، لحظات مرت و هي تترقب أية حركة لكن لا شيء إلا الصمت الذي يبدو أنه سيلون أيامها القادمة لا بد أنه نام .

حاول والد محمد الحديث مع ابنه ليحثه على الاهتمام بعروسه و العودة أبكر إلى البيت، لكن هذا الأخير تحجج بضغط العمل و أعلمه أن زوجته لا تنزعج من ذلك، تحدث إلى زوجة ابنه التي طمأنته أنها تتفهم الأمر و أنه لا يزعجها، إنهما متفقان و كل شيء على ما يرام .

****

دخل محمد المطعم المعتاد ليجد طارق ينتظره على طاولتهما المعتادة

ـ ما أخبارك يا رفيق.

جلس محمد مقابلا لصديقه و هو يسمع جوابه.

ـ جيدة، العمل ليس فيه أية مشاكل و أمور الزفاف تسيير على ما يرام كيف حالك أنت ؟

ـ بخير أنا حي وهذا جيد في الوقت الحالي

ـ هل تغيرت أموركما ؟

زفر محمد و هو يجيب :

ـ لا و لن تتغير .

ـ لقد مرّ وقت، ربما غيرت رأيها وربما إذا حاولت أنت شيئا ...

رد محمد مقاطعا جملته :

ـ لا أريد أن أحاول شيئا ولا أريد الحديث في هذا الموضوع.

ـ لكن هذا جنوني، إنها زوجتك.

ـ قلت لك لا أريد الحديث.

ـ يجب عليك ذلك، أنا أعرفك يا محمد، الأمر يكاد يقتلك ولكنك تكابر.

أجاب محمد في غيض واضح :

ـ أوتظن أني سأموت لأن امرأة رفضتني

ـ إنها ليست امرأة، إنها زوجتك

ـ على الورق فقط وأمام الناس.

ـ و أنت ؟

ـ أنا ماذا ؟

ـ بحق السّماء محمد إنها امرأة وأنت رجل الأمر سيان بالنسبة لك ألا تفكر بها ألا ترغب بها عندما تراها.

ـ أنا لا أراها.

ـ ماذا يعني ذلك ؟

ـ أطلق محمد نفسا عميقا و كأن الحديث يوصله إلى خيانة ما لا يريد قوله، ثم أجاب بهدوء مصطنع :

ـ لا يعني شيئا وإذا لم تتوقف عن الحديث في هذا الموضوع سأنصرف و أتركك.

وضع طارق يده على ذراع صديقه، إن رفضه الحديث في هذا الأمر يعني أنه يؤلمه أكثر مما يبدو عليه و أكثر مما يريد إظهاره، إذا كان محمد سيغضب منه فليكن، لكن

صداقتهما الطويلة توجب عليه أن يكون موجودا في هذه اللحظات المؤلمة و لا يجب أن يتراجع لأن صديقه يعاني أزمة كبرياء .

ـ اسمع يا محمد أنا أعلم أن الأمر صعب عليك، كما هو صعب على أي رجل مكانك لكن صمتك سيزيد من ألمك، أنت تعلم أني صديقك و أن حديثك معي لن ينزل مرتبتك من عيني لعلّ النقاش يصل بنا إلى حل و ...

عند ذلك وقف محمد غاضبا وهو يمسك سلسلة مفاتيحه ويهم بالانصراف

ـ حسنا إذا كنت لا تفهم ما أقول، فسأنصرف لعلك الآن ستفهم

أوقف طارق صديقه و هو يمسكه من ذراعه :

ـ حسنا لن أتحدث في الموضوع، إجلس الآن

****

عندما عاد محمد إلى البيت وجد زوجته بانتظاره بادرته بالتحية ليرد عليها متعجبا وجودها بالصالة

ـ كنت بانتظارك.

رد متعجبا.

ـ لماذا ؟

ـ كنت أريد الحديث معك عن العمل .

ـ ما به العمل ؟

ـ كنت أريد العودة للعمل مللت البقاء في البيت، لا شيء أفعله.

ردَّ عليها و هو ينصرف صعودا إلى غرفته :

ـ كما تريدين .

أحست سلمى بالضيق وبانقباضة قلبها، كيف سمحت لحياتها أن تصل بها إلى هذا الوضع ؟ هي سلمى كاميلي مدللة والديها كانت طلباتها أوامر، كان الجميع يسعى إلى نظرة رضا منها ها هي اليوم سجينة غرفة في انتظار إذن من هذا الرجل الذي يتجاهلها ببرود شديد .

****

جاء اليوم الموعود استيقظت لبنى مبكرا جدا ما إن فتحت عينيها حتى زادت دقات قلبها وهي تتذكر أن اليوم يوم عرسها، ستصبح زوجة هذا الرجل الذي يثير فيها مشاعر مختلطة ومتناقضة، يتصل بها هاتفيا ليسمعها كلاما من الغزل لم تسمعه قبلا دون أن يقول لها و لا مرة أنه يحبها، ثم يستفزها حتى يكاد يفقدها عقلها، ضحكته المجلجلة تثير الغضب بداخلها ثم تأتي كلماته لتشعرها أنها أجمل امراة على وجه الأرض، تطرح بداخلها التساؤل أتراه يراها كذلك بعين المحب أم هي مجرد كلمات

اعتاد على ترديدها ليسحرها بها، لم تكن كلماته تتركها دون تأثير هي في النهاية امرأة، و أية امرأة تلك التي لا تغريها كلمات العشق و الغزل، بل كانت كلماته تذيب فيها جدار حصارها يوما بعد يوم، و هذا ما يخيفها هي لازالت تخشاه، مازالت متخوفة من هذا الرجل الوسيم الذي تبدو خبرته بالنساء واضحة، لقد اختارها هي لتكون زوجة له، أليس هذا بكاف لمنحها الشعور بالأمان، لماذا رغم ذلك هي خائفة و مرعوبة، تحركت من سريرها متكاسلة لتبدأ يومها الطويل بالذهاب إلى صالون الحلاقة و التزيين، مع شقيقتها وبعض من قريباتها .

كان العرس جميلا داخل قاعة الحفلات الواسعة، الكل يرقص و يستمتع و هي جالسة هناك على كرسيها تغير ملابسها من حين لآخر في " تصديرة " امتزجت بين الملابس العصرية والتقليدية، بينما الكاميرا تسجل تفاصيل الحفل و المصورة الفتوغرافية تتكفل بأخذ صور متعددة للعروس في وضعيات مختلفة من أجل صنع ألبوم العرس.

عندما دخلت سلمى رفقة صديقتها ياسمين و التي ترجتها المجيء معها لأنها لا تعرف أحدا بهذا العرس، فوجئتا بأحلام تستقبلهما متفاجئة هي الأخرى لأنها لم تقم بدعوتهما و عرفتا منها أنها شقيقة العريس، تذكرت سلمى أول مرة قابلت فيها طارق، عندما أحست أنها سمعت سابقا اسم عائلته " صبراوي" الآن تربط بينه و بين " أحلام صبراوي " رفيقتها من الجامعة و عرفت أحلام أن سلمى هي زوجة "محمد مالكي " صديق شقيقها الذي طالما تمنت لو تستطيع الايقاع به، فقد كان صيدا ثمينا و فرصة من ذهب، لكن هذا الأخير لم يمنحها الفرصة يوما و لو بنظرة،

اليوم هي تمني نفسها بأسامة عابدي الذي لا تقل مكانة عائلته عن مكانة محمد و الرجل يعشقها .

جلست ياسمين و سلمى على طاولة جانبية، تنظران إلى هذه العروس الجميلة التي ستصبح زوجة طارق، بينما تستعيد سلمى في مخيلتها صورة طارق الذي تعرفت عليه بحكم ظروف عملها معه، رغم أن طارق كان يعاملها بكل احترام باعتبارها زوجة صديقه و لم يتعد يوما حدوده معها، إلا أنها تبينت داخله شخصية مشاغبة بوسامته الواضحة و عينيه المتراقص فيهما حب الحياة، لطالما قارنت بينه و بين محمد و تساءلت كيف يمكن لهاذين المتناقضين أن يكونا صديقان .

كانت ياسمين تريد المغادرة بعد أن غادر الكثيرون القاعة ولم يبق إلا أهل العروسين المقربين ولأنها سئمت البقاء، لكن سلمى أخبرتها أنها لا يمكنهما التحرك حتى يتصل بها محمد الذي كان رفقة صديقه مع بقية الرجال، عندما سمعت الزغاريد تتعالى أدارت المرأتان وجهيهما باتجاه الباب لتلمحا العريس داخلا مع والده ووالد العروس في هندامه المنمق وهو يبدو وسيما أكثر من أي مرة رأته فيها سلمى، اقتربت ياسمين من وجه صديقتها وهي تقول:

ـ يا له من رجل وسيم يبدو كنجوم السنما، هذه الفتاة محظوظة جدا.

استدارت إليها سلمى وهي تجيب :

ـ ليس بالضرورة، الوسامة للرجال يمكن أن تكون نقمة بالنسبة للزوجة، كما أن الروح هي التي تطغى في النهاية فتحبيه أو تكرهيه.

ردت ياسمين متعجبة :

ـ و هل يعقل ألا تحب امرأة رجلا كهذا ؟

نظرت سلمى إلى صديقتها مبتسمة وهي تقول :

ـ نعم، فأنا مثلا لا أحب هذا النوع من الرجال، أفضل الرجل الذي تنطق تقاسيم وجهه برجولته على تلك التي تنطق بوسامته.

أدارت سلمى وجهها للجهة الأخرى عندما سمعت صديقتها تقول :

ـ مثل هذا الرجل، لماذا لا تحبينه إذن، الرجولة تصرخ من عينيه و تقاسيم وجهه.

اصطدمت عيناها بصورة زوجها يبتسم ابتسامة عريضة قل ما رأتها على وجهه، بل ربما لم ترها قبلا، في بدلة أنيقة و شعر أسود فاحم مرتب، هي لا تنكر أن محمد رجل كامل الرجولة تعابير وجهه توحي لها بالاطمئنان، رغم النظرة الحازمة المرسومة غالبا على وجهه و شفتان كأنهما طوال الوقت غاضبتان، تكتمان ابتسامة أسيرة يطل طيفها من حين لآخر لتعلن وجودها رغم الأسر، و ذلك الأنف الشامخ الواقف هناك في اعتدال رهيب كأنه يتحدى العالم ليقول نيابة عن صاحبه أنا هنا واقف معتدل شامخ لا تهزني الجبال، لكن ظروف زواجهما منعتهما من

التعرف على بعضهما بصفة عادية، ربما لوعرفته جيدا قبل زواجهما لكانت استاطعت أن تعرف شيئا عن روحه التي يخفيها، فلا يظهر إلا جانبه الحازم المسيطر كمدير شركة، ربما كانت استلطفته فهي أصلا لا تحب الرجل الذي يتحدث كثيرا و يضحك كثيرا و يسامر كل الناس و لا يترك امراة إلا وعرفها أو غازلها، هي مذ كانت صغيرة تحلم برجل تقول نظراته أكثر من شفتيه وأفعاله أكثر من كلماته، تعود لذاكرتها تلك اللحظات الفريدة التي قضتها معه في إيطاليا، رغم غرابتها و الضغط الذي غلفها إلا أنها رأت من محمد جانبا لم تره قبلا و لا بعدا .

ربما لو عرفته بطريقة أخرى أو في عالم آخر غير عالم والده و والدها كانت السفينة ستسري بهما بشكل مختلف، تذكرت نطراته إليها عندما رآها تنزل من الدرج في فستانها الفيروزي وتسريحتها الجميلة والزينة التي تزين وجهها، تعلقت بها نظراته للحظات بدت لها دهرا، أربكتها تلك النظرات الراغبة من رجل ممنوع رغم أنه زوجها .

بينما في تلك اللحظات، كان هو يغالب شعوره بالألم و الخيبة لأن هذه المرأة لم تتزين له هكذا يوما رغم أنها زوجته، إلا أنها كانت تقصيه من حياتها كأنه ارتكب في حقها ذنبا لا يغتفر، بينما كل ما فعله هو أنه تزوج بها .

وصل طارق إلى حيث تجلس عروسه، عيناها معلقتان به و هو يتجه إليها بابتسامة عريضة لا يرى من الناس سواها، مد يده التي أمسكت يدها ثم سحبها إليه ليضع

قبلتين على خديها، أمسك وجهها بكلتا يديه واضعا قبلة متأنية على جبينها، عاد بناظريه إلى عينيها و هو يقول :

ـ هنيئا لك بي يا زوجتي.

ارتبكت نظراتها غضبا و حاولت إبعاد و جهها عن قبضة يديه (لماذا حتى في هذه اللحظة بالذات لا يختار من الكلمات إلا ما يستفزها) سمعت صوت والدها مباركا فتنصلت من يديه لتتلقى حضن والدها و تنفجر باكية كأنها تودع أيامها الهانئة، دمعت عينا والدها رغما عنه وراح يخفي وجهه و يضمها إلى صدره محاولا إسكاتها و طمأنتها، بعد قليل سحبتها والدتها من حضنه لتتلقاها في حضنها سعيدة رغم دموع ترفض تركها تسقط ومن ثم عانقتها شقيقتها مهنئة

كان طارق يتلقى التهاني من هنا وهناك و هو يراقب هذا المنظر يراها في ضعفها الذي لم يعرفه فيها قبلا، فتاة تقتلع من أرض زرعت فيها لسنوات، تبكي هذه الأرض التي شردها هو عنها، تئن سنوات عمرها السابقة لفراق أحبة لن يكونوا أبطالا رئيسيين في صنع مشاهد سنواتها القادمة، لا يعلم لما و كيف في هذه اللحظات بالذات تذكر شقيقتيه، انتقل بعينيه يبحث عنهما ليجد سلوى واقفة هناك رفقة زوجها و طفليها، لقد حضروا من كندا خصيصا لحضور حفل زفافه، بجانبها كانت تقف شقيقته الصغرى أحلام بضحكتها الشقية العابثة، عاد بناظريه إلى زوجته وفاجأه قلبه الذي كان يريد ضمها ليسألها أن تتوقف عن هذا البكاء .

عندما فتحت لبنى عينيها أدركت أنها في عالم لا يشبه عالمها المعتاد، أدرات وجهها لتصطدم نظراتها بالرجل النائم بجانبها على السرير بجسد رياضي خيالي بلون القمح الغامق، تكاد لا تصدق أن هذا الرجل حقيقي، علت وجهها حمرة قانية و تفاصيل الليلة السابقة تتسارع بمخيلتها لقد سحرها هذا الرجل في أول ليلة لهما، أذهب خوفها و منحها تذكرة إلى السماء، راقصها فيها ليلة كاملة بين النجوم مرفوعة فوق السحب، عاملها برقة لم تظنه يوما قادرا عليها و هو يتلمس خجلها و ارتباكها و عندما تناغمت حركاتها مع رقصته حلق بها عاليا حد السماء .

كانت تنظر إليه غير مصدقة هذا الشعور الذي سكنها بين ليلة و ضحاها، نحو رجل كانت بالأمس فقط تخشاه بينما تحس اليوم أنه تملكها، عندما فتح عينين متثاقلتين ليجدها تنظر إليه بتلك الطريقة، ابتسم لها ابتسامة ساحرة و هو يقول :

ـ صباح الخير

عجزت الكلمات عن الخروج مغادرة حلقها الجاف و الخروج من فمها خجلا و ارتباكا.

ـ ألا تردين تحية الصباح على زوجك.

ابتسمت تغالب خجلها و هي ترد :

ـ صباح الخير

ـ كيف حالك ؟

ـ بخير

وضع يده على وجنتها و هو يقول مبتسما :

ـ ألا تتألمين ؟

حركت رأسها نفيا.

استقام جالسا و ضمها إلى صدره مغرقا إياها في وسط موجات من الشوق تنذر بغرقها بين ذراعيه من جديد و استسلمت هي راضية مرحبة .

قضت بعدها أياما و ليالٍ تشبه الأحلام، كان طارق رجلا يتقن الغزل، يجيد الحب، و يعشق الحياة، أغرقها في سعادة خيالية و هو يلف بها أماكن لم تتصور يوما أنها موجودة، سحبها في عالمه السعيد المنتشي بفرح غير مفسر، ضحكت معه كما لم تضحك يوما، تعلمت معه رقصا لم ترقصه يوما، ركضت معه كطفلة صغيرة تسابق أحلامها، تعلمت معه كيف الحياة، كيف الأمل، كيف الشوق، و كيف العشق، في فترة قصيرة أصبحت لبنى عاشقة لطارق و أصبح طارق دنيا لبنى .

منذ عودتها إلى العمل في شركة زوجها ورغم أنها تعمل معه إلا أنها بالكاد تلتقيه مصادفة، كان الأمر غريبا لكن الاثنان اعتادا عليه، هما أمام الناس زوجان بينهما كل يعيش في عالمه بعيدا عن الآخر .

بينما كانت تجلس بمكتبها سمعت طرقا على الباب

ـ تفضل

فتح محمد الباب و أطل برأسه

ـ أيمكنني الدخول ؟

ـ طبعا

دخل وأغلق الباب وراءه تقدم إلى مكتبها قائلا دون أن يجلس :

ـ لقد اتصل بي والدك اليوم يدعونا للعشاء، قال أنه ووالدتك اشتاقا لك كثيرا.

ـ و أنا أيضا اشتقت لهما كثيرا.

ـ أخبرته ألا مانع لدي ولكنني سأخبرك و أرد عليه.

ـ إذا كان الأمر سيأخذ من وقت عملك يمكنني الذهاب وحدي.

لم يستطع محمد منع كلمة تذمر من الخروج من فمه ثم كز على أسنانه في محاولة لكضم غيضه نظر إلى سلمى نظرة غاضبة و قاسية و هو يقول :

ـ بربك هل أنا سيء لهذه الدرجة

تفاجأت سلمى بهذا السؤال و ردت مرتبكة :

ـ لم أقصد ذلك

أدركت سلمى المعنى الذي وصل إلى محمد رغم أنها كانت صادقة في عدم قصد ما فهمه

ـ ماذا قصدت إذن، أيصعب عليك تحملي سويعات قليلة، على الأقل تظاهري بذلك

ـ ليس الأمر كما فهمت أؤكد لك أن ....

قاطعها و هو لم يعد قادرا على الصبر عليها أكثر :

ـ يكفي الآن، لا تحاولي زيادة الوضع سوءا، نحن مدعوون إلى العشاء عند والديك الليلة أنا وأنت ووالدي، عليك مغادرة العمل باكرا لتحضير نفسك و ليس لديك خيار آخر وستتظاهرين أمامهم بأنك زوجة محبة سعيدة، هذه شروط لعبتك لذا عليك تحملي شئت أم أبيت.

استدار مغادرا دون أن يدع لها المجال لقول كلمة أخرى، غطت وجهها بكفيها تلعن نقص عقلها الذي ورطها في هذه الزيجة الغريبة، بينما قضى هو بقية يومه في مزاج سيء وهو يحاول إبعاد صورة وجهها عن فكره.

دخلت سلمى يتبعها صالح ثم محمد، ما إن خطت سلمى خطوة واحدة حتى رأت كلبتها تسرع إليها في نباح متواصل وارتمت بين يديها.

ـ راشتا حبيبتي كم اشتقت إليك.

راحت الكلبة في نباح يشبه الأنين وهي ترفع رأسها لصاحبتها، كأنها تعاتبها عن فترة فراقها

ـ أعلم حبيبتي، معك حق لكن ذلك كان رغما عني

أطلقت راشتا نباحا متقطعا.

ـ أنا أيضا اشتقت إليك راشتا

كانت سلمى تضم " راشتا " إلى حضنها عندما تذكرت فجأة أن زوجها و والده يقفان بجانبها استدارت لتجد تقطيبة غريبة بين حاجبي محمد، لا بد أنه يحسبها مجنونة، جاءها صوت والديها من هناك و هما يسرعان الخطى رغم كبر سنهما لملاقاة ضيوفهما و الترحيب بهم، ثم عانقت الحاجة زكية ابنتها غير قادرة على كتم شوقها و هي تضع قبلات متفرقة على وجهها

ـ حبيبتي كم اشتقت إليك

ـ أنا أكثر ماما

ضحكت سلمى ودموع تترقرق في عينيها محاولة منعها من النزول ثم تقدمت من والدها وأخفت رأسها في حضنه تستنشق رائحته الرجولية التي افتقدتها و التي تشعرها بالأمان.

بعد العشاء انسحبت الحاجة زكية وابنتها تاركتان الرّجال لوحدهم يتناقشون في أمور العمل والسياسة.

ـ أخبريني حبيبتي بأحوالك هل أنت سعيدة؟

ـ نعم ماما.

ـ لماذا تبدين و كأن شيئا يؤرقك أرى في عينيك شيئا لم أعهده فيهما.

ربما أنا متعبة فقط من العمل

ـ هل يعاملك محمد جيدا ؟

وضعت سلمى رأسها على صدر والدتها فلطالما كانت حالها هكذا معها لا تستطيع إخفاء شيء عنها، لكنها اليوم لا تستطيع مصارحتها بالحقيقة التي تعيشها وبما يختلج في صدرها، لا تستطيع أن ترمي بحملها على كاهل والدتها.

ـ نعم ماما اطمئني.

ضمت الحاجة زكية ابنتها تبثها شوقها إليها، بينما كانت راشتا مستلقية على ركبتي سلمى ترفض التحرك من مكانها .

عندما حان وقت الرحيل ودع الجميع بعضهم البعض، على وعد بزيارة قريبة لبيت صالح هذه المرة، كانت راشتا بين يدي صاحبتها لا تريد النزول و لا مفارقتها، تتشبث بصاحبتها و تشبك مخالبها بقماش ملابسها رافضة النزول.

ـ راشتا حبيبتي عليك النزول الآن.

نبحت الكلبة و تشبثت أكثر بصاحبتها التي كانت تحاول إخفاء مشاعرها فهي ذاتها لا ترغب بمفارقتها، تنهدت سلمى في ضيق و ألم ثم قالت مخاطبة كلبتها :

ـ راشتا حبيبتي سآتي لزيارتك كل ما استطعت، اعذريني حبيبتي لكنني مضطرة لتركك هنا

صدر صوت من راشتا يشبه الأنين كاد يمزق نياط قلبها عندما سمعت صوت محمد يقول :

ـ لماذا لا تحضرينها معك إلى البيت؟

استدارت تنظر إليه غير مصدقة ما تسمعه.

ـ هل أنت جاد ؟

ـ طبعا إنه الآن بيتك فتصرفي على هذا الأساس .

لم تستطع من ملامحه ولا من نبرة صوته استبيان مغزى كلماته، أكانت جادة أم مستهزئة لكنها لن تفوت هذه الفرصة، استدارت ناحية راشتا مبتسمة و هي تخاطبها :

ـ راشتا ستأتين معي.

وضعت سلمى أرنبة أنفها على أنف راشتا وهي تضيف :

ـ هل أنت سعيدة حبيبتي ؟

أصدرت الكلبة نباحا قويا وهي ترفع رأسها للسماء كأنها تحتفل بنصرها، بينما سلمى تضحك ملئ شدقيها.

كان محمد ينظر إلى الكلبة تارة و إلى سلمى تارة أخرى و يبدو له الأمر غريبا و كأن سلمى وكلبتهما يفهمان بعضهما حقا رغم اختلاف اللغة، و لكن ماذا في هذه المرأة شيء طبيعي ؟

عانقت سلمى والديها طويلا ثم انصرفت مع زوجها و والده عائدة لحياتها الغريبة .

****

تكررت زيارات أسامة و أحلام إلى نفس الفندق، في كل مرة يذيقها طبقا جديدا، المكان لم يكن يدخله إلا علية القوم، كان ذلك يبدو واضحا من هندامهم، تصرفاتهم، الخدمة و الأطباق المقدمة لهم و البذخ في طلباتهم، كان الزبون هنا فعلا ملكا، كما أن الفندق كان يقدم أنواعا مختلفة و فاخرة من الخمر، في كل مرة كان النادل يعرض على أسامة نوعا معينا، لكن هذا الأخير يرفض الشرب، كان يخبر النادل و هو ينظر في عينيها أنه لا يحتاج لما يسكره و هو معها، تكفيه نظرة عينيها لينتشي مخمورا بجمالها، كانت أحلام تحس أن العالم أصبح ملكا لها، أسامة يجعلها فعلا أميرة و هي معه، عندما انتهيا من الطعام أسقط أسامة كأس العصير على

سرواله غير متعمد، في حركة لا إرادية اصطدمت يده بالكوب وانتفضت أحلام واقفة بينما أسرع النادل يحاول تنظيف المكان .

ـ أريد أن أنظف ملابسي بعض الشيء، هلا جئت معي ؟

ـ إلى أين ؟

ـ سأصعد إلى غرفة هنا، لحظات فقط.

ترددت أحلام قليلا عندما سمعته يضيف :

ـ تعرفين أني لا أفقه شيئا في هذه الأمور، ربما أحتاج استشارتك .

سكتت و هي لا تدري بما تجيب، بينما اتسعت عيناه وهو يضيف :

ـ لا تقولي أنك لا تثقين بي، لا تخبريني أن كل هذا الوقت الذي أمضيناه معا كنت أضيع وقتي في التعلق بك، بينما أنت لم تتوصلي حتى إلى الثقة بي.

أجابته مسرعة مفندة ما قاله قبل أن يستقر في عقله ويصدقه :

ـ ما هذا الذي تقوله يا أسامة، أكيد أنني أثق بك كل ما في الأمر أنني كنت أتساءل فقط هل سيسمحون لك بالذهاب إلى الغرفة.

رد مبتسما :

ـ لا تقلقي حبيبتي لدي غرفة دائمة هنا، عندما أريد أن أكون وحيدا آتي إليها لأستريح وأفكر على انفراد .

لعبت كلمة " حبيبتي " بعقلها وهي تسمعها منه لأول مرة.

ـ هل قلت لتوك " حبيبتي "

تراقصت ابتسامته و هو يجيب :

ـ نعم و ماذا في ذلك ؟

ـ هل تعنيها حقا ؟

اتسعت ابتسامته .

ـ و هل لديك شك في ذلك، لماذا أخرج معك دون جميع البنات منذ شهرين و أدللك كأميرة ؟ لماذا أفضل صحبتك على صحبة كل رفقائنا و أستغل أية فرصة لأكون معك ؟

ارتسمت ابتسامة حالمة على وجه أحلام و هي تدرك أنها أصبحت قريبة جدا من هدفها، لقد وقع في حبها، قريبا ستفاتحه في أمر خطبتها، قريبا ستصبح زوجة أسامة وكنة عائلة عابدي الغنية .

شرع لها باب الغرفة متنحيا جانبا تفضلي أميرتي أنت أول شخص يدخل عالمي السري، تقدمت بخيلاء منتشية تنظر إلى فخامة الغرفة، دلف هو وأغلق الباب، إتجه إلى الخزانة ليسحب منها سروالا و قميصا متجها بعدها إلى الحمام .

ـ سأغير ملابسي ثم ننصرف لن أطيل عليك.

خرج بعدها بلحظات بينما وقفت هي مستعدة للمغادرة، تقدم نحوها ممسكا كفها ساحبا إياها ليجلسا على الأريكة.

ـ أريد أن أبقى معك بعض الوقت، سأشتاقك ككل مرة أتركك فيها.

وضع يده على كتفها مقتربا منها، توجست هي و أحس هو بارتجافتها.

ـ لا تقلقي حبيبتي لن أؤذيك، أنا أحبك و لن أفعل أي شيء يمكن أن يسيء إليك.

بقيا لحظات ينظر كل منهما للآخر ثم قطع هو هذا الصمت :

ـ أحس بالراحة و أنا معك بعيدا عن أعين الناس و نظراتهم

رفع كفه يمررها على وجنتها ثم اقترب واضعا قبلة صغيرة على خدها، عندما أحس برجفتها مرة أخرى ابتعد و قام واقفا وهو يبتسم.

ـ أتريدين إلقاء نظرة على المنظر من هنا إنه سر اختياري لهذه الغرفة.

وقفت مستجمعة شتات أفكارها، فمد يده لها لتعانق كفها متجها بها إلى الشرفة، وقف بجانبها تنظر هي إلى منظر البحر الذي يعانق السّماء، بينما ينظر هو إلى وجهها مبتسما.

ـ أنت تتعرفين على أسراري واحدا تلو الآخر، يبدو أن وجودي معك في مكان وحدنا خطر علي، يجعلني أبوح لك بأسراري التي أخفيتها عن العالم لسنوات.

نقلت نظراتها إليه و هي تشعر لأول مرة في حياتها بأنها تكاد تسمع نبضات قلبها

ابتسم لها وهو يقول :

ـ حان وقت الرحيل لا أريد أن يقلق أهلك على تأخرك..

خرجا من الغرفة متاشبكي الأيدي متعانقي الأنامل و الدنيا لا تسع فرحتها، لقد فازت بحب أسامة عابدي .

ما إن دخلت سلمى من باب الشركة حتى وجدت جمعا غفيرا و ضجة كبيرة

ـ ماذا هناك ؟

ـ إنه العم طاهر لقد انقلبت آلة كبيرة على قدمه و سقط مغمى عليه و تم نقله للمستشفى.

ـ هل ذهب معه أحد؟

ـ نعم سيدتي زوجك السيد مالكي ذهب معه .

ـ حسنا إذن فليعد كلٌ إلى عمله

افترق العمال كلٌ إلى منصب عمله و صعدت سلمى إلى مكتبها، عندما دخلت عليها السكرتيرة

ـ صباح الخير سيدتي.

ـ صباح الخير.

ـ لقد ترك السيد مالكي هذا الملف لك، كان سيتكفل به هو لكن حادثة العم طاهر منعته

ـ ألم يكن هناك شخص آخر يمكن أن يرافق العم طاهر

هذه عادة السيد مالكي عندما يتعرض أحد موظفيه لمشكل يجب أن يتولى الأمر بنفسه، منذ عدة أشهر تعرضت السيدة مزراوي لإجهاض داخل الشركة تولى أمر نقلها للمستشفى و مصاريف علاجها، عندما أنجبت بعدها أسمت مولودها محمد تيمنا بزوجك

كانت السيدة " برواق " سكرتيرة منذ أكثر من ثلاثين سنة تعرف كل شخص في الشركة وتتذكر حتى بدايات محمد في العمل مع والده، كانت امرأة طيبة وسكرتيرة

متمكنة، لكن العيب الوحيد الذي يأخذه عليها محمد أنها ثرثارة أكثر من اللزوم و لا تتوقف عن الكلام .

بعد عدة ساعات طرق محمد باب مكتب سلمى و دخل و هو يبدو عليه الاستعجال

ـ سأغيب أغلب اليوم، كنت أريدك أن تتصلي بطارق تعذر علي الاتصال به رغم تكرار المحاولة أخبريه أن يترك شخصا مكانه و يتجه إلى ورشة " المرادية " يبدو أن هناك مشكلا مع العمال، و ليحاول حله، لدي اجتماع مهم جدا و لن أكون قادرا حتى الرد على الهاتف

بعد انصرافه حاولت سلمى الاتصال بطارق مرارا و تكرارا دون جدوى، هاتفه كان مغلقا أو كان في مكان لا توجد به تغطية، مع مرور الوقت قررت سلمى التصرف، طلبت من السيدة برواق أن ترشح لها شخصا من الشركة يعرفه العمال يمكن أن يرافقها إلى ورشة " المرادية " و تنقلت بنفسها إلى هناك رفقة المهندس الذي رشحته السيدة برواق .

بمجرد وصولها الى الورشة وجدت العمال في إضراب والعمل متوقف، اتجهت برفقة المهندس إلى هناك بينما بادر هو بإلقاء التحية على العمال وتعريفهم بسلمى زوجة السيد مالكي وشريكته.

انتفض العمال محتجين بجمل اختلطت مع بعضها، عندما استجمعت سلمى قوتها وقالت بصوت جاهدت ليكون ثابتا و مرتفعا :

ـ هل يمكن أن يتحدث واحد منكم يمثلكم، بهذه الطريقة لن نفهم بعضنا .

حينها سكت الجميع عدا شخص واحد نطق قائلا :

ـ أنا ممثل العمال.

ـ هل يمكن أن تشرح لي المشكل؟

ـ أعتذر سيدتي لكننا نطالب بحضور السيد مالكي شخصيا، إن عدم حضوره و إرسال زوجته فيه إهانة لنا و كأننا لا نستحق تنازله وحضوره إلينا.

تقدمت سلمى أكثر لتواجه العمال و هي تمرر نظراتها بينهم، تنظر في عيني كل من التقت عيناه بعينيها و كأنها ترسل رسالة لهم جميعا، كان داخلها مضطربا، خائفة من إفساد الأمر وهي لم تستشر محمد حتى، لكنها الآن هنا و قد فات الوقت على التراجع و يجب عليها التصرف.

ـ هل يمكن أن أعرف اسمك ؟

ـ دحماني

ـ اسمعني سيد دحماني واسمعوني جميعكم، السيد مالكي لديه اجتماع هام وطارئ يتعلق بمصير الشركة واستوجب الأمر حضوره الشخصي، أنا هنا ليس بصفتي

زوجته و إنما بصفتي شريكة في الشركة، أظن أن أغلبكم يعمل هنا منذ سنوات وأظن أنكم تعرفون جيدا السيد مالكي وسياسته، أنتم كلكم معنيين بمصير الشركة و ليس السيد مالكي وحده، إفلاس الشركة يعني فقدان كل واحد منكم لمنصب عمله و مصدر رزقه، و لا أظن أن هذا ما تسعون إليه.

هز الرجال رؤوسهم علامة نفي و تفهم ثم تكلم السّيد دحماني موضحا :

ـ نحن نعرف أن السيد مالكي لم يقصر يوما مع واحد منا، هو رب عمل ملتزم و مراعٍ و لكننا لم نحصل على راتبنا الشهر الفائت و مسؤول الورشة كل يوم يأتينا باعذار جديدة، نحن لم نقصر في آداء عملنا لدينا عائلات و أطفال لا يعيشون إلا من هذا الراتب.

ـ أنا أعدكم أنكم ستستلمون رواتبكم غدا أو بعد غد على أبعد تقدير، المتسبب في هذا المشكل هو مسؤول المشروع و ليس السيد مالكي و استمرار إيقاف العمل سيلحق ضررا بالشركة التي هي مصدر رزقكم، سيتكفل السيد مالكي بمحاسبته على ذلك، لذا أطلب منكم العودة إلى عملكم و غدا سيأتي السيد مالكي بنفسه لتأكيد الإلتزام الذي أعطيته لكم.

نظر العمال إلى بعضهم و سرت بينهم وشوشات، ثم قال السيد دحماني باسم كل العمال

ـ حسنا سيدتي سنعود إلى عملنا وسننتظر غدا السيد مالكي.

انسحبت سلمى غير مصدقة أنها نجحت في حل المشكل وحدها دون تدخل أحد، رن هاتفها لتقرأ عليه اسم محمد، ردت مبتسمة فخورة بنفسها و هي تشرح المشكل لمحمد و تخبره أنها اضطرت للمجيء وحدها عندما لم تتمكن من الاتصال بطارق وسردت عليه كيف حلت المشكل و ما التزمت به أمام العمال باسمه ونيابة عنه.

عند السابعة مساء دخل محمد إلى البيت، وجد سلمى في انتظاره بالصالون تستلقي راشتا على ركبتيها و هي تداعبها بينما يجلس والده من الجهة الأخرى..

- مساء الخير

رد الاثنان التحية بينما بادره والده بالسؤال :

- لقد عدت اليوم باكرا .

- نعم أنا بغاية الإرهاق و أريد أن أرتاح قليلا غدا لدي يوم طويل.

- لقد حلت سلمى مشكل المرادية لكن العمال بانتظار رواتبهم.

- أعلم ذلك أبي سأتكفل غدا بكل شيء و بذلك الوغد أيضا .

سكت قليلا ثم نظر إلى والده مضيفا :

- هل تحتاج شيئا قبل أن أصعد للنوم؟

- لا يا بني، اذهب أنت لترتاح و غدا لنا حديث آخر

ـ حسنا، تصبح على خير .

ـ تصبح على خير يا ولدي .

عندما صعد محمد نظر صالح إلى سلمى وهو يقول :

ـ اذهبي وراء زوجك يا ابنتي، لست مضطرة لمصاحبتي أنا أيضا سأذهب للنوم بعد قليل

ـ حسنا، تصبح على خير.

دخلت سلمى غرفة محمد بعد أن طرقت الباب، كان محمد عاري الصدر يتجول في الغرفة بحثا عن شيء ما، ما إن رأته حتى أحنت رأسها خجلا تتجنب النظر إليه و قد احمرت وجنتاها لرؤيته هكذا مرتاحا بشكل رهيب بعيدا عن هندامه الملتزم المعتاد بطقمه الكامل و شعره الذي فقد ترتيبه و نزلت منه شعيرات على جبهته، رأى هو حرجها فابتسم داخله منتشيا لأنه يراها في هذا الموقف، هي دائما منذ زواجهما مسيطرة على نفسها تتجنبه و ها هي تصطدم برجولته رغما عنها، كان يمكنه أن يرتدي قميصه لكنه لم يكن مستعدا لإزالة الحرج عنها بل هو مستمتع به.

ـ ماذا هناك ؟

ردت و هي تتجنب النظر إليه :

ـ لقد وعدت العمال أنهم سيحصلون على رواتبهم غد أو بعد غد.

فلتت منه ابتسامة خفيفة و هو يتذكر وصف المهندس الذي رافقها لما حدث في الورشة و كيف سيطرت زوجته على الوضع و حلت المشكل.

ـ لا تقلقي سيحصلون على رواتبهم غدا، هل هذا كاف ليعرفوا مدى التزامي بوعد شريكتي

ـ أظن ذلك .. تصبح على خير .

انسحبت من غرفته لتأخذ نفسا عميقا بمجرد خروجها كأنها كانت تكتم أنفاسها في حضرته، رغم ألا شيء يحدث بينهما، لكنها تعرف يوما بعد يوم و تتأكد أن زوجها رجل طاغي الرجولة حضوره لا يمكن إنكاره بأي شكل من الأشكال .

****

كانت لبنى غير مصدقة لهذا الذي يحدث معها كان طارق في غاية الرقة في سفرهما، أخذها إلى أماكن عديدة اكتشفتها معه لأول مرة، و لكنه أخذها أيضا إلى عوالم جديدة بعيدة عن أرض الواقع كلما أخذها بين يديه، لتستفيق في كل مرة على إحساس بالوحشة و الشوق لهذا الرجل حتى و هو أمامها .

عندما عادا من السفر بدأت تحس بطارق يبتعد عنها رويدا رويدا، حاولت أن تقنع نفسها أنه العمل، لكن الشك بدأ يدخل قلبها و هي لا تستطيع فعل شيء، ماذا تقول له و هي تراه يعود متأخرا في كل ليلة، يشتكي التعب من العمل، يندس في

فراشهما يهجرها ليالٍ ثم يعود إليها بشوق يفاجئها و يكاد يوقف نبضات قلبها، فتضيع من جديد في عالمه و تعود لتحترق من جديد بعيدة عنه .

أخذت قميصه الملقى على السرير لتعلقه و لكن الرائحة التي عليه فاجأتها، قربته من أنفها لتتأكد أنها فعلا رائحة عطر أنثوي، استدارت و الغضب يملأها :

ـ أين كنت اليوم.

ـ في العمل كالعادة .

حدجته بنظرة غاضبة وهي ترد:

ـ هل كل من يعود من العمل يحمل عطر امرأة على ملابسه؟

نظر إليها نظرة غير مبالية و هو يجيب :

أنت تعلمين أنني أعمل مع الرجال و النساء و يمكن أن يعلق عطر امرأة على ملابسي.

ـ هل تظن أنني غبية لأصدق ذلك، هل يلتصق عطري بكل رجل أتحدث إليه ؟

فوجئت بطارق الذي دنا منها ينظر إليها في تحدٍ و هو يقول :

ـ أنا رجل حر أفعل بأيامي ما أريد ما دمت لا أقصر اتجاهك

ـ و هل تظن أن وجود عطر امرأة أخرى على قميصك لا يعد تقصيرا، ماذا كنت تفعل معها ؟ كيف وصل عطرها إلى هنا ؟

رد هو ببرود قاتل :

ـ لا علاقة لك بذلك.

ارتفعت نبرة صوتها الغاضب المذهول :

ـ أنا زوجتك، لدي كل العلاقة .

ـ كونك زوجتي لا يعني أن تخنقيني بغيرتك وأسئلتك الحمقاء

ـ أسئلة حمقاء !

وضع طارق سبابته على فمها يسكتها وهو يقول :

ـ اششششت، أنا متعب و أريد النوم .

تركها واقفة هناك مذهولة و اندس في فراشه و كأن الأمر لا يعنيه و لا يخصه مطلقا، بينما تحرقها نار الغيرة و الخذلان من هذا الرجل المتناقض الذي يحرقها تارة بنار الشوق و يطفئها تارة أخرى بماء الثلج .

****

في المرات التي تلت، لم تتردد أحلام في الصعود مع أسامة إلى الغرفة، سكنتها الثقة به من تصرفاته معها و خوفه عليها، كان يأخذ منها قبلات مسروقة مرات و حضنا مرات أخرى، تعلم هي أن ما يفعلانه غير مستساغ، لكنها تعلم أنها لا تعطيه إلا شيئا قليلا يطفئ ظمأه إليها لم يتجاوز يوما حدود ما ترغب إعطاءه إياه، و كانت تحس بخوفه عليها، ذلك ما كان يعطيها الثقة للبقاء معه وحدهما في غرفة مغلق عليهما بابها، بدأت تستشعر نمو إحساس جديد بداخلها لم تعرفه من قبل و تسأل نفسها أهو الحب ؟ أبدأت فعلا في الوقوع في حبه ؟ لم تحاول مقاومة هذا الشعور ؟ و لما تقاومه و هي تتأكد يوما بعد يوم من حب أسامة لها و تعلقه بها ؟ إنها قريبة جدا من هدفها في الارتباط به و لا ضير في أن تحب المرأة زوجها، أو على حساب ما سيكون مستقبلا .

كانت تجلس في حضنه على ذات الأريكة، في نفس الغرفة بنفس الفندق، بدأ منذ وقت قصير في أخذ كأس صغيرة من النبيذ قبل الصّعود إلى الغرفة، عرفت منه أن هذه ليست أول مرة لكنه أفهمها أنه لا يشرب دائما و لا يحتسي إلا كأسا واحدة من باب المزاج فقط، قبلها على شفتيها فأحست برائحة النبيذ في أنفاسه.

ـ لقد شربت اليوم أكثر من كأس أليس كذلك ؟

ـ لا تشغلي نفسك بذلك قلت لك أنني لا أشرب إلا مزاجا.

ـ متى فعلتها عندما ذهبت لغسل يدي ؟

قبلها مرة أخرى، قبلة طويلة هذه المرة محاولا إسكاتها.

حاولت فك ذراعيه اللتان تحيطانها لكنها اصطدمت بمقاومته

ـ أتركني أسامة، أريد الذهاب الآن.

شدد قبضته عليها و هو يواصل تقبيلها في كل مكان من وجهها.

دفعته بكلتا يديها، رجع إلى الوراء لكنه عاد بجسده كله عليها حتى أسقطها ممددة على الأريكة يلتهم شفتيها.

ـ أتركني أسامة عد إلى عقلك ... ما الذي تفعله ؟

كانت يداه تمزقان أعلى فستانها لتكشف عن صدرها الذي ينتفض صعودا و نزولا

توسلته أن يتوقف، ألا يفعل لكنه لم يكثرت لتوسلاتها، قاومته لكن جسده الثقيل كان يجثم عليها يمنعها من الحركة ...

بعد وقت قصير كان هو جالسا في الجهة الأخرى وهي تنتحب على ذات الأريكة، لقد اغتصبها، لقد سرق شرفها وشرف عائلتها، لم يكن سكرانا، لقد شرب قليلا لكنه كان واعيا في كل حركة كان يقوم بها، لقد ادعى منذ البداية أنه متيم بها جرّها خطوة خطوة للثقة به وبحبه، للثقة بخوفه عليها، جرها لهذه الغرفة، جرها قبلة بعد حضن و ضمة بعد لمسة، أوهمها أنه لن يذهب لأبعد من هذا لكنه فعل، وصل إلى هدفه منذ البداية، لقد اغتصبها !

رفعت عينيها إليه تتأمل صمته وهدوءه وهي تحاول التماسك حتى لا تنهار :

ـ أنت تدرك ما فعلته بي لتوك ؟

نظر إليها في جرأة غير مبالٍ :

أنا لم أفعل شيئا، كل ما حدث كان بإرادتك.

صرخت غير مصدقة :

ـ لقد اغتصبتني أيها الحيوان، ما الذي كان بإرادتي ؟

ـ كل شيء، مصاحبتك لي، دخولك الفندق معي، و بقاؤك في غرفة في فندق مغلق علينا بابها، كل الموظفين هنا يشهدون على ذلك، لا شيء تم غصبا عنك أو دون إرادتك.

إتسعت عيناها غير مصدقة.

ـ هذا ما كنت تخطط له منذ البداية أليس كذلك ؟

ابتسم ساخرا :

ـ أنت صدقت أنك أميرة و صدقت أنه بإمكانك خداعي .

قام من مكانه متجها إلى الخزانة، سحب بنطالا و قميصا نسائيا رماهما في وجهها و هو يقول :

ـ غيري ملابسك لأوصلك إلى بيتك و انسي بعدها أنك عرفتني.

عانقت الملابس مصدومة تغطي بها وجهها تحاول كتم نحيبها وشهقاتها و قد خارت قواها .

****

كانت ياسمين تجلس مع سلمى في الغرفة، تتسامران بعد أن قامت هذه الأخيرة بزيارة صديقتها لأنه يوم عطلتها.

ـ أين وصلت أحوالك مع حليم ؟

سكتت ياسمين لحظات تبحث عن الإجابة ثم ردت بصوت حزين.

ـ لا أعلم، لكنني أحس أنه يتهرب مني.

أحست سلمى بانقباض قلبها، هذا ما كانت تخشاه على صديقتها

ـ ما الذي تغير ؟

ـ معاملته، يكلمني بتحفظ ولا يتحدث أبدا عن مستقبلنا معا ويتحاشى مقابلتي

ـ هل تحدثت معه في الأمر؟

ـ كلما فعلت تحجج بأن الأمور لم تتغير وبأنني قلقة بدون سبب.

سكتت ياسمين تعض على شفتها السفلى، بينما تطالع صديقتها ارتباكها وحالتها هذه وهي تقول :

ـ و كيف حال قلبك ؟

ـ بأسوأ حال.

انفجرت باكية غير قادرة على الكتمان أكثر و ارتمت في حضن صديقتها قائلة :

ـ أنا أحبه أكثر من أي وقت مضى و هو لا يبالي، أشعر أنه سيهجرني قريبا، ربما تعرف على واحدة أخرى، لن أستطيع تحمل ذلك.

ضمت سلمى صديقتها و تركتها تبكي لعلّ البكاء يخفف عنها، جاءت تشكيها حالتها فوجدت حالها هي أسوأ بكثير .

في المساء كانت عائلة مالكي جالسة على العشاء و الصمت يسود الجلسة، إلا من بعض الحديث بين الأب و ابنه عن العمل، عندما قال محمد :

ـ أنا مسافر بعد يومين إلى ألمانيا، كنت قد حدثتك عن الآلات التي أريد معاينتها هناك إذا وجدت شيئا جيدا و تم الاتفاق سأمضي العقود و أعود.

ـ كم ستبقى هناك ؟

ـ لا أعلم يا والدي، حسب ظروف الاتفاق وسهولته لكنها مجرد أيام، سأضبط أمور العمل قبل سفري كالعادة.

ـ يمكنك الآن أن تعتمد على سلمى في بعض شؤون العمل، فهي قد أثبتت فعاليتها وتقدمها

حول محمد عينيه ليلتقط نظرات زوجته الصامتة منذ بداية الجلسة، تعانقت النظرات المرتبكة هنيهة، ثم أشاحت سلمى بنظرها عنه لتسمعه يقول :

ـ أكيد سننظم الأمور قبل سفري.

خلال سفر محمد كانت سلمى منهكة في العمل لا تعود إلا آخر النهار، عندما كانت تدخل الغرفة يراودها شعور غريب، فبدل إحساسها بالرّاحة من وجودها وحدها كانت تفاجئ نفسها تبحث عن آثار محمد داخل الغرفة، تفتقد رائحته المميزة التي كان يتركها وراءه كلما دخل الغرفة أو خرج منها، رغما عنها اعتادت على وجوده بحياتها، على ترقب خطواته عندما يدخل الغرفة، على نظراته المسروقة إليها، على طريقته في إبعاد راشتا وهي تحاول الالتصاق برجليه و طريقته في تحملها رغم أنه كان من الواضح جدا أنه لا يحب الحيوانات، على صوته الهادئ عندما لا يكون غاضبا و الحقيقة أنه قلما يغضب، على احترامه الكبير لوالده و لكل من يحيط به، بل و على احترام كل من يعرفه له و لشخصه، فرغم صغر سنه إلا أنه لديه قدرة رهيبة على فرض سيطرته على كل من في الشركة، و فرض احترامه على كل من يعرفه ويتعامل معه، بل حتى أن " راشتا " وقعت في غرامه و لا تتوقف عن

التحرش به و الاحتكاك بقدميه، عند هذه الفكرة قفزت راشتا التي كانت في غرفة محمد على صاحبتها و هي تنبح، ابتسمت سلمى و هي تخاطب كلبتها.

ـ هل اشتقت إليه ؟ إنه حتى لا يحبك يا راشتا ما الذي يعجبك فيه ؟

نبحت الكلبة مرة أخرى كأنها تعترض على كلام سلمى، فضحكت هذه الأخيرة و هي تضيف :

ـ حسنا على الأقل لست وحدك يا راشتا كل من يعرفه لا يملك إلا أن يحبه

ذات مساء، فاجأت نفسها تضع بعضا من عطره على معصمها و تتنشق رائحته و هي تتخيل وجهه مغمضة عينيها، فتحتهما مذهولة و قد أدركت لتوها أن ما تفعله جنون و خطير، حاولت الهروب من إجابة السؤال الذي كان يلح عليها (ما الذي تفعلينه و ماذا يعني ذلك الذي تفعلينه ؟) في يوم آخر وجدت نفسها تفتح خزانته و ترتدي قميصا من قمصانه، ثم نزعته مفزوعة وهي تطرد السؤال ذاته من عقلها (ما الذي تفعلينه ؟) أحست أنها بدأت تفقد عقلها و لكنها كانت ترفض الخوض في هذا الذي يحدث لها، ترفض السؤال، ترفض التفكير و ترفض الوقوف على إجابة السؤال، تقنع نفسها ألا شيء يحدث معها .

عاد محمد من السفر هذا المساء لكنها لم تلتق به، بعد ساعات داخل غرفتها كانت الساعة تشير إلى التاسعة و محمد لم يعد بعد، رغما عنها كانت تحس أنها اشتاقت إليه

لا تعلم لماذا و لا كيف لكنها تعودت على وجوده الصامت في حياتها، لا تفسير لشعورها هذا و هي لا تريد له تفسيرا إلا أنها العادة .

عند العاشرة و النصف دخلت فراشها تقلبت فيه مرات و مرات حتى غلبها النوم دون أن تسمع وقع خطواته .

في الغد استيقظت و هي تحس بشيء غريب بداخلها، بضيق امرأة جرحت أنوثتها، أيعقل ألا يكون مهتما و لو قليلا، يسافر لأسبوعين و يعود و لا يكثرت حتى برؤيتها و السلام عليها، لكن هل تستطيع لومه فعلا، إنها فعلا فتاة مجنونة، قبلت الزواج به ثم رفضت أية علاقة به والآن تريده أن يهتم، و لماذا سيهتم هو ؟ فلتحمد الله أنه يتركها و شأنها و لا يطالبها بشيء ولماذا تريده هي أن يهتم ؟ راحت تطرد هذه الأفكار من عقلها و تؤكد لنفسها أن هذا ليس إلا غرور الأنثى، ذلك الذي يستيقظ بداخلها فلا أصعب على الأنثى من رجل يتجاهلها و عليها أن تتوقف عن جنونها .

في اليوم التالي عندما رأته يدخل البيت انتابها شعور غريب و عندما أحست تلك الليلة بخطواته في الغرفة المجاورة انتابها شعور عجيب بالأمان و نامت قريرة العين، متأكدة أنه هنا يحرسها و رغم غرابة ما كان يعتمل بداخلها، إلا أنها لم تجد إلا الابتسام لما يحدث معها .

****

كانت أحلام تجلس داخل بيت أسامة تنتظر نزول والدته لمقابلتها، عندما رأت امرأة تنزل السلم يبدو عليها أمارات الترف، بشعر أشقر قصير وتنورة لا تصل حتى إلى الركبتين وقميص أبيض، رأسها يرتفع في شموخ وهي تنظر إلى هذه المتطفلة التي اقتحمت منزلها دون موعد سابق، لا مبرر لها إلا أنها رفيقة ابنها أسامة و الأمر يخصه و هو عاجل و مهم.

جلست المرأة مقابلة لها تضع ساقا على الأخرى.

ـ نعم ما الأمر المهم الذي جاء بك ؟

ترددت أحلام قليلا والرهبة تتملكها من البرود المرسوم على وجه هذه المرأة.

ـ أردت أن أخبرك بأمر مهم و خطير.

ـ أنا أنتظر !

سكتت قليلا ثم استجمعت قوتها وهي تعلم ألا خيار آخر أمامها.

ـ ابنك أسامة.

ـ ما به.

ـ لقد اغتصبني.

انتفضت المرأة واقفة وعلامات الغضب على وجهها.

ـ كيف تتجرئين على الدخول إلى بيتي و اتهام ابني بهذا الاتهام الفظيع ؟

فتحت أحلام حقيبة يدها و أخرجت منها بضعة أوراق

ـ هذه نسخة عن شهادة الطبيب أنه تم اغتصابي وهذه نسخة عن الشكوى التي قدمتها أمام المحكمة، فيها اسم ابنك و اسم الفندق الذي يستأجر فيه غرفة دائمة وفيها طلب إجراء اختبار التحليل الحمضي على ابنك بصفة عاجلة للتأكد أنه الفاعل، لدي شهود أني غادرت يومها معه، الشرطة بصدد استجواب موظفي الفندق، لقد وجدوا فستاني الممزق هناك عليه دمي المهتوك وجينات ابنك ستظهر أكيد في تقرير التحليل

سكتت أحلام تأخذ نفسها وهي تنظر إلى المرأة التي كانت تستشيط غضبا في صمت مفتعل ثم أضافت :

ـ الشكوى ستؤثر على سمعة زوجك و الانتخابات على الأبواب، أعلم أن بإمكان زوجك طمس الشكوى و إخفاء آثارها، لكنني لم أعد أملك ما أخسره، سأتجه إلى القنوات الإعلامية التي تحب الرقص على الفضائح، لن أكون الخاسرة الوحيدة في هذه القضية.

ساد صمت لدقائق معدودة، حاولت أحلام فيها السيطرة على خوفها و شكها، لقد كانت تلعب بحياتها لكنها الورقة الوحيدة التي تملكها .

ـ لقد استشرت محاميا أخبرني أن القانون يسمح بإسقاط الشكوى و لا يعاقب المغتصب إذا تزوج ضحيته، على ابنك أن يصلح خطأه بالزواج مني و إلا سأمضي في الأمر إلى النهاية كما قلت لك لم يعد لدي ما أخسره، هذه بطاقة محاميتي هي تنتظر اتصالا منكم و إلا ستتابع القضية إلى النهاية .

وقفت أحلام مديرة ظهرها متقدمة نحو باب الخروج محاولة ضبط خطواتها المرتجفة، إنها تلعب بالنار لكنها لم تعد تهتم، هي في كل الأحوال خاسرة حتى لو تزوجها أسامة، ما عاد شيء في هذه الدنيا يهمها، هي الآن لا تفكر إلا في عائلتها، والدها سيموت لو وصله هذا الخبر، والدتها لن تتحمل وقع الصدمة، شقيقها سيقتلها لا محالة وأختها ستتدمر حياتها وعائلتها، لوعلم زوجها أو عائلته بهذه الفضيحة، الأمر الآن أصبح أكبر منها هي أحلام، الأمر أصبح قضية شرف، شرف عائلتها الذي أهدره أسامة وفرطت هي فيه بغبائها ولا مبالاتها، ستفعل أي شيء لتصلح ما جنته يداها حتى لو اضطرت إلى قتل أسامة و قتل نفسها، و لكن هل هذا سيمنع الفضيحة، على العكس هذا سيدمر عائلتها، لم يبق لها من حل سوى ستر الجريمة التي ارتكبتها بحق أهلها حتى لو اضطرت لدفن روحها مع هذا الأسامة، هي تعلم الآن أنه سيقاوم، لكنها تعلم أيضا أن والده لن يضحي بمستقبله السياسي و بسمعته، سيجبره على إصلاح خطئه أو ربما هذا ما كانت تتمناه وتتأمله، ستفعل أي شيء لإرغامه وها هي تنفذ خطتها، لم يبق لها سوى انتظار الإتصال الذي سيعيد شرف عائلتها الضائع.

كانت أحلام تفكر في كل هذا بروح خاوية فقدت الإحساس بمعنى الفرح أو حتى الألم، كآلة تتحرك على ما برمجت عليه دون أدنى شعور، لقد قتل روحها و ما عاد في الأمر ما يحركها سوى شرف عائلتها .

****

ما إن دخلت ياسمين من باب مكتب سلمى، حتى عرفت هذه الأخيرة على وجهها علامات الحزن و القلق.

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد تشاجرنا وهذه المرة أظن أنه لن يعود إلي.

أمسكتها سلمى من كتفيها و أجلستها على الكرسي و جلست مقابلة لها :

ـ ما الذي حدث ؟

ـ لا أعلم، إنه يتهرب مني، يختلق الأسباب ليتشاجر معي ثم يهجرني و لا يعود حتى أتصل به أنا، لكن هذه المرة أظنه لن يعود، إنه يرفض الرد على اتصالاتي، لقد كان شجارنا هذه المرة أعنف من كل مرة، هذه المرة لم أسكت و رددت على إهاناته المتكررة لي.

لم تجد سلمى ما تقوله لمواساة صديقتها، فهي تعرف مدى تعلقها بحليم رغم أنها لا تفهم كيف لامرأة أن تتخلى عن كبريائها من أجل حب رجل ليست متأكدة حتى

من أنه يبادلها نفس الحب، لما تقبل ياسمين على نفسها كل هذا التجاهل و هذه الإهانات من رجل من المفروض أنها سترتبط به لبقية أيامها، أية حياة ستكون لها مع رجل لا يجيد إلا إهانتها و التقليل من شأنها، رجل لا يقدر قيمة الحب الذي تحمله له هذه المرأة في قلبها، لا يستحق أن ترتبط به .

خمنت ياسمين ما كانت تفكر به صديقتها، فقالت مجيبة عن سؤال صديقتها الذي لم تطرحه :

ـ أنا أعلم أنك تستغربين تصرفاتي لكنني أحبه و لو تركني سأجن، سأموت، الحب يضعف صاحبه و لا يملك هذا الأخير إلا الانصياع، و أنا عاشقة لا أملك من أمري شيئا .

ـ اعذريني صديقتي، لكن ما الذي تحبينه في رجل يتحاشاك و لا يهتم بمشاعرك، أنا لم أعرف الحب قبلا، لكن ما أعرفه أن الحب اهتمام و تفهم و مراعاة، الحب احتواء وسكنى .

رفعت ياسمين عينيها تناظر صديقتها.

ـ من أخبرك بهذه الكذبة ؟ الحب يا صديقتي يأتي على غفلة، لا يسألك من تختارين و لا يأخذ رأيك أو موافقتك، إنه يكون عندما يقرر أن يكون، ألا تسمعين بالحب من أول نظرة ؟ هل يعرف من يحب من أول نظرة إن كان من يحبه يهتم به أو يراعيه

؟ ألا تسمعين بالحب من جانب واحد ؟ من أين يأتي عذاب الحب إن كنا لا نحب إلا من يهتم بنا و يراعينا ؟

تنهدت سلمى متعاطفة مع صديقتها :

ـ لكن الحب الذي لا يجد الرعاية و الاهتمام يموت، كما تموت النبتة التي لا يسقيها صاحبها، الحب الذي لا يجلب لك إلا الحزن يضطرك لقتله قبل أن يقتلك في النهاية، الحب يا صديقتي شعور نغذيه أمانا و ثقة كي يعيش أو نسقيه سما وعلقما فيموت .

ردت ياسمين و دموع تملأ عينيها :

ـ إلى أن يموت أو يقتلني، أنا أعاني عذاباته و لا أعرف ما أفعله!

لم تجد سلمى إلا أن قالت :

ـ لما لا تتحدثين معه صراحة إذن لتفهمي سبب تهربه و تصرفاته هذه ؟

ـ لا أستطيع، كلما بدأنا حديثا في هذا الموضوع انتهى بالشجار.

بعد صمت قليل أضافت ياسمين :

ـ لما لا تفعلين أنت ؟

ـ أفعل ماذا ؟

ـ تتحدثين معه، اسأليه عن سبب ما يفعله بي، اسأليه إن كان يحبني أو لا، أرجوك سلمى فأنا لم أعد أطيق حالتي هذه، أرجوك صديقتي أنا أموت هنا.

كان صوت ياسمين متحشرجا باكيا متألما، أحست سلمى بالأسى لحال صديقتها ولم تجد بدا من الموافقة و هي تحتضن صديقتها التي انفجرت باكية.

ـ حسنا سأفعل.

كانت قد مرت أكثر من نصف ساعة على جلوس سلمى مع حليم داخل الكافتريا وهي تحاول معرفة أسباب تصرفاته مع صديقتها و هو يراوغ لا يريد أن يبوح بتفاصيل علاقته بياسمين.

ـ أتفهم يا حليم أنك لا تريد أن تحدثني عن حياتك الخاصة، لكن في الوقت الحالي حياة صديقتي مرتبطة بحياتك و حالتها صعبة، إنها فقط تريد أن تفهم لما تفعل بها ما تفعله.

ساعتها أفصح حليم قائلا :

ـ لقد طلبت منها مرارا الخروج من حياتي لكنها تعود إلي في كل مرة.

أحست سلمى بالضيق يختلج بداخلها، لماذا تفعل ياسمين هذا بنفسها ؟ لماذا تهين كرامتها أمام رجل لا يريدها ؟ تذكرت كلماتها آخر مرة فواصلت حديثها ملتمسة لها العذر الوحيد الذي تعرفه

ـ لأنها تحبك!

ساد الصمت لحظات قطعته سلمى وهي تضيف :

ـ وأنت تقبل العودة في كل مرة، لماذا إذا كنت لا تحبها ؟

تنهد حليم في ضيق واضح مجيبا :

ـ أنا لم أقل أني لا أحبها.

ـ و لم تقل أنك تحبها.

سكت حليم رافضا البوح عن مشاعره عندما سمع صوت سلمى :

ـ ماذا يفترض بي أن افهم من صمتك .

ـ لا شيء!

ـ حليم لماذا لا تكون شجاعا وتخبرني إن كان هناك امرأة أخرى.

ـ ليس هناك امرأة أخرى.

ـ إذن ماذا هناك ؟

ـ لا شيء.

ـ حليم صمتك يجعلني في حيرة وياسمين في دوامة، ولا تفسير للأمر إلا أنك تتلاعب بمشاعرها.

بعد لحظات من الصّمت رد هو أخيرا:

ـ حسنا سأخبرك ما الأمر، إنها تخنقني، لا تتركني أتنفس، أنا لم أعد أعرف إن كنت أحبها أو لا، هي تتصل بي في كل وقت وتشكك بي طيلة الوقت، تغار من لا شيء، حتى إذا تخاصمنا هي دائما من تصالحني حتى إن كنت أنا المخطئ ومهما أسمعتها من كلام جارح تعود في النهاية و كأن شيئا لم يكن، لم أعد أتوق لشيء معها، لا إرضاءها و لا إسعادها لأني أعلم أنها هنا و لن تذهب إلى أي مكان مهما فعلت.

كان حليم يتكلم دون أن ينظر إلى سلمى وكأنه يستعيد شريط علاقته بها.

ـ لم أعد أعرف إن كنت أحبها أو لا، أنا كنت صادقا في البداية و صارحتها بظروفي و أنني لست مستعدا للزواج في وقت قريب وهي قبلت والآن هي تضغط علي وتحاصرني بطلب التقدم لخطبتها وفي كل مرة توصلني إلى أقصى حدودي، أنا فعلا لا أقصد الإساءة إليها لكنها لم تترك لي مجال المحاولة في هذه العلاقة.

وضعت سلمى يدها على كف حليم في محاولة لجعله ينظر إليها، لا تجد الكلمات المناسبة لتقولها فلطالما عاتبت ياسمين على طريقة تصرفاتها معه، لطالما أخبرتها أن محاولة الاحاطة به من كل جانب قد تخنقه و هذا ما وصلت إليه علاقتهما، هي مقتنعة في قرارة نفسها أن حليم لا يستحق ياسمين لأنه لم يعرف كيف يحتويها و لا

كيف يوجه حبها له و لكنها في المقابل تدرك أن ياسمين هي من وضعت حالها في هذا الموقف، كل ما كانت قادرة عليه في هذا الحوار هو التمسك بعذر صديقتها (إنها عاشقة) هل يعقل أن يوصل الحب صاحبه إلى هذا الذل و الهوان

- إنها تحبك، هذا سببها وأنت لا تريحها بالاعتراف.

في تلك الأثناء كانت سيارة سوداء تمر أمام الكافتيريا، توقفت السيارة فجأة وسائقها ينظر إلى الداخل حيث كانت زوجته مع رجل آخر ينظران إلى بعضهما في تأثر شديد، و يدها تمسك يده عندما استعاد سائق السّيارة رباطة جأشه، أكمل طريقه وداخله يستشيط غضبا مكتوما يكاد يحرق المكان ويحرقه معه .

كانت ياسمين تجلس مع صديقتها متلهفة لمعرفة ما حدث بين سلمى و حليم، فحديثهما على الهاتف لم يروي ظمأها و لم يطفئ نيرانها

- ماذا قال بالضبط ؟

- ياسمين سبق وأخبرتك على الهاتف.

- أريد التفاصيل، كيف كان يبدو هل كان يبدو صادقا و هو يخبرك أنه لا توجد امرأة اخرى في حياته؟

- هذا ما يهمك من كل الحديث، نعم لقد كان يبدو كذلك، لكنك قد تخسرينه إذا واصلت في تصرفاتك تلك معه.

ردت ياسمين في انفعال وهي لا تستوعب ردة فعل صديقتها :

ـ لكنني أحبه أيجب أن أهمله حتى يرتاح، أهذا ما يريده؟

ـ أنت تعرفين ظروفه منذ البداية ياسمين و وافقت عليها، هناك شيء اسمه الوسط، لا تخنقيه ولا تهمليه، امنحيه الاحساس بالثقة هذا سيجعلك أغلى عنده وشعوره بالحرية سيجعله مسؤولا تجاهك، ياسمين ليس هناك رجل يحب امرأة لا تقدر نفسها يجب أن تشعريه أنك غالية، دعيه يبدل مجهودا للحصول عليك ، دعيه يتعب للحصول على رضاك.

ردت ياسمين في ضيق واضح :

ـ ربما يجدر بي معاملته كما تعاملين أنت زوجك، من الواضح أن طريقتك ناجحة جدا لدرجة أنه غير مهتم بك البتة .

نظرت سلمى إلى ياسمين غير مصدقة ما قالته صديقة عمرها للتو :

ـ أنا لا أصدق ما أسمعه، هل تعيرينني يا ياسمين ؟

أدركت هذه الأخيرة فظاعة ما تلفظت به شفتاها في حق صديقتها التي تحاول فقط مساعدتها أمسكت يدها وهي تقول في رجاء و ندم :

ـ أعذريني صديقتي، أقسم لم أقصد ذلك، أنا متوثرة لدرجة أني لم أعد أعي ما أقوله، إنه يفقدني صوابي، أرجوك سامحيني.

ردت سلمى بنبرة عتاب :

ـ على كل أنت تعلمين أن الأمور مختلفة مع زوجي، فنحن لا يجمعنا سوى منظرنا أمام العائلة والناس.

ـ و أنا أعلم الناس بذلك، أرجوك اعذريني أنا حمقاء و بدأت أفقد عقلي.

سكتت سلمى على مضض، غير قادرة على تجاوز ما قالته صديقتها.

أمسكت ياسمين بكلتا يدي صديقتها تتوسلها.

ـ سامحيني أرجوك اطلبي ما شئت، لكن لا تبقي غاضبة هكذا أرجوك سلمى، أنت تعلمين أنني لا أعني ما قلته.

التفتت سلمى تطالع وجه صديقتها ورأت نظرة الأسف بادية عليها، رسمت ابتسامة رقيقة على وجهها تخفي بها تأثرها الذي مازال لم يغادرها وهي تقول :

ـ حسنا أنا أسامحك.

سكتت المرأتان زمنا و كأنه لم يعد بينهما كلاما يقال إلى أن قطعته ياسمين :

ـ ألا زلت غاضبة مني ؟

ـ لا.

ـ إذن!

ـ إذن ماذا ؟

ـ أريد نصيحتك.

تنهدت سلمى في أسى وهي تجيب :

ـ أنت تعلمين أنني آخر من يمكنه نصيحتك في مثل هذه الأمور، خبرتي في الحب منعدمة وكما قلت حالتي أسوا من حالتك.

ـ كل منا حالتها أسوا من الأخرى.

التقت نظرات الصديقتين وانفجرتا بالضحك، ذلك الضحك المجنون الذي يخفي وراءه بكاءً لا يريد صاحبه أن يسرحه فيفضح ألمه، فشر البلية ما يضحك كما يقول المثل.

بعد أن هدأت موجة الضحك المجنونة تلك سألت ياسمين صديقتها :

ـ ألازالت حالتكما كما هي ؟

ـ أجل.

ـ هل سيستمر الحال هكذا ؟ ألم تتغير مشاعرك ناحيته ؟

سكتت سلمى و هي لا تعرف إجابة صادقة لهذا السؤال

بادرتها ياسمين بالقول :

ـ هل تغيرت ؟

ردت في تشتت و ضياع :

ـ لا أعلم!

ـ لما لا تحاولين إصلاح الأمر بينكما، في النهاية هو زوجك و هناك الكثير من الأزواج الذين ارتبطوا بدون حب و جاء الحب بعد الزواج، لكنهم فتحوا الباب و حاولوا.

ـ و ماذا أفعل، لقد فات الأوان، أنا أقفلته منذ البداية و لا فكرة لدي عن كيفية فتحه الآن

بادرتها ياسمين بالسؤال بعد أن أحست بتبدل نبرة صديقتها في الحديث عن زواجها:

ـ و هل ترغبين في فتحه ؟

اغرورقت عينا سلمى بالدموع و تهدج صوتها وهي تجيب :

ـ هل تذكرين كل أحاديثنا عن الوقوع في الحب وعن فارس الأحلام الذي سأعرفه من نظرة، عن الزواج بعد الوقوع في الحب، الواقع مختلف تماما عن كل هذه الأحلام، الزواج شيء آخر لذا أسمى الله ما بين الرجل وزوجته (مودة و رحمة) لا أعرف من زرع بداخلنا تلك الأفكار الغريبة أنه لا يمكن أن تتعرفي على فارسك و

أنت مخطوبة له، أو لا يمكن أن تحبيه و أنت زوجته، لا أعرف كيف صدقنا أن الزواج الناجح لا يمكن أن يكون إلا بعد حب غير شرعي، اليوم لدي اعتقاد راسخ أن المرأة يمكن أن تحب زوجها إذا أرادت و إذا أراد هو، إذا فتح كل منهما الباب لهذا الحب وأحاطاه بالاهتمام فسينمو ويكبر بينهما، ترعاه المودة والرحمة وتباركه السماء .

ابتسمت ياسمين تخفي حزنها وهي تسأل صديقتها :

ـ منذ متى أصبحت حكيمة ؟

ردت هي بألم مكتوم :

ـ منذ التقيت فارس أحلامي و أدركت أنني أضعته بغبائي .

****

توالت الأيام على لبنى مريرة و تكرر الصدام بينها و بين زوجها، هي الآن تعرف بخياناته والأدهى أنه هو يعرف أنها تعرف، أصبح اللعب على المكشوف، لا يحاول حتى اخفاءه وهي لم تكن بالمرأة التي تسكت كأنها قابلة وراضية.

دخل طارق البيت باكرا على غير عادته ليغير ثيابه و يخرج من جديد، عندما حملت قميصه تستنشق رائحته ليضربها عطر أنثوي جديد، استدارت موجهة كلامها إليه في غضب هادر :

ـ مع من كنت ؟

ـ ألن ننتهي من هذا الحوار، في ماذا يهمك أين كنت أو مع من؟

كان صوت لبنى يرتفع دون وعي منها :

ـ أخبرني أين كنت ؟

ـ قلت لك مرارا و تكرارا لا يحق لك توجيه هذا السؤال لي، أنا حر.

ـ لكنني زوجتك.

ـ و إن يكن هذا لا يعطيك الحق في تتبع خطواتي و خنقي بأسئلتك.

ـ خنقك، ألا ترى أنني أنا من يختنق في هذه العلاقة!

ـ لماذا ؟ أنت تعيشين أكرم عيشة و أنا أوفر لك كل شيء، ما الذي ينقصك ؟

أرادت لبنى أن تصرخ (أنت، ينقصني زوجي، أنت من ينقصني، غيابك الدائم يقتلني، رائحة امرأة أخرى تحملها على ثيابك تذبحني، تجاهلك لي و لامبالاتك تتسبب في خنقي واستسلامي لك كلما عدت يجعلني أكرهك وأكره نفسي معك) لكنها بدل ذلك قالت :

ـ رائحة نسائك على ثيابك تشعرني بالتقزز منك، إذا كنت مللت هذه العلاقة يمكننا فسخها وليذهب كل في طريقه

استدار مبتسما بعد أن تبدلت تعابير وجهه و هو يقول
ـ و هل تقدرين على ذلك ؟
احتقن وجهها غضبا و هي ترى غروره المرتسم على وجهه و لامبالاته بمشاعرها :
ـ نعم أقدر، لا تظنن أنك ملكتني.
اقترب منها، وضع يده على قلبها فتراجعت هي إلى الوراء وهي تسمعه يضيف
ـ لقد ملكتُ هذا و لن تقدري على العيش بدونه.
أحست بدموعها تخونها تقف على حافة رموشها، لا يوقفها إلا كبرياؤها و هي تغالب للسيطرة على صوتها :
ـ إن كنت ملكت هذا فأنت لم تملك كبريائي و صدقني عندما ينتفض كبريائي لن تكون هناك قوة على الأرض قادرة على ردعه
اقترب منها و أخذها بين ذراعيه في غفلة من حذرها، ضمها بشدة إلى صدره و هي تضربه بقبضتي يديها تغالب قوته و ضعفها
وضع فمه على شفتيها يضغط عليهما حتى استكانت بين يديه تقهرها الشهوة و شوقها إليه، سحب وجهه ينظر إليها، يبتسم ابتسامة نصر عريضة، يمسكها عن السقوط و هو يحس برجفة جسدها بين ذراعيه.
ـ أنت ملكي و لا يمكنك التحرر مني أبدا.
سحب يديه تاركا إياها تسقط على السرير و خرج، لتتسابق دموعها على وجنتيها و ينفجر بداخلها ألم لم يعرف العالم أكبر وجعا منه، ألم الكبرياء المذبوح .

اتصلت المحامية بأحلام تخبرتها أنها تلقت الخبر المنتظر، هم يريدون تسوية القضية بصفة ودية و منع الخبر من الوصول إلى الصحافة، أعلمتها أن والد أسامة سيتصل بوالدها ليأخذ موعدا من أجل خطبتها و سيتم الزواج بأسرع وقت مقابل سحب الشكوى ، لم تخب حسابات أحلام، لم يكن والد أسامة ليسمح لتهور ابنه و رعونته بأن يقضي على طموحه و مستقبله السياسي الذي عاش عمره يبنيه، أنبه، عاقبه و أرغمه في النهاية على قبول هذا الزواج بعد أن هدده أنه إذا انتشرت الفضيحة سيتبرأ منه و يقف أمام الناس ضده، لن يعين له حتى محاميا للدفاع عنه و سيحرمه من ثروته، سيتركه يتعفن في السّجن حتى يدرك فداحة ما ارتكبه في حق تاريخ والده.

لم يجد أسامة من بد سوى الإنصياع لتخطيط أحلام و تهديدها، لقد انتصرت في هذه المعركة سيتزوجها، لكن الحرب ستكون طويلة و سيذيقها فيها كل أنواع الهزائم، سيجعلها تندم على اليوم الذي قررت تحديه بدل الابتعاد عن طريقه، سيجعلها تعرف حق المعرفة من هو أسامة الذي ظنت بغبائها أنها يمكن أن تهزمه، تلك الحمقاء لم تتعلم الدرس أول مرة يبدو أنها تحتاج إلى دروس أخرى ليستوعب عقلها المتحجر أن أسامة عابدي ليس بالرجل الذي يهزم .

في الأيام القليلة التي تلت، تقدمت عائلة عابدي بخطبة أحلام لابنهم أسامة، وافقت أحلام وعائلتها دون تردد، بينما كان شقيقها طارق هو المعترض الوحيد على هذه الزيجة.

ـ الرجل معروف بسمعته السيئة، زير نساء و مدمن خمر.

كانت أحلام تعرف أن شقيقها محق و قد استعدت لمثل هذه المواجهة

ـ هو ليس مدمن خمر، يشرب أحيانا فقط و سيتوقف بعد الزواج، و ليس زير نساء، كان له تجارب قبل الزواج لكنه لن يكون بحاجة لذلك عندما نتزوج.

ـ يا إلهي، لماذا تظن النساء بغباء أنه بإمكانهن تغيير رجل و جعله حملا وديعا وعاشقا متيما بمجرد زواجه ؟

كان طارق يتحدث وهو أدرى الناس بهذا الموضوع.

ـ لأن أسامة سيتغير فعلا .

ـ لا تكوني حمقاء، ليس هناك رجل يتغير من أجل امرأة و رجلك هذا أسوأ أنواع الرجال.

كانت أحلام تعلم أن العثرة التي ستقابلها هي شقيقها طارق و يجب عليها تخطيها كيفما كان حتى لا يفسد الأمر عليها و يضيع كل ما خططت له لذا كان عليها مهاجمته حتى تضعف حججه :

ـ لأنك تظن نفسك أحسن منه بعلاقاتك المتعددة مع النساء و صيتك كقاهر المرأة.

ارتبك طارق و شقيقته تصيب الهدف مباشرة .

ـ الأمر مختلف، أسامة أسوأ مني بكثير و لأنك شقيقتي لن أسمح لك بالزواج من هذا الرجل، و لا برجل مثلي .

ـ ليس لك أن تمنعني، لا أنا قاصر ولا أنت ولي أمري، أنا مسؤولة عن اختياري و أريد أن أتزوج من أسامة .

ـ أنت مبهورة به الآن، لكن الزواج أمر آخر، ستندمين لو ارتبطت به.

ـ أنا سأخوض التجربة و مستعدة لتحمل تبعات قراري

****

عادت سلمى باكرا من العمل لأنها أحسّت ببعض التعب والاجهاد، أخذت حماما ساخنا لعله يذهب بعضا من تعبها وخرجت لا ترتدي سوى لباس الحمام، عندما رأته يدخل متجها لغرفته دون حتى أن ينظر إليها بادرته بالسؤال :

ـ لقد عدت باكرا.

توقف فجأة ينظر إليها نظرة غريبة، لم تستطع تفسيرها وهو يجيب :

ـ أيزعجك الأمر ؟

فوجئت بنبرة الغضب في صوته.

ـ هل هناك مشاكل في العمل ؟

رد بنبرة حادة :

ـ لا كل شيء على ما يرام

ـ هل أنت غاضب ؟

ـ و هل تهتمين ؟

ارتبكت سلمى من السؤال وهي ترد :

ـ و لماذا لا أهتم، في النهاية نحن نعيش في بيت واحد و نعمل في مكان واحد.

اقترب منها وعيناه تطلقان شظايا نيران حارقة، اقترب منها حتى أحست بحرارة أنفاسه على وجهها

ـ هل تحاولين لعب دور الزوجة الآن ؟

فوجئت به و بكلماته.

ـ ماذا تقصد ؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على طرف شفتيه .

ـ تبدلين مجهودا لتكوني لطيفة معي، ما الذي تحاولين اخفاءه بهذه التصرفات ؟

ـ أنا لا أحاول إخفاء شيء!

ـ لا تظني أنك تخدعينني، أنا أعرف كل شيء لكنني أغض الطرف لأنني أريد ذلك.

استدار محمد متجها إلى غرفته فأسرعت سلمى الخطى تلحق به و أمسكته من ذراعه محاولة إيقافه

ـ ما الذي تعرفه ؟

ـ أنت تعرفين جيدا.

ـ لا، يبدو أنني لا أعرف و أريد أن أعرف.

ـ لا تجعليني أتحدث في الموضوع، على الأقل تحلي ببعض الحياء و حافظي على ما بقي لك من كرامة.

ـ حياء و كرامة ؟ عن ماذا تتحدث ؟

أجاب محمد في غضب و قد بدأ يفقده السيطرة على أعصابه.

ـ حسنا إذا كنت تريدين الخوض في الموضوع فليكن، أنا أتحدث عن عشيقك، أهو واحد، أم أقول عشاقك ؟

فغرت سلمى فاهها مصدومة وهي تسمع هذه التهمة الشنيعة.

ـ أراك صمتت ألم تعودي ترغبين في الحديث في هذا الموضوع أم أن معرفتك أني أعرف قد أخرستك ؟

اتسعت عيناها وردت بغضب وصوت مصدوم :

ـ أتتهمني أن لي عشيقا ؟

ـ أنا لا أتهمك، بل رأيتك بعيني، ذلك الذي تقابلينه في الكافتيريا و تتبادلان الغرام غير مباليان بمن رآكما و كأنك لست امرأة متزوجة، عندما وضعت شروطك أنت من قلت أننا سنحافظ على مظهرنا كزوجين أمام الناس و أنا قبلت فقط حفاظا على سمعة والدك و إكراما له، ألم يعد بإمكانك الانتظار قليلا حتى تتخلصي مني ؟ أم أن غطاء الزواج بي يسهل لقاءاتك مع عشاقك ؟

كانت سلمى تسمع هذا الكلام مصدومة و لم تحس بنفسها إلا و هي ترفع يدها و تصفع زوجها على خده.

ما إن تلقى محمد الصّفعة على وجهه حتى انطفأت أنوار البصيرة أمام عينيه و قفز على زوجته مسقطا إياها على السرير، بينما كانت هي تقاوم جسمه الضاغط على جسدها بقوة و يداه تأسران يديها.

ـ ظننت أني كنت مخطئة لكنك مازالت ذلك الأحمق المغرور .

ـ سأريك من الأحمق المغرور.

ـ دعني و شأني، أترك يداي.

ـ تظنين أن صبري عليك ضعفا، سأريك كيف آخد كل حقوقي منك متى أردت.

ـ ليس لديك أية حقوق علي.

ـ إذن أنت تحتفظين بهذا لعشاقك فقط، أما زوجك فلا ؟

ـ ابتعد عني.

كان الغضب قد وصل بمحمد إلى ذروته فدس رأسه بين كتفها وعنقها يحاول تثبيتها و منعها من الحركة، ثم رفع رأسه ووضع فمه على شفتيها في قبلة قاسية هي أقرب إلى العضة منها إلى القبلة، نزل بوجهه إلى صدرها فاقدا السيطرة على أعصابه يريد أن يوجعها و يأخذ منها ما لم ترض بمنحه إياه برضاها .. ثم و كأن صوتا قادما من وراء التعقل أيقظه، كان صوت شهيقها و نحيبها و صراخ مكتوم بالدموع التي خنقتها، رفع رأسه ينظر إلى زوجته المرمية تحته تبكي في ضعف قاتل و يأس مميت.

عند ذاك ترك يديها و نهض واضعا كفيه على رأسه متهربا من النظر إليها، كانت هي تطالعه و لا تصدق أنه توقف عيناها محمرتان ووجهها مبلل من البكاء صدرها يرتفع و ينخفض من شدة الهواء الذي تحاول أخذه عنوة ولا تعلم ما الذي أوقفه، استدار إليها بعينين تائهتين بعيدتين تلمعان بحمرة غاضبة، أغمض عينيه يخفي إحساسه بالقرف من نفسه، فتحهما لتفاجئها تلك النظرة التي ارتسمت في عينيه و كأنها نظرة انكسار حمل مفاتيح سيارته وخرج مسرعا .

بقيت سلمى تنظر إلى الباب الذي خرج منه غير مصدقة و لا مستوعبة لهذا الذي حدث لتوه أو لذاك الذي كاد يحدث، ثم انفجرت بالبكاء، قضت ليلتها خائفة مترقبة.

أما هو فقد كان هائما في الطرقات يقود سيارته دون وجهة محددة، يأكله الغضب وقد سمح لنفسه بأن يغلبه الغضب مرة أخرى و يوصله إلى تلك الحالة التي يمقتها من فقدان أي قدرة له على إدراك ما يفعله أو يقوله، يلوم نفسه، كيف سمح للأمور أن تصل إلى ما وصلت إليه، كيف سمح لنفسه بالوصول إلى تلك اللحظة الرهيبة التي فقد فيها عقله، لقد كاد يغتصبها، كاد يغتصب زوجته و أي مبرر كان سيقنع به نفسه ليحافظ على احترامه لنفسه، متى أصبح هذا الرجل الذي تحركه نزواته و تغلب عقله وتعقله، بل كيف سمح منذ البداية لهذه المهزلة أن تستمر ؟ كيف سمح لهذا الزواج أن يستمر إلى الآن ؟

ضاق صدره وبدأ يحسّ بصعوبة في التنفس، ركن سيارته جانبا يحاول السيطرة على أعصابه، شغل شريطا قرآنيا و ترك الآيات تنزل إلى روحه، كنزول الماء في حلق الضمآن في يوم صيف حار، لتتراخى أعصابه شيئا فشيئا ويعرف بعض الهدوء طريقه إلى نفسه الثائرة من شدة القهر و الغضب، بعدها انطلق بسيارته يجوب الطرقات هائما لا يعرف أين يذهب و لا يرغب في الذهاب لأي مكان كل ما كان يشغل تفكيره الآن أن هذا الزواج المهزلة يجب أن ينتهي.

عند السّاعة الخامسة صباحا كان محمد يفتح باب الشركة، على الباب الزجاجي الداخلي انعكست صورته، صورة رجل بائس، عينان ذابلتان يحيط بهما السواد، فارغتان و كأن الحياة غادرتهما لتوها، كتفان مترهلان و ملابس تبدو بالية من آثار الليلة العصيبة التي مر بها، صورة رجل بعيد جدا عن ذلك الذي كان يعرفه، لقد انكسر بالأمس شيء بداخله قد لا يستطيع إصلاحه أبدا .

كان يملك بدلة احتياطية في مكتبه، دخل، غسل وجهه و أطرافه و غير ملابسه، ليستقبل يوما جديدا يوما سيكون صعبا و طويلا.

عند السّاعة السابعة والنصف رنّ هاتفه النقال وجاءه صوت والده :

- صباح الخير بني.

- صباح الخير أبي.

- بني لقد حدث أمر مهم، إنها زوجتك.

كانت الكلمة على بساطتها كطلقة رصاصة، أتراها غادرت ؟ هل وشت به و أخبرت والده عن حقارته و وحشيته ؟

- بني ؟

- نعم أبي، ماذا حدث ؟

- لقد وجدناها مغميا عليها في الغرفة و نقلناها إلى المستشفى.

أغمض عينيه يحاول إبعاد صورتها البارحة باكية ضعيفة، أكان تأثير ما حدث عليها البارحة قاسيا إلى هذه الدرجة ؟

- أنا قادم حالا أبي بأي مستشفى أنتم ؟

اتصل محمد بطارق و أعلمه بأنه سيغيب طيلة اليوم مقدما له التعليمات الضرورية ليحل محله بينما كان يتجه مسرعا للمستشفى.

داخل المستشفى، كان محمد ينتظر خروج الطبيب مع والده، بينما تجرى لسلمى الأشعة والتحاليل للتأكد من حالتها.

كان القلق يكبر داخل محمد وهو يراهم ينقلونها من جناح لآخر وتوتر شديد، عندما ظهر الطبيب أخيرا موجها كلامه لمحمد :

ـ هل أنت زوجها ؟

ـ نعم دكتور.

ـ تعال معي.

عندما جلس محمد قبالة الطبيب بادره الطبيب قائلا :

ـ الأشعة التي أجريناها أكدت شكوكي، زوجتك لديها ورم في الجهة اليسرى من الدماغ .

فقد محمد قدرته على الكلام لأول مرة في حياته، استجمع أعصابه التي فلتت منه و هو يسأل

ـ هل هذا يعني سرطان ؟

ـ نعم، الحالة ليست متقدمة، المرض في بدايته لكن يجب الإسراع بالعلاج.

ـ ما الذي علي فعله الآن بأسرع وقت ممكن.

ـ قرأت في وثائق زوجتك أن اسم والدها هو " كاميلي " هل هي ابنة كاملي المعروف ؟

ـ نعم.

ـ انصحك بالسفر إلى الخارج ما دامت الامكانيات المادية متوفرة، فرصها هناك أكبر بكثير، العلاج عندهم متقدم جدا وفرصتها في النجاة أكبر، ستحتاج حتما إلى عملية جراحية لاستئصال الورم وعلاج بالأشعة الكيميائية.

عقدت الصدمة لسانه و هو يستمع لشروحات الطبيب و تعليماته، غير قادر على الرد، محاولا بجهد استيعاب ما يقوله الطبيب .

وقف الطبيب و هو يضيف :

ـ الوقت يلعب ضدكم و يمكن أن يكون عدوكم.

انطلق لسان محمد أخيرا و هو يسأل.

ـ هل أخبرت زوجتي بحالتها ؟

ـ نعم، لقد ألحت على معرفة ما بها و تلقت الخبر بصبر وهدوء، إنها امرأة شجاعة

دخلت سلمى غرفتها و محمد يتبعها في صمت دام طيلة طريق العودة، كان هو يحاول إيجاد كلمات مناسبة للموقف الصعب، لكن شيئا كان يقتل الكلام و يكاد يقتل الحياة بداخله و مازاد الطين بلة أن صور الأمس لا تغادر مخيلته و مكان الجريمة شاهد على دناءته، عندما نطق أخيرا :

ـ سأباشر بمعاملات السفر إلى أمريكا.

استدارت سلمى إليه ممتعضة

ـ من سيسافر إلى أمريكا ؟

ـ أنا و أنت.

ـ لم ؟

ـ لكي تبدئي علاجك.

ـ و من قال أني أريد السّفر إلى أمريكا ؟

ـ الطبيب، لقد أكد لي أن حظوظ العلاج هناك كبيرة و أنه أحسن مكان يمكن أن نقصده للعلاج .

ـ لكنني لا أريد السفر الى أي مكان و خاصة معك .

أحس محمد بوخز الكلمات، لكن الوقت لم يكن مناسبا لشرح شيء أو تبرير ما حدث فحياة سلمى على المحك و ذلك ما يجب التركيز عليه.

ـ و ما الذي تنوين فعله ؟

ـ سأبحث الأمر مع والدي.

ـ لا يمكنك تحميل هذا الأمر لوالدك، سيكون العلاج شاقا و ستعرفين أوقاتا صعبة

صمت قليلا ثم أردف :

ـ سلمى الطبيب قال أنك ستحتاجين لعملية جراحية ومتابعة بالعلاج الكيميائي، هل يمكن لوالدك أن يتحمل رؤيتك تعانين في كل دقيقة وهو عاجز عن فعل شيء ؟ الخبر وحده سيهده فهل سترضين تحميله هذا العبء على كبر سنه ؟

سكتت سلمى لاتجيب عندما سمعته يضيف :

ـ أرجوك دعيني أرافقك تكفيرا عما فعلته البارحة.

استدارت تنظر إليه وهي ترى هذا الضعف المرسوم على وجهه.

ـ لست بحاجة للسفر معي وتحمل رحلة قد تكون طويلة تكفيرا عن شيء هممت بفعله و لم تكمله، أنت لديك شركة تسيرها هنا و أنا سأتدبر أموري.

اقترب منها و هو يقول :

- أرجوك سلمى لا يمكنك السفر وحدك و لا مع والدك، الشركة سيتولاها والدي في غيابي وطارق سيكون موجودا و أنا أريد أن أرافقك.

كانت سلمى مرهقة و مصدومة، رغم تظاهرها بالقوة لكنها كانت متعبة مما حدث البارحة ومتعبة من هذا المرض الذي اكتشفته، حديث محمد جعلها تدرك ألا خيار لها، ستكون الأيام القادمة صعبة و عصيبة، كما أنها قد تعود جثمانا إلى أرض الوطن، لا يمكنها تحميل والدها كل هذا الألم، على الأقل سيكون محمد هناك ليصطحب جثمانها، وافقت في النهاية و هي تعلم أنه خيارها الوحيد .

****

لم تجدِ احتجاجات طارق و لا مناقشاته الطويلة مع شقيقته نفعا، هي كانت مصرة على رأيها وفي النهاية والديها موافقان على هذه الزيجة، الرجل كان ابن سياسي محترم وعائلته ميسورة الحال، كل الرجال لهم نزواتهم قبل الزواج و أسامة لم يكن الاستثناء من القاعدة ومادامت ابنتهم مصرة عليه فلم الرفض، تم الزواج سريعا بناءً على رغبه أهل العريس و أصبحت أحلام زوجة أسامة عابدي، تحقق الكابوس الذي سعت إليه بكل طاقتها ودخلت بقدميها وإرادتها قفص أسامة، أصبحت تحت قبضته راضية غير قادرة على التذمر أو الشكوى، هذا ما جنته يداها، هذا جزاء تهورها وثقتها برجل باعها الأحلام ليجعلها تدفع في الأخير شرفها وحياتها ثمنا لذلك وفي النهاية اكتشفت أنه لم يعطها سوى الأوهام، محملة بوجع لا يصمت

و ذل يرفض أن يغادرها، هي الآن روح كسيرة أجبرت مغتصبها على الزواج بها، كأنها تعاقبه لكن الحقيقة أنها تعاقب نفسها، لو كان في هذا العالم عدل لكان عقابه السجن، لكن الواقع أنها هي من دخلت هذا السجن، بينما سيبقى هو حرا طليقا يمارس قذارته مرات و مرات دون أن يجد من يوقفه و يعاقبه، ترى كم من فتاة لعب بها و اغتصبها، إذا كانت هي وجدت الجرأة لإجباره على الزواج منها، فكم من فتاة دفنت عارها دون القدرة على فعل شئ، هو سيواصل حياته القذرة دون أن يعبأ بكونها أصبحت زوجته و تحمل اسمه، و هي ستموت كل يوم لأنها أصبحت زوجته و تحمل اسمه .

ليلة دخلتهما جاءها ليلا سكرانا يترامى، كان غاضبا رغم ثقل حركته يلعنها و يتوعدها، هدته كؤوس الخمر التي شربها فوقع على السرير كالمغشي عليه .

في الليلة الموالية أخذها عنوة بأبشع طريقة يمكن أن يتصورها بشر، كان يعاقبها ويتعمد إيذاءها، يزيد من إيلامها كلما سمع أنينها، كأنه يغتصبها من جديد مرة أخرى و هذه المرة لن تستطيع الشكوى، لا تستطيع معاقبته و لا إجباره على شيء، عندما انسحب أخيرا تركها ملقاة على السرير كجثة هامدة، غير قادرة على الحركة، واجهها دون حتى أن يرتدي ملابسه وهو يقول :

هكذا ستكون حياتك من الآن فصاعدا يا زوجتي العزيزة، أنت أجبرتني على هذا الزواج و أن سأعلمك كيف تتجرئين على أسامة، تركتك تخرجين من حياتي لكنك

سعيت للبقاء فيها، إذن تحملي عواقب قرارك، خرج من الغرفة لتسمح هي أخيرا لدموعها الأسيرة بالانهمار .

في الأيام التي تلت كان يأتيها كل ليلة، دون أن يخلف موعده ليلة واحدة، تقاومه و تتصارع معه تخدش وجهه بأظافرها، تضربه بقدميها تناضل كحيوان يائس يعلم أنه في معركته الأخيرة، معركة الموت أو الحياة ليغلبها بقوة جسده كل مرة و يغتصبها من جديد مرة بعد مرة وتعرف هي أن الحيوان أحسن منها لأنه في معركته الأخيرة ينجو منتصرا أو يموت بفخر المقاومة، بينما عذابها هي أنها غير قادرة لا على الانتصار ولا حتى على الموت .

****

اتصلت ياسمين بصديقتها وطلبت منها القدوم إلى بيتها لأنها متعبة ولا تستطيع الخروج، عندما حضرت أعلمتها بحقيقة مرضها الذي تم اكتشافه، لم تجد صديقتها ما تقوله من الصدمة إلا أن ارتمت في حضنها و انفجرت بالبكاء، كانت سلمى تحاول تهدئتها و كأن الأمور انقلبت للحظة فأضحت هي تحاول جعل الأمر يبدو أقل سوءا مما هو عليه، وكأنها تواسي صديقتها، لكنها في الأخير انفجرت هي الأخرى باكية وهي تقول :

ـ ليت الأمر توقّف عند هذا الحد.

رفعت ياسمين رأسها تنظر إلى صديقتها متوجسة .

ـ ماذا هناك أيضا؟

ـ محمد يظن أن لي عشيقا، ليلة أمس انفجر غاضبا وحاول ....

سكتت سلمى غير قادرة على إكمال جملتها.

ـ حاول ماذا ؟

ـ حاول أخذ حقوقه.

ـ يا إلهي هل اغتصبك ؟

صرخت سلمى محاولة طرد الكلمة قبل أن تستقر في حديثهما :

ـ لا، لم يفعل، لقد توقف.

صمتت قليلا ثم أردفت في صوت متهدج :

ـ ليتك رأيته، لو رأيت النظرة التي ارتسمت في عينيه وهو ينظر إلي قبل أن يخرج.

ـ نظرة ماذا ؟

انفجرت سلمى مرة أخرى باكية وهي تقول :

ـ كانت نظرة انكسار، محمد ذلك الرجل بوقاره وكبريائه، بقوته وعنفوانه وعزة نفسه انكسر البارحة و أنا كسرته، أنا كسرت كبرياءه وعزة نفسه.

نظرت ياسمين إلى صديقتها مستغربة، لا تفهم ما ترمي إليه متفاجئة لحال صديقتها.

ـ أريد أن أفهم، لقد أخبرك الطبيب للتو أن لديك ورم بالدماغ وأنت تكترثين لهذا الذي حاول أخذ حقوقه عنوة وما يهمك هو ما رأيته في عيون هذا الرّجل، فلينكسر أو ليذهب إلى الجحيم هو فعل ذلك بنفسه.

توقفت ياسمين عن الكلام فجأة و هي تستوعب أخيرا حال صديقتها.

ـ تعالي هنا سلمى، هل تحبينه ؟

ترددت سلمى قبل أن تفصح عن حقيقة مشاعرها ثم قالت :

ـ أجل ولا أعلم كيف حدث هذا أو متى، لا أعلم إلا أنني أحبه و انتهى.

ـ بتِ مغرمة به لدرجة ألا شيء أصبح مهما سواه، حتى حياتك ؟

أومأت سلمى برأسها إيجابا ودموعها تنزل سيولا على وجنتيها ثم قالت :

ـ لأن حبه يؤلمني أكثر من هذا الورم اللعين، و شكه أن لي عشيق يقتلني.

زفرت ياسمين في أسى وهي تقول :

ـ مرحبا بك في عالم العشاق.

ـ أهذا هو الحب يا ياسمين ؟

ـ هذا هو يا صديقتي قاهر و موجع عندما يكون من جانب واحد.

ـ أعذريني ياسمين، الآن فقط أفهم مشاعرك تجاه حليم وخوفك.

ـ لا عليك صديقتي، لكن أخبريني كيف وصل إلى فكرة أن لديك عشيقا!

ـ قال أنه رآني في الكافتيريا معه، لقد قلبت الأمر في رأسي مرارا و تكرارا و أعتقد أنه رآني مع حليم ذلك اليوم .

وضعت ياسمين يدها على فمها تكتم صرختها ثم أضافت :

ـ يا إلهي كل ذلك كان بسببي، لو لم أطلب منك مقابلته لما حدث كل هذا.

ـ إنه القدر الذي جعله يرانا، هذه الزيجة تعاكس هدفها منذ البداية.

في غضون أيام كان كل شيء جاهزا للسفر، استعمل محمد كل علاقاته ومعارفه و نفوذ والد سلمى من أجل اتمام الوثائق و إجراءات السّفر والحصول على موعد وحجز في المستشفى الأمريكي.

رفضت سلمى أن يرافقها والديها إلى المطار تحاشيا للحظات الوداع الأليمة التي قد تكون الأخيرة، تتذكر عندما قامت باخبارهم رفقة محمد، أغمي على والدتها من أثر الصدمة و من ساعة استفاقتها و هي تبكي، والدها ارتفع ضغطه لسماعه الخبر، وكأنه كبر سنوات على وقع هذا النبأ رغم تجلده ومحاولة تظاهره بالشجاعة إلى أن

الخبر هدّه، والدتها لم تتوقف عن البكاء من يومها و لم تتوقف عن الصلاة من أجل أن يحفظ الله وحيدتها، والدها كان ذاهلا مفجوعا .

قبل مغادرتها إلى المطار كانت لحظات صعبة مؤلمة مليئة بالدموع، تطلب الأمر تدخل محمد ليفتكها من حضن والدتها، وكأنها بتمسكها بها كانت تحاول منعها من السّفر إلى المجهول حيث العودة غير مؤكدة .

داخل الطائرة كانت سلمى تجلس رفقة زوجها، هذه ثاني سفرة لهما معا، و في كلتا السفرتين كان الخوف رفيق سلمى و لعلّ الموت سيكون رفيقها في العودة، وهذا الرجل الذي يجلس بجانبها، هذا الرجل الذي هو أقرب الناس إليها اسما، لكنه أبعدهم عنها قلبا، أكان يجب أن يجمعهما هذا القدر، أكان يجب أن يزفها القدر إليه عروسا ظلت عذراء ليعيدها ميتة على يديه، أهذا هو قدرها عروس تموت عذراء، أتراه سيعلم يوما أنها لم تخنه أبدا، أنها لم تكن له جسدا و لكنها لم تكن لرجل آخر، أتراها تستطيع إخباره، ربما في ساعاتها الأخيرة، ربما لحظتها ستتخلى عن كبريائها، ستخبره أنها لم تكن له جسدا لكنها كانت له روحا و قلبا، أنها أحبته في النهاية، لكن شروط اللعبة التي وضعتها هي لم تستطع تعديلها، ربما كانت تنتظر معجزة لكننا لم نعد نعيش زمن المعجزات، ستزف العروس العذراء إلى عريس آخر، عريس اسمه الموت، لكن على الأقل سيمنحها القدر هدية الموت بين يدي الرجل الذي أحبته، ستموت بين يدي محمد .

بعد تلك الحادثة تعوّدت لبنى على الصمت، بل أرغمت نفسها عليه، باتت تعرف أنها لو استفزته سيمارس عليها قوته، و هو بات يعرف ضعفها اتجاهه وعدم قدرتها على مقاومته ولكنه كان يأتي في ليالٍ عديدة و يأخذها بذلك العنفوان و كأنه عاشق متيم، لا يستطع الابتعاد أكثر و لا يقدر على العيش بدونها، تقاومه في البداية ليذيبها فتستسلم في النهاية، غير قادرة على مقاومة هذا الشوق الذي يسكنها إليه و لا هذا الحب الذي لا تجد له تبريرا، عندما تستيقظ صباحا لتجد نفسها وحيدة في فراشها تحس بالقذارة تغطيها و تكره نفسها و تحتقرها، على هذا الضعف الذي سكنها منذ تزوجته، هي لم تكن يوما امراة ضعيفة، لم تترك يوما قلبها يسيرها منذ أصبحت مراهقة و الشباب يطاردونها بشعرها الغجري و عينيها الخضراوين، لكنها أبدا لم تسلم أمرها لقلبها، و ها هي اليوم تقع أسيرة حب رجل بلا قلب، بلا رحمة، يغرز سكاكين الغدر و الخيانة في قلبها، يوجعها دون أن يرف له جفن، وثقت به لأنه زوجها، و هل تلام المرأة على حبها لزوجها، أطلقت سراح مشاعرها التي حبستها لسنوات طويلة قبله، ظنته آخر الطريق، ميناء رسوها، لكنه خذلها، و في كل مرة تكره ضعفها و تكره حبها له، تكره شوقها الذي لا تستطيع كبح جماحه عندما يوقظه هو، تكره حياتها معه و تكره عالمها كله لأنه هو فيه .

جالسة هي على سريرها تقلب ديوان شعر بين يديها، لتتعثر نظراتها بكلمات هزتها، كانت القصيدة بعنوان " أكرهك " واصلت قراءتها لتجد كل كلمة فيها كأنها خطت بحبر ضعفها وشتات كبريائها، فتنزلق دموعها مع كل بيت فيها كأن القصيدة تحكيها و تحاكيها، كان مطلع القصيدة يقول :

أكرهكَ لأنك كلما لمستني

ذابت روحي بين يديك

أكرهك لأنك تحترف الخطايا

و تذيق قلبي أنواع المنايا

و تعود فأصب عليك غضبي

و أحكيك كيف كسرت كل مُنايا

و تأخذني قهرا بين يديك

فتستسلم لك كل ثوراتي

و تضع حربي أوزارها

تحت قنابل شفتاك

و تَسكتُ فيا صرخات احتجاجاتي

و تستيقظ صيحات شهواتي

و تعودَ لتمضي كما أتيت

لست تحبني و لازلت أهواك

و يملأني الحزن و الأسى

على كره ممزوج بسم هواك

و تنكسر روحي و أحيا

على كرهك في انتظار عودتك

لأحبك ثم أعود فأكرهك

أكرهك لأنكَ وحدك

كسرت كبريائي

و ما استطعت أن أكرهك

أكرهك لأن ما من رجل

رأى ضعفيَ إلاكَ

أكرهك لأني أكره نفسي

عندما تسقط تحت قدماكَ

تستجدي عتقي

و الكف عن إذلالي

بل تستجدي شيئا من حبك

و اعلم أنك ستمضي

دون أن تلتفت لما

خلفت من دمار وراكَ

و أستجمعني حتى أقف على

قلبي المملوء حقدا

وروحي التي تقسم

على الشفاء منك

فتعود أنتَ لتكسرني

و تعود لتتركني

ألملم كبريائي و حزني

و أكرهك، أكرهك

في انتظار عودتك

و أكرهني معك

فأي تعويذة تلك التي

ألقيتها على قلبي الذي

أقسم ألا ينساك

فحل قيدي

بحق من خلقك

بهذا القلب الذي

وحده يعرف كيف يجمع

الحب و الكره في قلبي

و لا سبيل للقياك

أغلقت لبنى الكتاب وجروحها التي فتحتها تلك الكلمات تنزف قيئا بدل الدم و قد كرهته أكثر وكرهت نفسها و هي تعلم أنه سيعود ليمحي هذا الكره، ككل مرة و تسأل نفسها إلى متى ؟ إلى متى ستعيش في هذا الضياع و تتقبل ذل هذا الحب الممزوج بالكره ؟

****

كانت سلمى قد دخلت المستشفى منذ يومين، أعيدت لها كل التحاليل والأشعة و تقرر إجراء العملية على جناح السّرعة.

استيقظت سلمى على السّاعة السابعة صباحا لتجد محمد جالسا قبالتها، مشغول بتصفح كتاب ما

ـ صباح الخير.

رفع وجهه ينظر إليها وهو يرد :

ـ صباح الخير، كيف أصبحت؟

ردت بتثاقل و النعاس لم يغادر جفنيها بعد:

ـ بخير، منذ متى و أنت هنا؟

ـ السادسة.

ـ لم لم توقظني؟

ـ تركتك ترتاحين، مازال الوقت مبكرا على موعد العملية

صمتت سلمى هنيهة ثم قالت :

ـ محمد، أريد أن أتكلم معك في موضوع.

أغلق محمد كتابه وهو يصغي إليها.

ـ تفضلي!

ترددت قليلا فيما ستقوله و كيف ستبدأه، ثم نظرت إليه وهي تقول :

ـ أنت تعلم أني مقدمة على عملية خطيرة قد أنجو منها و قد لا أنجو لذا .....

قاطعها هو قائلا :

ـ لا تدعي التفكير السلبي يسكنك سلمى، ستنجح العملية وستخرجين وتعودين إلى أرض الوطن، فقط ثقي بالله وهو لن يرد ثقتك به.

ـ إنها الأقدار التي لا نعرفها و الموت حق علينا، إذا جاءت الساعة فلا راد لها.

انقبض قلب محمد و هو يسمع كلماتها.

ـ و نعم بالله، لكنك ستخرجين من تلك الغرفة حية يا سلمى، الله لن يفجع والديك فيك و أنت وحيدتهما تفاءلي الخير أرجوك.

ـ محمد أرجوك أريدك أن تسمعني جيدا.

ـ كلي آذان صاغية.

ـ أتذكر عندما اتهمتني بأن لي عشاقا، ما الذي دفعك لتظن بي شيئا كهذا ؟ ما الذي فعلته، أوحى لك بأنني من هذا النوع؟

ضغط محمد على قبضة يده يكتم غضبه و حنقه على نفسه و هو يتذكر ما جرته تلك اللحظة من كوارث، نظر إليها محاولا اختيار كلماته :

ـ أنا لم أظن فيك يوما هكذا، إنما هي لحظة غضب و قد بت تعرفين أنني حين أغضب أصبح مثل المجنون و أفقد السيرة على أعصابي و على كلماتي.

ـ لكنك حين دخلت يومها كانت الفكرة مستقرة في عقلك.

تردد محمد في الاجابة، هي مقدمة على عملية جراحية خطيرة والوقت ليس مناسبا للعتاب ولمناقشة هذا الموضوع عندما قاطع صوتها أفكاره :

ـ أرجوك يا محمد أجبني على سؤالي.

ـ رأيتك يومها في كافتيريا مع رجل وكنت تمسكين يده.

عادت سلمى بذاكرتها إلى ذلك اليوم، لقد توقعت ذلك فعلا، ساد صمت رهيب لبضع دقائق ثم سمع صوتها و هي تقول :

ـ كان ذلك حليم.

ـ ومن حليم هذا ؟

كيف ستفسر له من حليم هذا، فلا هو زوج صديقتها ولا هو خطيبها حتى، هل سيتفهم علاقة ياسمين به ؟ اختارت كلماتها في تروٍ :

ـ حليم هو الشاب الذي تحبه ياسمين، من المفروض أن يتقدم لخطبتها لكنهما تخاصما، طلبت مني ياسمين أن أقابله لأفهم منه المشكل وأحاول تسوية الخصام بينهما.

جاءتها كلماته التي لم يستطع ردها حادة رغما عنه :

ـ و هل تمسكين يد كل رجل تقابلينه ؟

اتسعت عيناها ذهولا، فأردف و هو يحاول تلطيف ردة فعله :

ـ أنت امرأة متزوجة أمام الناس، حتى و لو كنت قبلا لا تراعين تصرفاتك مع أصدقائك ومعارفك فالأمور اختلفت، نحن نعيش في مجتمع و لسنا وحدنا، أي شخص سيراك في ذلك المنظر ماذا سيظن ؟ أنه صديقك أو صديق صديقتك، حتى لو ليس من أجلي أنا فمن أجل سمعتك، المرأة المتزوجة لا تجلس مع رجل آخر و تمسك يده .

تعلم سلمى أن ما يقوله صحيح و لكنها لحظتها لم تفكر في الموضوع من هذا المنظور.

ـ معك حق و لكنني لحظتها لم أحسب حسابا لذلك، تصرفت بعفويتي المعتادة متناسية أنني امرأة متزوجة.

سكتت سلمى ازدردت ريقها ثم أردفت :

ـ ليس لي عشيق، لم يكن لي قبلا، و لا أثناء زواجنا، لم يسبق لي أن دخلت في علاقة غرامية مع أحد.

نظر إليها دون أن يرمش له جفن وهو يقول في هدوء تام :

ـ أعرف ذلك.

نظرت إليه مستفسرة متعجبة :

ـ كيف تعرف ذلك ؟

أمعن النظر إلى عينيها و هو يجيب :

ـ لأنني أعرف جيدا المرأة التي تزوجتها.

سكتت سلمى تحاول ربط كلماته بواقع زواجهما، أسأل عنها قبل أن يتقدم لها خاطبا كأي عريس يتقدم لأية فتاة ؟ ألم يكتفي بأنها ابنة كاميلي و فقط ؟ أكان جادا في ارتباطه بها ؟ هل كان ينوي تكوين أسرة معها كأي شابين يفتتحان حياتهما معا ؟ كيف تغافلت هي عنه و عن أسبابه ؟ لم تتمسك إلا بعنادها لتجد نفسها زوجة رجل لا تعرفه، ثم عاشقة لهذا الرجل الذي ارتسمت فيه كل صفات الرجولة التي كانت تحلم بها، محمد هو فارس أحلامها بكل ما تعنيه هذه العبارة، بقلبه الكبير و قوة شخصيته، باستقامته و التزامه، حتى بعيوبه، بعصبيته وجنونه، بقدرته الفظيعة على جعل الابتسامة أبعد شيء عن شفتيه، بتواجده الطاغي الذي يفرض على أي كان احترامه، كان هو فارسها، لكنه فارس لم يعد يريدها بعد أن رفضته هي وجرحت كبرياءه، محمد رجل بقلب كبير لكن بكبرياء أكبر.

مرت أكثر من خمس ساعات مذ دخلت سلمى غرفة العمليات، كان محمد ينتظر بالخارج منذ دخولها رغم أن الطبيب أخبره أن العملية قد تستغرق أكثر من سبع ساعات و طلب منه الذهاب إلى الفندق لكي يرتاح، فلا جدوى من انتظاره خارجا، لكن محمد رفض و أصر على الانتظار لا يمكن أن يتركها هنا وحدها ولا قلبه سيطاوعه على ذلك.

كان هنا عندما تم إدخالها إلى غرفة العمليات يمسك بيدها و يطمئنها أن كل شيء سيكون على ما يرام يتذكرها الآن و هي توصيه بوالديها :

ـ محمد والدي ليس لهما سواي إذا لم أخرج اعتني بهما أرجوك، لا تتركهما، الصدمة ستكون كبيرة عليهما، و لن يستطيعا تجاوز الأمر بسهولة، أريدك أن تكون بجانبهما حتى يتعديا الأزمة و يستطيع والدي تولي والدتي بعدها، أرجوك محمد عدني أن تعتني بهما

ـ أنت ستخرجين من هذه الغرفة و ستعودين لوالديك و أنت من سيعتني بهما

ـ أرجوك محمد عدني أنه إذا حدث لي شيء فستعتني بهما.

لا يملك محمد كلمات ليصف شعوره في هذه اللحظات و هو يسمع كلماتها و كأنها كانت تودع عالمها، غصة تملكت قلبه ولم يجد كلمات تسعفه، إلا أن قال :

ـ حسنا سلمى أعدك، لكنك ستعودين معي، تذكري أننا جميعا بانتظارك، تذكري أنني هنا بالخارج.

نظرت إليه و الدموع تملأ عينيها.

ـ سامحني محمد.

ـ لا تقولي هذا سلمى أرجوك!

وضع يده الأخرى على رأسها و شرع يقرأ آيات من القرآن الكريم و أدعية الشفاء، بينما يتم نقلها في ممر المستشفى إلى غرفة العمليات، كانت الآيات تنساب في روحها لتبعث الطمأنينة إلى قلبها وهي تشعر بقرب زوجها ويده التي نزلت إلى جبينها، وتحمد الله أنه هنا وهي تدرك أنها ربما تراه لآخر مرة، قبل دخولها ضغطت على يده و ابتسمت و هي تقول :

ـ شكرا لأنك هنا.

لكنها لم تتجرأ على قول الكلمات التي تسجنها في قلبها و التي كانت تتردد في عقلها (شكرا لأنك دخلت حياتي، و لأنك جعلتني أعرف الحب حتى لو لم تبادلني إياه)

كان هذا قبل أكثر من خمس ساعات، توتره يزداد أكثر بمرور الوقت و اتصالات والده ووالديها المتكررة تزيد في توتره، خاصة أنه لم يكن يملك من جواب سوى أنها لم تخرج بعد والعملية لم تنته، كان يتفهم قلقهم فإن كانت هذه حاله ولا تفصل بينه وبين زوجته سوى خطوات، فلا يصعب عليه تصور حال والديها وكل هذه المسافة تفصلهما عن ابنتهما.

فتح الباب أخيرا ليطل منه الطبيب خارجا، أسرع محمد الخطى إليه مخاطبا إياه بالانجليزية

ـ كيف حالها ؟

ـ إنها بخير لقد نجحت العملية، استأصلنا الورم لكنها ستحتاج لأربع و عشرين ساعة لتستفيق ونتأكد من حالتها

ـ شكرا لك دكتور.

كان محمد يحاول السيطرة على مشاعره التي تقفز فرحا و نبضات قلبه المتسارعة داخل صدره انزوى جانبا و راح يسجد سجدة شكر لله، بينما الطبيب ينظر إليه باستغراب وكذلك الطاقم الطبي الذي حضر العملية والذي كان يخرج في هذه الأثناء من الغرفة تباعا.

استقام واقفا يتصل بوالدي زوجته ليطمئنهم بنجاح العملية ثم بوالده، عندما أقفل الخط سقط على الكرسي يضع رأسه بين كفيه يمسح دموعا خانته و كانت هذه أول مرة في حياته مذ صار شابا يتعرف فيها على دموعه، عندما أحس بيد تربت على كتفه ليرفع رأسه إلى الممرضة المشرفة على سلمى منذ دخولها.

ـ هل أنت بخير سيدي؟

مسح دموعه بسرعة يخفيها.

ـ نعم أنا بخير.

ـ لقد مر الأسوأ، العملية نجحت وستكون بخير .

ـ فعلا جاكلين، ستكون بخير، ستكون بخير.

ـ لا بأس سيدي

ـ هل يمكنني رؤيتها جاكلين؟

ـ إنها بالعناية المركزة حتى يقرر الطبيب نقلها إلى غرفة عادية، يمكنك الذهاب لترتاح الآن

ـ لا جاكلين لا أريدها أن تستيقظ و تجد نفسها وحيدة ؟

ـ إنها تحت تأثير المخدر سيدي، لن تستيقظ الآن

ـ لا جاكلين، أفضل البقاء هنا، شكرا لك

كانت جاكلين امرأة في الخمسين، قضت حياتها في العمل كممرضة و قد رأت من الحالات ما يجعلها تدرك و تقدر مشاعر الناس، دون الحاجة إلى كلمة منهم حتى، تفهمت قلق الرجل على زوجته و عذرته، تركته مودعة متجهة لغرفة مريض آخر.

أفاقت سلمى بعد نقلها لغرفة عادية، أول شيء رأته كان محمد جالسا على كرسيه يحمل بين يديه مصحف القرآن الكريم و يقرأ فيه بصوت خفيض جدا، أغمضت عينيها و عادت مرة أخرى إلى غفوتها دون أن يشعر بها محمد .

مرت أكثر من ست و ثلاثين ساعة و و سلمى مازالت تغط في غيبوبتها، بينما محمد قلق حيال ذلك .

ـ دكتور الأمر يقلقني، لقد مر أكثر من ست و ثلاثين ساعة .

- حركتها بطيئة لكنها في حال جيدة.

- كيف يمكنك أن تخبرني أنها بحالة جيدة و هي لم تعد لوعيها بعد

- بعض الأشخاص ردة فعلهم أبطأ من غيرهم

- لا أظن زوجتي من هؤلاء الأشخاص

- سيدي عليك أن تصبر

- إلى متى ؟ إلى أن أفقدها

ارتفع صوت محمد رغم محاولته السيطرة على غضبه و هو يضيف :

- أريد أن أتحدث إلى مسؤول هذه المستشفى.

- سيدي أنت تريد اختلاق المشاكل دون سبب، زوجتك بخير

- قلت لك أريد أن أتحدث إلى المسؤول هنا.

خرج محمد في ثورة غضبه يبحث عن مسؤول يتحدث معه، عندما اصطدم برجل يرتدي بزة بيضاء .

- عذرا

- هل تبحث عن شيء سيدي ؟

ـ أجل عن مسؤول أتحدث إليه في هذه المستشفى اللعينة.

ـ تمالك نفسك و أخبرني ماذا تريد دون تقليل احترام من فضلك

ـ أنا لا أقلل احترام أحد، أنا فقط أريد أن يتم فحص زوجتي، هي لم تستيقظ بعد العملية و هذا الرجل يخبرني ألا أقلق

أفصح الرجل عن اسمه و هويته كطبيب في هذه المستشفى، تحدث محمد مع مسؤول المستشفى و تم الاتصال بالطبيب الذي أجرى العملية و الذي حضر على جناح السرعة، تم إجراء أشعة دماغية بعد فحصها، ليتأكد الطبيب أن الجرح داخل دماغ زوجته فتح و سيضطرون إلى إعادة فتح الدماغ لإيقاف النزيف الداخلي الذي تعاني منه زوجته.

في قمة غضبه و هم يخبرونه بأن قلقه كان مبررا كان محمد يوجه سؤاله المباشر :

ـ هذا يعني أن حالتها ليست طبيعية ؟

أجاب الطبيب في حرج واضح :

ـ أجل سيدي .

ارتفع صوت محمد يصرخ في وجه الجميع بغضب ينذر بالانفجار .

ـ و هذا الأحمق الذي يسمي نفسه طبيبا بقي يتفرج عليها، بينما كانت تنزف .

أدرك الطبيب حالة الغضب التي عليها محمد، فحاول تهدئته متحججا رغم إدراكه أن الطبيب الذي تركه لمراقبة حال المريضة كان مخطئا و مقصرا :

ـ سيدي النزيف داخلي و لا يمكن رؤيته بالعين المجردة

ـ أتحسبني أحمقا، ما دوره هنا إذن، متفرج، أنا قلقت و طلبت منه التصرف و هو كان غير مبال يصر أنها بخير.

ـ سيدي ...

قاطعه محمد بإشارة من يده.

ـ أنت تضيع وقت زوجتي بهذا النقاش العقيم، عليك التصرف حالا لإنقاذ زوجتي و أقسم بالله لو حدث لها شيء، سأجعل كل فرد يعمل في هذه المستشفى يدفع الثمن غاليا، سأقاضيكم حتى لو خسرت كل أموالي هنا، سأحيل حياتكم إلى جحيم، صلوا ألا يحدث شيئ لزوجتي، و هذا الأحمق الذي يسمي نفسه طبيبا سأتولى أمره، ما عليه إلا الانتظار.

عندما كانت سلمى تجري العملية كانت كل الامكانيات مجندة، استدعي طبيبان آخران من أحسن أطباء المستشفى كما حضر مدير المستشفى شخصيا للوقوف على الأمر و معالجته، لم يكن من حديث في المستشفى سوى عن الرجل الذي ينوي مقاضاة المستشفى، لم يرد محمد إخبار الأهل بما حدث حتى لا يزيد قلقهم و يزرع الاضطراب لديهم، هذه المرة كان عليه أن يتحمل القلق و الانتظار وحده، و هو

يفكر أنه لو حدث شيء لسلمى لن يغفر لنفسه أبدا، كان يحس أنها ليست بخير، عدم استيقاظها ليس طبيعيا، كان مسؤولا عليها هنا، أقنعها بضرورة سفره هو معها بدل والدها، و ها هو يسمح لهذه الغلطة و هذا التقصير أن يكونا، و جد نفسه يردد (يا إلهي لا تجعلها تموت، أرجوك ربي لا تجعلها تموت)

كانت الساعة تشير للرابعة صباحا عندما فتحت سلمى عينيها، هناك في الجهة الأخرى من الغرفة، كان جسد محمد ملقيا على الكرسي يبدو وجهه مرهقا جدا، رغم أنه نائم إلا أنها لاحظت تلك الهالات السوداء التي أحاطت عينيه، و ذقنه النامية، لم يسبق لسلمى أن رأتها، كان محمد يحلقها كل صباح.

أحست سلمى بجفاف في حلقها ورغبة شديدة في شرب الماء، لكنها لم تستطع مد يدها إلى الطاولة من شدة إحساسها بضعف جسدها، أرادت أن تطلب من محمد أن يسقيها لكن فمها لم يخرج منه أي صوت، حاولت بجهد أكبر ليخرج أخيرا صوت مبحوح خافت.

- محمد

رغم أن الصوت كان خافتا إلا أنها بمجرد أن نطقت اسمه، فتح عينيه مفزوعا كمن كان يترقب بين نومه و يقظته، ما إن نظر إلى سلمى ليدرك أنها استيقظت حتى هرع إليها

ـ لقد استفقت أخيرا

ـ أريد أن أشرب

أسرع محمد إلى الطاولة و سكب كمية صغيرة جدا من الماء في الكوب، وضع يده تحت رأسها و رفعه ثم قرب الكأس من فمها.

ـ اشربي رشفة فقط، الطبيب أوصى بذلك، أمعاؤك مازالت خامدة بسبب المخدر و الكثير من الماء قد يسبب لك الاختناق .

بعد جرعتين صغيرتين اكتفت سلمى، وضع محمد الكأس على الطاولة وهو يسألها :

ـ كيف تشعرين ؟

ـ جسدي كله يؤلمني و رأسي أكثر.

ـ لا بأس عليك، المهم أن العملية قد نجحت، لقد تم استئصال الورم، كل شيء سيكون على ما يرام

سكت هنيهة يطالع وجهها ثم أردف :

ـ حمدا لله على سلامتك، سأستدعي الطبيب ليفحصك .

عند السابعة جاءت جاكلين لتشرف على المريضة في بداية عملها اليومي تلقي تحية الصباح وتسأل عن حالها :

ـ كيف حال مريضتنا ؟

أنا بخير، شكرا جاكلين

ـ الطبيب سيأتي في أي وقت، ليعيد فحصك

ـ حسنا جاكلين.

استدارت جاكلين موجهة حديثها لمحمد .

ـ سيدي يمكنك الذهاب الآن لترتاح إنها بخير.

ـ شكرا جاكلين، لكنني أفضل البقاء هنا.

ـ لكنك بحاجة إلى الراحة و نحن سنهتم بها.

ـ لا بأس جاكلين سأفعل ذلك لاحقا.

نظرت جاكلين إلى سلمى موجهة كلامها.

ـ أخبريه أنك بخير، إنه هكذا منذ وقت طويل وإذا استمر على هذا النحو، هو من سيكون مريضا في غرفة أخرى.

نظرت سلمى إلى زوجها نظرة تأثر وامتنان :

ـ يمكنك الذهاب، أنا فعلا بخير.

ـ أعلم ذلك، لكنني سأبقى لست متعبا ولا أحتاج للراحة.

ـ لكنك تحتاج فعلا إلى أخذ حمام و إلى حلق ذقنك و أخذ القليل من الراحة.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه و هو يقول مازحا :

ـ ألا تعجبك ذقني.

ابتسمت هي بدورها ابتسامة عريضة وهي ترى وجهه المبتسم.

ـ إنها جميلة، لكنني أعرف أنك لا تحب إطالتها، حتى أن هذه أول مرة أراها فيها

ـ إذن يجدر بك أن تستغلي الفرصة، قد تكون هذه آخر مرة

ضحكت بقدر ما يسمح لها ألمها ووهنها و هي تجيبه :

ـ هذا لا يمنع أنه عليك أن ترتاح، مازال الطريق طويلا و أحتاجك معافى في كامل قوتك

عندما سمع محمد كلمة " أحتاجك " شيء ما اهتز بداخله، لا يدرك ما هو بالضبط، هذا الإحساس الذي اعتراه بإدراكه أنها تحتاجه و لا ترفض عونه بل تطلبه

ـ حسنا سأذهب بعد مرور الطبيب عليك

تدخلت جاكلين لحظتها في الحديث :

ـ هذا جيد كان يجب تدخل زوجتك لإقناعك

بعد ذهاب محمد بساعات، عادت جاكلين في مرورها اليومي على المرضى إلى غرفة سلمى لتقيس ضغطها و حرارتها و تتأكد من حالة الضمادات على الجرح، كانت تحدث سلمى و هي تقول :

ـ لقد توقف النزيف و الأمور مستقرة الآن، لقد اخفتنا جدا عليك، كاد زوجك يفقد عقله

ـ لماذا ما الذي حدث ؟

ـ ألم يخبرك زوجك

ـ لا، بماذا كان يفترض أن يخبرني

ـ لقد فتق جرحك و تعرض دماغك إلى نزيف داخلي و لم تستيقظي

فتحت سلمى عينيها دهشة :

ـ و ماذا حدث بعدها ؟

نظرت جاكلين إلى الباب تتأكد من ألا أحد يسمع حديثهما ثم قالت :

ـ لقد قلب زوجك المستشفى رأسا على عقب وعندها تم اكتشاف النزيف، الطبيب أوقف للتحقيق معه بعد أن هدد زوجك بمقاضاة المستشفى حتى الإفلاس، و كأن حالة الطوارئ أعلنت في المستشفى، تم إحضار طاقم طبي من أفضل الأطباء في المستشفى بالإضافة الى مدير المستشفى الذي وقف على العملية بنفسه.

زادت دهشة سلمى و هي تسمع جاكلين تواصل :

ـ تريدين الصراحة زوجك أنقذ حياتك، أنت محظوظة فعلا بهذا الرجل.

سكتت سلمى تستوعب كلمات الممرضة، كيف يمكنها أن تخبرها أنها أتعس الناس لأن هذا الرجل لا يربطها به سوى عقد زواج و التزام أمام الناس، و أن ما يفعله معها بدافع الواجب وربما الشفقة و ليس بدافع الحب.

بعد ساعات قليلة من رحيله عاد محمد إلى الغرفة، ما أن رأت وجهه و قد بانت عليه بعض الراحة حتى تهللت أساريرها و ردت مبتسمة ابتسامة عريضة مجيبة على سؤاله، أنها بخير، الجرح يؤلمها قليلا لكن الطبيب قال أن ذلك عادي لأن التخذير انتهى مفعوله و هذا من أثر الجرح، جلس على الكرسي يراقبها بينما تذكرت هي كلمات جاكلين، هذا الإحساس بالثقة لرجل يعرف جيدا ما يفعله، حتى في أحلك الأوقات، عندما سمع صوتها :

ـ أصحيح أنك هددت بمقاضاة المستشفى وإفلاسهم .

أجابها و هو يبعد ناظريه عنها و قد عادت إلى مخيلته تلك اللحظات المرهقة التي ظن فيها أنه سيفقدها و صورة الطبيب تضغط على أعصابه.

ـ لم يكن ذلك تهديدا، لو أن مكروها حدث لك، لما تركتهم يهنؤون ببقية حياتهم و لقضيت عمري في تتبعهم واحدا واحدا خاصة ذلك الطبيب الأحمق

رغم أنه لم يكن ينظر إليها حتى لا ترى غضبه، إلا أنها قرأت هذا الغضب في نبرته، لم تكن تدري أكان هذا الغضب ناتجا عن كونه رجل الأعمال الذي تعود من الناس التزامهم بعملهم، أم أن الغضب كان فعلا من أجلها و تمنت في قلبها أن يكون الجواب الثاني، رغم الصوت الذي كان بداخلها يخبرها ألا تحلم بذلك.

****

دخل طارق الغرفة ليجد زوجته جالسة على السرير تمسك رأسها بكلتا يديها، متكئة على ظهر السرير عيناها مغمضتان ووجهها شاحب، يبدو أن آلام الشقيقة قد عاودتها مرة أخرى، منذ أكثر من شهر و هي تعاني آلاما شديدة في نصف رأسها وعينها اليمنى، لم تكن يوما ممن يعانون من هذا الألم و لكن ما يفعله بها زوجها خلف هذه الآلام التي يراها، لكنه لا يرى ذلك الألم الذي يجتم على روحها منذ اكتشفت أنها ليست المرأة الوحيدة في حياته .

ـ أعادت إليك الآلام من جديد ؟

فتحت عينيها تطالعه في فتور و قد تهاوت ذراعاها على جانبيها

ـ و ما يهمك أنت إن كنت أتالم أو أتعذب؟

اقترب من السرير و جلس على حافته

ـ أنت تفعلين ذلك بنفسك، تريدين تعذيب قلبك دون مبرر

لولا هذا الألم الذي يكاد يقتلها لانفجرت ضاحكة في وجهه لكنها لم تكن قادرة و ردت ساخرة :

ـ أعذب نفسي، لأنني أتخيل أنك تخونني، بينما أنت لا تفعل

ـ أخبرتك عدة مرات أنني لا أفعل، أنا لم أصل مع أي امرأة أخرى إلى ذلك الذي يدور في عقلك.

انفجرت بصوت مبحوح أنهكه الوهن :

ـ هل يجب أن تصل إلى العلاقة الحميمية مع أخرى حتى تعتبر نفسك خائنا، ألا تعلم أن نظراتك لامرأة أخرى خيانة، أن لمساتك لامرأة غيري خيانة، ألا تعلم أن تقبيلك لامرأة أخرى و ضمها إلى صدرك خيانة تقتلني بها، ألا تعلم أن كلمات الغزل التي تبثها في أذن امرأة غيري خيانة .

تكسر صوتها و هي تنطق بهذه الكلمات، لم تعد قادرة على الصبر، لم تعد قادرة على الكتمان لم تعد قادرة على ادعاء القوة و الكبرياء.

ـ إنها مجرد نزهات و سهرات لا تعني شيئا بالنسبة لي

جاءه صوتها باكيا و قد انهارت غير قادرة على كبح ألمها أكثر :

ـ لكنها تعني بالنسبة لي، تعني أنني لست امرأة كاملة في نظرك، تعني أنني لست قادرة على ملئ دنياك كما تملأ أنت عالمي رغم قسوتك و رغم مرارة وجودك في حياتي، تعني بكل بساطة أنك لا تحبني، لأن الذي يحب لا يغرز سكاكين الغدر في قلب من يحبه .

بالرغم منه كانت كلماتها تشعره بألمها، تجعله يتأثر بوجعها، شيئ ما أنذره بالخطر، انقبض قلبه لا يدري لما، لكنه لم يكن قادرا على تكذيبها و اخبارها بأنه يحبها، رغم هذا الوجع العجيب الذي يسكنه الآن لوجعها، لكنه رجل لا يعرف الحب و لا يعترف به، الحب ضعف وهو لم يكن ضعيفا، هو رجل يشتهي أن يقطف من كل بستان زهرة دون أن يورط نفسه في شيء، هكذا اقتنع منذ زمن و هكذا اتخد طريق حياته .

سمع صوتها من جديد يقطع صمته، صوت موجوع و هي تضغط على كل كلمة من كلماتها :

ـ أتمنى أن تعاني يوما بقدر الألم الذي جعلتني أعانيه، أتمنى أن يعرف الحب طريقه إلى قلبك لن أكون أنا هذه المرأة، لكنني أتمنى من كل قلبي أن تعشق امرأة حد الإحساس بالرغبة في الموت، لأنها لا تبادلك الحب، أتمنى أن تحب امرأة قاسية يحييك حبها في لحظة و يقتلك في اللحظة التي بعدها، فيختلط لديك شعورك بالرغبة في تملكها حبا و قتلها كرها، لأن هذا ما يفعله بي حبك، أتمنى أن يسكنك

الوجع الذي أسكنتنيه، لتعرف معنى الذل و الهوان، أتمنى أن تفتح عينيك يوما لتجد نفسك عاشقا لامرأة مصنوعة من نار و جليد ليحرقك لهيبها و يجمدك جليد مشاعرها .

أمعنت النظر إلى عينيه تقذفهما بنار أمنياتها المحرقة، أغلقت عينيها و تمددت على سريرها وهي تقول في فتور :

ـ دعني أنام الآن

بقي ينظر إليها و إلى شكلها المتهالك و رغما عنه انقبض قلبه يرثي لحالها، قسوته أوصلت هذه المرأة الى الرغبة في الموت، لأنها لا تستطيع النفاذ من براثن حبه و من الرغبة في قتله حبا على يد امرأة أخرى، منذ متى أصبح قاسي القلب هكذا ؟ منذ متى و هو يعذبها و لا يرأف بحالها ؟ رغم أنها لم تفعل شيئا استحق ما يفعله بها، رفضت أن تنصاع له عندما لم يكن زوجها، لكنها أعطته كل شيء و هو زوجها، فلماذا لا يطلق سراحها من سجنه ؟ لماذا لا يغفر لها إذا كان غير قادر على منحها ما تستحق ؟

وقف و استدار خارجا تحس هي بخطواته و لا تسمع إلا نحيب قلبها الذي كان يبكي رجلا ما عرف يوما قدرها و لا قدر هذا الحب الذي تحمله له في قلبها .

****

تعبت أحلام و تدمرت أعصابها، لم تعد قادرة على الاحتمال، جمعت بعض ملابسها و ذهبت إلى بيت أهلها تاركة له ورقة كتبت عليها (والدتي مريضة سأبقى عندها بضعة أيام) كانت هذه كذبة، لكنها كانت بحاجة للهرب من هذا العذاب ولو لبضعة أيام، تكاد تفقد عقلها في التفكير في حل لهذه المشكلة، كيف يمكنها الهرب من هذا السجن الذي سعت هي إليه، عندما هددته بالعودة إلى أهلها و طلب الطلاق، أشهر خنجره القاتل في وجهها (لو فعلتها سأخبر والديك و زوج شقيقتك، الأوراق التي تركتها لوالدتي عندما رحت تهددينها، مازالت بحوزتي لتثبت كلامي، سأدمر عائلتك أيتها الساقطة، ألست أنت من رغبت بهذا الزواج، ستعيشين زوجة لي إلى أن أقرر أنا، أني ما عدت بحاجة إليك، عندما أكتفي من الانتقام منك ساعتها ربما سأفكر في تركك ترحلين)

عندما دخلت إلى بيت أهلها عاد بها الحنين إلى أيام كانت تعد فيها من البشر، كان لها بيت وعائلة، كان لها أحلام و طموح، اليوم فقدت عائلتها لأنها لم تعد قادرة على مصارحتهم بما يختلج في صدرها، أو بتلك النار التي تأكل داخلها، لم تعد قادرة على الشكوى، لم يعد لها بيت لأن ما يظن الناس أنه أصبح بيتها الآن هو سجنها، ما عادت تحلم و لا تطمح، أصبحت أسيرة خطأ ارتكبته في لحظة غفلة منها جرت بعدها لحظات من الألم لا تتوقف، ارتمت في حضن والدتها غير قادرة على منع دموعها، ارتعبت أمها من بكائها و من شكلها، لقد نحل جسدها، راحت تسألها إن كان زوجها يسئ لها، لكن أحلام هبت تنفي ذلك و تؤكد لها أنه الشوق إليها فقط ما يبكيها .

عندما رآها طارق أدرك بمجرد نظرة أن شقيقته تدفع ثمن سوء اختيارها.

ـ لقد حذرتك من أنك ستندمين.

رفعت رأسها محاولة تفنيد ذلك.

ـ لست نادمة أنا سعيدة بحياتي معه.

نظر طارق إليها متفرسا تلك الخطوط التي ارتسمت على وجه أخته

ـ هل هذا وجه عروس سعيدة، هل اكتشفت أخيرا أنك غير قادرة على تغييره، لقد أخبرتك بذلك لكنك أصريت بحمق النساء الذي تتمسكن به أنتن، أنك تستطيعين تغييره والآن تصطدمين بحقيقة أن ليس هناك رجل يتغير من أجل امرأة .

صمتت أحلام و داخلها يتألم غير قادرة على مجادلة شقيقها، لم تعد لديها القوة على المقاومة حتى بمجرد الحديث.

جلس بجانبها على حافة سريرها ينظر إليها في شفقة، أين ذهبت تلك الروح التي كانت تزين وجهها، أين ذهبت أخته التي كانت تملأ المكان حياة و سرورا.

ـ يمكنك التراجع، لست مجبرة على البقاء معه، إذا أردت الانفصال عنه سأقف إلى جانبك سأقنع والدي بذلك و أطلقك منه .

نظرت إليه في حب و هي تدرك أن هذا الرجل كان يمكن أن يكون سندها، تخيلت لو كانت أخبرته بما حدث و تساءلت أكان سيجلس معها هذه الجلسة و يعلن لها عن مساندته لها أم كان سيقتلها ليغسل شرف عائلته الذي لطخته بفعلتها، تغيرت نظرتها و هي تتذكر أنه هو الآخر يتلاعب بالنساء و يعذبهن، أكان شقيقها مثل زوجها نسختين لعملة واحدة، أكانت علاقته مع نسائه مجرد علاقات عابرة أم أنه كان يصل معهن إلى أبعد من ذلك، أسبق لشقيقها أن اغتصب امرأة، استبعدت هذه الفكرة و هي تؤكد لنفسها أن شقيقها ليس حيوانا ربما هو يتلاعب و يلهو لكنه لا يصل إلى ارتكاب الفاحشة في النهايه أخوها كان رجلا لا يشرب الخمر و يدرك أن الزنا من الكبائر، توقف تفكيرها لحظة و هي تتذكر فعلتها، أتراها ارتكبت الزنا، لا لقد اغتصبها، هي لم تسلم نفسها له، ذلك الحيوان اغتصبها، لكن ما سبق ذلك هو الذي جرها إلى ما هي فيه اليوم، هي أيضا كانت مخطئة منذ البداية، أتراه عقابها عما كانت تفعله غافلة، لو أن الأيام تعود بها لقبل تلك اللحظة التي دمرتها، لو ماتت قبل أن يأتي عليها ذلك اليوم .

سمعت صوت شقيقها يخرجها من ذهولها.

ـ ألهذه الدرجة هو سيء ؟

رسمت ابتسامة مرغمة على شفتيها و هي تطمئنه و تحاول تبديد شكوكه :

ـ هو ليس سيء، إنه رجل فقط ككل الرجال، أنا فقط مريضة بعض الشيء معدتي ملتوية منذ بضعة أيام أرجع ما أبتلعه، لهذا أبدو بهذا الشكل السيء، لا تقلق .

وضع يده على كتفها و هويقول :

ـ لا تنسي أبدا أن لديك أخ مستعد للوقوف بجانبك متى ما احتجت إليه، إشارة منك فقط وستجدينني أمامك، أنا شقيقك الأكبر أحلام و يمكنك الاعتماد على حمايتي، لا تظني أن تورطك بهذه الزيجة يمنعك من الخروج منها متى ما اكتشفت أنها لا تناسبك، بيت والدك سيبقى دائما مفتوحا لكِ و أخوك الوحيد سيبقى دائما سندا لكِ .

كانت هي تمنع دموعها من النزول في تأثر لم يخفَ على طارق

ـ شكرا لك طارق

خرج من الغرفة لتنهار هي على السرير باكية، لماذا أضاعت كل هذا ؟ لماذا لم تدرك يوما أية منة منحها الله لها ؟ عائلة تحبها و تساندها، لماذا خانت هذه الثقة و أضاعت شرف هذه العائلة ؟ لماذا ورطت نفسها حيث لم تعد قادرة على العودة إلى الوراء ؟

سمعت صوت زوجها بالخارج فارتعد جسمها ما الذي جاء به تمالكت نفسها و مسحت دموعها ثم خرجت مسرعة لتقابله

ـ لماذا أتيت ؟

ضحك هو بصوت مرتفع يخفي استهزاءه الذي لم يره أحد سواها.

ـ جئت آخذ زوجتي، أنت تعرفين أنني لم يعد بإمكاني تمضية ليلة بدونك، استعدي يا زوجتي العزيزة للعودة إلى قفصنا الذهبي

لم يقرأ أحد غيرها ما بين سطور جملته، كان تهديدا واضحا و تذكيرا لها بوعيده

أحنت رأسها متقدمة إلى غرفتها منصاعة لطلبه، لم يعد لها من مفر، قدرها أن تموت كل ليلة على يديه كروح شريدة لا تجد طريقها لا إلى الجنة و لا حتى إلى النار، قدرها أن تبقى سجينة روحه المريضة التي تنتقم منها شر انتقام تذيقها أسوأ أنواع العذاب كل ليلية، دون أن ينسى وأو يغفل عنها ليلة واحدة .

****

بعد مرور أسبوع كانت سلمى تأكل و تتحرك و تخرج في نزهات خفيفة إلى حديقة المستشفى على الكرسي المتحرك مع الممرضة و أحيانا كثيرة مع زوجها، اكتشفت خلال هذه النزهات محمد الذي لم تعرفه من قبل تحدثا في مواضيع شتى وحدثها يوما عن والدته.

ـ كنت في الثالثة من عمري، لا أذكر موتها و لا أذكرها هي، أرسم صورتها في مخيلتي، من صورها الموجودة في المنزل و من حديث والدي عنها، أكثر ما يؤلمني في العالم أنني لم أعرفها يوما، لا أستطيع أن أحدث أحدا عنها لأن كل ما أعرفه لم أعشه معها، لا أستطيع أن أعود الى ذكرياتي كلما اشتقت إليها، لأني لا أملك معها ذكريات و كم يحدث ذلك لي، كم أشتاق إليها، أتدركين ما معنى أن يمر عمرك في

الاشتياق لشخص لم تعرفيه و لن تعرفيه وأنت على يقين أن هذا الشوق لن ينطفئ يوما .

عندما سكت محمد لم تجد سلمى ما تقوله، دون شعور منها وضعت يدها على كفه تواسيه عندما استدار وابتسم لها يخفي حزنه و هو يضيف :

ـ لا أمل لي إلا في لقياها في الجنة لعلّ شوقي لها سينطفئ أخيرا

سكت هنيهة ثم أضاف :

ـ هذا إن كنت من أصحاب الجنة !

ابتسمت و هي تضغط على كف هذا الرجل الجالس بجانبها و لكم تمنت لحظتها لو تضمه إلى حضنها، لعلّ حضنها يروي شيئا من عطشه، لعله يعثر بين أضلعها على حب لم يعرفه يوما لعلها يمكن أن تكون له الأم و الحبيبة، تساءلت في نفسها ألهذا هو رجل لا يضحك إلا نادرا ألأن الحزن يسكنه، أحقا فاقد الشيء لا يعطيه، أيعقل أن هذا الرجل الذي لم يعرف حب والدته لا يمكنه أن يحب امرأة .
اكتشفت خلال جلساتها و أحاديثهما أن محمد ما كان ذلك الرجل المغرور الذي ظنته، بل كان ذلك الرجل المكسور بجرح يتمه، هي تدرك أن والده أغدق عليه الحب، لكن لا حب يضاهي حب الأم، الأم هي مدرسة الحب الأولى و هو ما دخل يوما هذه المدرسة و لا نهل من دروسها كل يوم كان يمر عليها، كانت تدرك فيه خطأها لأنها أغلقت الباب في وجهه دون أن تحاول أن تعرفه أو تفهمه .

****

وصل طارق إلى البيت، فتح الباب و دخل، اصطدم بظلام حالك، على عكس عادة لبنى التي تعودت أن تترك له ضوءا خافتا، حتى لا يتعثر، أنار ضوء الصالة نزع بزته حملها على ذراعه و فتح باب غرفته، فوجئ بالغرفة فارغة لا أثر للحياة بها و السرير مرتب، خرج متجها إلى المطبخ، أنار الضوء لكنه كان خاليا كذلك، قصد غرفة الضيوف ثم الغرفة الثانية لكن لا أثر للبنى، نادى عليها بصوت مرتفع يتوقع خروجها إليه بمجرد سماع صوته، لكن لا حياة لمن تنادي، كانت الساعة تتجاوز منتصف الليل و زوجته ليست بالبيت، لا يعرف أين هي، لم تترك له أي خبر تعلمه بعدم مبيتها في البيت و لم تترك أية رسالة .

أحس فجأة بانقباض قلبه و تسارع خفقاته، تزاحمت الأفكار في عقله، أين يمكن أن تكون، عند والديها، لماذا لم تعلمه بأنها ستبيت عندهما، أو ربما ذهبت لزيارة شقيقتها، لكن دون إخباره غير معقول فهي و رغم توتر العلاقة بينهما تخبره إذا باتت عند أهلها أو تأخرت عندهم

أخرج هاتفه و اتصل بها لكن هاتفها كان مغلقا، بدأ القلق يستبد به، أين يعقل أن تكون زوجته

فجأة أحس بنبضة من نبضات قلبه تتخلف عن موعدها، أيعقل ان يكون قد حدث لها شيء، عاود الاتصال مرارا و تكرارا، لكن بدون جدوى، بمن سيتصل في هذا الوقت المتأخر من الليل، لا يمكنه إزعاج والديها في هذا الوقت و إثارة الرعب

بداخلهما، هل سيتصل بزوج شقيقتها " عماد"، نظر إلى ساعته تسع و ثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل، لا بد أنه و زوجته نائمان، جلس على أريكة صالة الضيوف يفرك يديه قلقا يفكر بمن سيتصل و بما يمكن أن يكون قد أصاب زوجته، حتى تبيت خارج البيت دون إعلامه، عندما وقعت عيناه على الورقة المطوية على الطاولة تلقفتها يده يفتحها بسرعة يقرأها مسابقا لحروفها

(أكتب هذه الرسالة إليك و لا أعرف بما أناديك

لقد كنت زوجي، لكنك لم تمثل لي يوما ما يمثله الزوج لزوجته، الزوج دفء، حب و احتواء، الزوج عطف و تفهم و سكينة، و أنت لم تكن يوما لي شيئا من كل هذا .

أتخيلك الآن تدور في أنحاء البيت كالثور الهائج تبحث عن أسيرتك، لكنني لست هناك، لقد رحلت، أنت لم تؤمن يوما أنني قادرة على فعلها لكنني فعلتها .

لقد رحلت عنك إلى نفسي .. سأنساك وأتذكرني لأنني قررت أن أحب نفسي، فهي تستحق ذلك أكثر منك، سأتركك لنسائك، لكنني أريدك أن تعلم أنك لو عشت ألف عمر بعد عمرك وعرفت ألف امرأة في كل عمر، فلن تجد امرأة تحبك مثلما أحببتك، لقد منحتك كل ما أملك، أعطيتك قلبا عشقك و روحا هامت بك و عقلا جن بك و لم تعطني أنت إلا الوجع و الألم و الذل والمهانة .. دعني أخبرك أنك رجل أناني أخذت و أخذت و رفضت يوما أن تعطي، رجل خائن لأن الخيانة يمكن أن تكون في كلمة أنا أحق بها من امرأة غريبة عنك، يمكن أن تكون بنظرة شوق تحرمها عن زوجتك لتلقي بها هنا و هناك تصطاد بها نساء أخريات، يمكن أن تكون بلمسة اشتاق لها عمري معك و أنت توزعها على نساء في شباكك عالقات،

يمكن أن تكون كل لحظة قضيتها ترسم شباكا لنساء في بحورك غارقات، بينما كنت أنا أحترق أمامك أذوب و أنطفئ و أنت غير آبه بموتي، أنا اليوم انتفضت من تحت الرماد رافضة الموت بسهام غدرك.

سأنساك، نعم سأنساك ثم أعود لأنظر في عينيك و أنا أطلب الطلاق، لأني ساعتها سأكون قد انفصلت عنك، ستكون روحي قد شفيت منك و عافتك، سأعيش بعدك و سأحب بعدك، لأنني أستحق أن أعيش مع رجل يبادلني الحب و التقدير .

لقد سكنتني في غفلة من كبريائي الذي سجنته، لكنني اليوم أسترد منك كرامتي و كبريائي، ستستفيق أنت يوما لتبحث عني، لكن الوقت سيكون قد فاتك لأنني سأكون قد نسيتك .

(إمضاء أنثى ظننت غافلا أنك ملكتها و جعلتها امرأتك)

لم يكن طارق يصدق الكلمات التي كانت تلج إلى داخله تمزق أحشاءه كمشارح جراحة صغيرة لكنها حادة جدا، قاطعة تدمي داخله، إنهار على الأريكة و لم تعد قدماه قادرتان على حمله، لقد فعلتها لطالما هددته بها، لكنه كان يعلم أنها غير قادرة على تنفيذ تهديدها، كانت أضعف من أن ترحل لتعيش بعيدة عنه، لكنها فعلتها.

التقط مفاتيح سيارته و خرج مسرعا من البيت، قاد سيارته بسرعة جنونية متجها إلى بيت شقيقة زوجته.

كان الجرس يرن دون توقف عندما أفاقت لامية و زوجها عماد.

ـ ما هذا ؟

ـ يبدو أنه زوج شقيقتك.

ـ الآن فقط أفاق و لاحظ رحيلها ؟

ـ ابقي هنا و لا تخرجي من الغرفة.

خرج عماد و فتح الباب، أبعده طارق بيده مقتحما المنزل.

ـ أين زوجتي ؟

ـ أضعت زوجتك وجئت تبحث عنها في بيتي

نظر إليه طارق شزرا ؟

ـ أين زوجتي ؟ أخبرها أنني هنا

أجاب عماد بهدوء يعاكس اضطراب الموقف :

ـ زوجتك ليست هنا.

نظر طارق إليه و قد اتسعت عيناه و احمر وجهه غضبا :

ـ هل هي عند والديها ؟

سمع صوت لامية التي ارتدت ملابسها و خرجت إليه :

ـ ليست هناك، لقد رحلت بعيدا حيث لا يمكنك إيجادها

خطا طارق متقدما إلى لامية و الغضب يعمي بصيرته، لكن عماد أوقفه بكلتا يديه مرجعا إياه إلى الخلف.

ـ إلى أين تظن نفسك ذاهبا هكذا ؟

توقف طارق و هو يهدر نفسا حارا كفحيح النار:

ـ قل لزوجتك أن تخبرني بمكان زوجتي

ـ هي لا تعرف مكانها

نظر طارق و هو يصك على أسنانه

ـ و تظنني أصدق ذلك!

جاءه صوت لامية قاطعا :

ـ نعم أعرف و لكن لن أخبرك، لقد تخلصت منك، أخيرا و جدت الشجاعة لتهجرك و هذه المرة صدقني لن تعود ولن تعرف أنت طريقها.

استدار طارق إلى عماد .

ـ أخبرني أين هي يا عماد.

ـ لا أعلم، لم تخبرني .

نقل طارق نظراته بين الاثنين غير مصدق لما يحدث له ثم قال :

ـ سأجدها، أخبراها أنها لو دخلت في جوف الأرض فسأصل إليها

ثم استدار منصرفا .

في الأيام التي تلت بحث طارق عن لبنى في كل مكان تخيله، عند والديها، في مكان عملها، في الفنادق، عند أقاربها، راقب بيت شقيقتها و بيت والديها، ثم اتصل بالمستشفيات لعلها غيرت مكان عملها لكن بدون جدوى، كان يفقد عقله رويدا رويدا، بدأ الخوف يكبر بداخله واليأس يسكنه، أين اختفت زوجته، اتجه إلى بيت والديها مرة أخرى يلح عليهما أن يخبراه بمكانها لكن دون جدوى، اقتحم بيت شقيقة لبنى مرات عديدة، هدد و توعد لكن بلا نتيجة، لا حياة لمن تنادي، اختفت زوجته، تركته لبنى، تركته امراته و رحلت عنه، كل ذلك و هو يقنع نفسه أن شعوره لا يتجاوز الحنق و الغضب لأن زوجته خرجت من حياته دون إذنه، لكن مع مرور الوقت دون أن تظهر و بعد كل ذلك التوثر و الضوضاء أدرك الواقع بصمت رهيب يطبق على دواخله، استخرج الرسالة من جديد و راح يعيد قراءة حروفها بتأنٍ هذه المرة، ليصل إلى الحقيقة الصادمة لقد أضاعها، أضاع زوجته، المرأة الوحيدة التي أحبته بصدق، المرأة الوحيدة التي عنت له شيئا في حياته رغم أنه لم يدرك ذلك إلا بعد أن فقدها .

****

كان الجرح في رأس سلمى قد التأم و قرر الطبيب بداية العلاج الكيميائي، في أول يوم لها كان الأمر صعبا جدا و الألم يعتصرها، حاولت مقاومته لكنها استسلمت في الأخير للبكاء، وقف محمد مسرعا متجها إليها :

ـ ما بك سلمى ؟

ـ الألم يكاد يقتلني، أريد مسكنا للألم أرجوك محمد أطلب منهم أن يعطوني أي شيء يوقف هذا الألم

امسك محمد يدي سلمى ينظر إلى عينيها المتوسلتين

ـ عزيزتي لقد أعطوك مسكنا، كل ما في الأمر أنه سيأخذ بعض الوقت ليبدأ مفعوله

ـ لكنني أتألم و لم أعد أطيق هذا الألم، أطلب منهم أن يعطوني شيئا آخر، أرجوك محمد، أرجوك

لم يستطع محمد تحمل نظراتها و لا دموعها المتساقطة و هو يعلم أنه لا يستطيع شيئا من أجلها الآن، فشدها من يديها و قربها إليه يحتضنها برقة و هو يقول :

ـ لا بأس عزيزتي، سيتوقف الألم لا بأس عليك

رغم شدة الألم و رغم الحالة التي كانت عليها، إلا أن ذلك لم يمنعها من الالتصاق بحضن زوجها و ضمه بشدة كأنها تمنعه من التراجع و هي تفكر بأن هذه أول مرة

يضمها محمد إلى حضنه و ما أجمل حضنه الدافئ، وجدت نفسها تشكر هذا الألم الذي جعلها تتعرف على حضن زوجها أخيرا .

بدأ مفعول المسكن يعمل، حينها استسلمت للنوم و هي لا تزال في حضنه تضمه بقوة، عندما حاول نزع يديها عنه ليمددها في سريرها أحس بمقاومتها رغم عدم وعيها، لكن المخدر جعل قبضتها تضعف .

و هي ممددة على سريرها كان ينظر إليها في تأثر ثم وضع قبلة على جبينها و خرج ليجري مكالماته الهاتفية

عندما استيقظت سلمى بقيت تنظر أمامها دون النظر إلى شيء محدد، لم يكن محمد موجودا بالغرفة، لكنها تذكرت أنها البارحة غفت في حضنه، تذكرت أنها كانت تبكي كطفلة صغيرة من الألم و تتوسل إليه، تذكرت أنه ضمها إلى حضنه كما يضم الوالد ابنته لإسكاتها، تذكرت كم كان حضته دافئا، واسعا و رائعا .

تكررت جلسات العلاج الكيميائي و تكررت نوبات الألم و البكاء لدى سلمى و لم يكن محمد يجد ما يفعله سوى ضمها حتى تنام في حضنه، بدأ شعرها بالتساقط و شهيتها تنقص، تحس بطعم النحاس في لسانها و لم تعد تستطعم الأكل، تأتيها نوبات ألم في بطنها من الإمساك، حالتها تشتد صعوبة و جسمها ينحل، كان الأطباء يطمئنونه أن الوضع عادي و أنها ستستعيد كل ما فقدته عندما يتم شفاؤها، لكنه كان قلقا جدا عليها .

ذات ليلة كانت الآلام شديدة و حالتها النفسية سيئة جدا، جالسا على سريرها و رأسها ملقى على ركبتيه ممسكة هي بيده بقوة حتى غفت أخيرا، عندما حاول سحب يده ليمددها على سريرها وينزل، تمسكت به أكثر و كلما حاول مجددا ضمت يده إليها أكثر.

فتحت سلمى عينيها و هي بين النوم و اليقظة ثم قالت له في صوت خافت متثاقل :

- لا تتركني أرجوك، ابقى معي لا أريد أن أبقى وحدي.

ثم أغمضت عينيها و نامت من جديد

لم يكن محمد يدرك أكانت واعية أم نائمة ما يجدر به فعله، لكن وخشية ايقاظها بقي هناك يتوسد رأسها ركبتيه و تمسك يدها يده.

في الصباح عندما استيقظت سلمى كانت الساعة تقارب السادسة، أول ما شعرت به هو اليد التي تحتجزها بين يديها، ثم الجسم الصلب الذي تحت رأسها أدارت وجهها لتجد محمد مستلقيا على قائمة السرير مغمض العينين في وضعية تبدو غير مريحة، مسلما صدره لتستعمله وسادة ابتسمت و هي تطالع وجهه الحبيب و تدرك أنها قضت الليلة معه في سرير واحد، لقد جمعهما أخيرا سرير واحد كزوجين حقيقيين، رغم أنه لم يحدث شيء بينهما، لكن على الأقل أصبحت الآن تنام في حضنه و لقد اقتسما سريرا واحدا، لولا شدة هذا المرض و قساوته لاعترفت أنها بدأت تحبه و سعيدة به لأنه قدم لها حضن محمد هدية، و هي تنظر إليه مبتسمة،

فتح هو عينيه ليجدها تكاد تكون بين ذراعيه وجهها بهذا القرب من وجهه، طالعها في قلق ربما قد تفهم شيئا آخر فقال محاولا تفسير الوضع :

ـ لقد نمت البارحة و أنت تمسكين بيدي و لم أستطع سحبها و يبدو أنني غفوت

أدركت سلمى حرج زوجها فأجابت مبتسمة أكثر

ـ أتذكر ذلك .

ثم بعد هنيهة أضافت

ـ شكرا لك محمد شكرا لأنك هنا

كان الزوجان ينظران إلى بعضهما، كل غارق في عيني الآخر عندما استفاقا على صوت جاكلين المشاغب :

ـ يبدو أنني جئت في وقت غير مناسب

بدا الارتباك على ملامح محمد و لم تستطع سلمى منع انفراج شفتيها بابتسامة أوسع و هي ترى ارتباكه و إحراجه، محاولا هو بصعوبة سحب رجليه من تحتها و النزول أرضا، فعدلت جلستها حتى يتمكن من ذلك، كانت تشعر بسعادة عارمة تجتاحها و لم يخالجها أي شعور بالخجل أو بالانزعاج، إنه زوجها و لا أحد يمكنه أن يعيب عليها أنها نامت في حضنه و حتى إن فعلوا، لا أحد يمكنه أن يطفئ الفرحة التي تشتعل بداخلها الآن، لا أحد .

ـ صباح الخير جاكلين

قالها متحرجا منسحبا من الغرفة.

نظرت الممرضة إلى سلمى في لؤم و هي تقول بعد أن ردت التحية على محمد :

ـ صباح الخير يبدو أن ليلتك كانت مريحة

أجابت سلمى و هي تضحك :

ـ جدا جاكلين، صباح الخير

ـ لقد بدا لي ذلك، وجهك يشع هذا الصباح !

ابتسمت سلمى دون أن تجيب، لم يكن ضروريا أن تخبر الممرضة أن لا شيء مما يدور في عقلها حدث، يكفي أنها سعيدة و كفى .

خرج هو يحك شعره في اضطراب واضح و هو يفكر كيف ستمر عليه هذه الأيام، بل الأسابيع القادمة و العلاقة بينهما بدأت تتطور، لقد استطاع تجنبها في أرض الوطن لأنه كان بالكاد يقابلها، لكن الآن هو يأخذها كل يوم في حضنه حتى تنام، و البارحة نام معها في سرير واحد و ما هو إلا رجل ضعيف لا يستطيع صدها و هي مريضة و لا يضمن قدرته على التحمل وهي بهذا القرب .

دخل طارق منزله يشاهد صورها التي علقها على جدران البيت، كأنه يعاقب نفسه و كأن عقابها هي له بتركه لم يكن كافيا، يرى صورها في كل زاوية من البيت و كأنه

لم يكفه وجود روحها في كل زاوية من زوايا عقله و قلبه، يريد أن يعاقب نفسه لأنه تركها تنساب من بين يديه قبل أن يدرك أنها سكنت حنايا روحه، يتذكرها تفتح الباب له تستقبله بابتسامة طفل رأى أمه، تعاتبه بعينين صامتتين على مايفعله غروره بقلبها، تستجدي اهتمامه في دمعات جامدة تمنعها من النزول أمامه، في آثار بكاء تتركه ينساب في غيابه و تخفيه و تسكته في حضوره، في يأسها الذي ألبسته ثوب الصمت، يعاقب نفسه و قد هده رحيلها و أطفأ بعدها أنوار عمره، كيف ينسى و قد أدرك منذ رحيلها أنه تعلم الحب على يديها، كيف ينسى و قد أحس برحيل روحه برحيلها، كيف ينسى و قد أدرك أن دنياه أضحت أرملة بعدها و عمره أصبح يتيما برحيلها، كيف ينسى و كل دقة في خافقه تنادي باسمها و كل نفس من أنفاسه يهرب من داخله بحثا عنها .

بعد أن هده الألم قرر الذهاب إلى الورشة لتفقد الأشغال هناك، لعل العمل يساعده على النسيان و لو لساعات قليلة، داخل الورشة حاول شغل نفسه عن التفكير فيها بالعمل .

كان طارق يتفقد الورشة منذ سفر محمد و ضغط العمل كله عليه، برغم وجود والد محمد لكنه لم يكن يتعبه كثيرا في الورشات، ثم جاء هروب لبنى و خروجها من حياته ليهده .

فجأة أحس بدقات قلبه تتسارع و المكان يضيق من حوله و كأن المكان خلا فجأة من الأكسجين، يغالب نفسه لاستنشاق الهواء الذي لا يصل إلى رئتيه، ألم شديد في

ذراعه، بدأ في إصدار صوت يشبه الزئير المكتوم يصارع محاولا إيصال الهواء إلى رئتيه و أحس بعدها بفراغ رهيب

****

دخل محمد على سلمى تعلو وجهه علامات القلق.

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد تعرض طارق لأزمة قلبية

وضعت سلمى يدها على فمها تكتم صرختها عندما سمعته يضيف :

ـ لقد تم نقله للمستشفى

ـ و لكن ما الذي حدث له لطالما كان بصحة جيدة

ـ منذ تركته لبنى و حاله يسوء و ها قد انفجر و كاد قلبه يتوقف

سكت محمد هنيهة ثم أضاف :

ـ عليّ أن أسافر لرؤيته و الاطمئنان عليه، كما يجب أن أنظم العمل مع والدي في غيابه وأوزع المهام هناك على الموظفين حتى أستطيع العودة .

ردت سلمى بتفهم :

ـ هذا أكيد، أنا الآن بخير و يمكنني البقاء وحدي

ـ لا، لقد اتصلت بياسمين و طلبت منها المجيء للبقاء معك إلى حين عودتي، والدتها وافقت وقد حجزت لها و اهتممت بظروف إقامتها هنا .

ـ ياسمين ستأتي إلى هنا ؟

ـ نعم

ـ حسنا إذن اذهب و لا تنس الاتصال بي لطمأنتي

سأفعل

ـ رافقتك السلامة

ـ اهتمي بنفسك جيدا إلى حين عودتي

ـ لا تقلق سأفعل

****

كان محمد جالسا مع طارق ينظر إلى تحول حال صديقه بعد أن هجرته زوجته وهو كالمجنون يبحث عنها في كل مكان دون جدوى.

ـ يجب أن تستعيد حياتك يا صديقي المرأة خرجت من حياتك، انسها كما نسيتك

حول طارق ناظريه إلى محمد الذي رأى فيهما انكسارا لم يعهده من قبل عند صديقه

ـ لا أستطيع يا محمد، غيابها يقتلني لم أعد قادرا على الحياة و أنا أعلم أن كل يوم يمر يساهم في إخراجي من قلبها الذي سكنته يوما، أشعر بهزيم الريح بداخلي وكأنني صنم من نحاس أو طين يملأه الخواء، أصبحت أخاف من وحدتي وقد تركتني لليتم بعدها، توجعني ذكرياتها ويمزق أحشائي حضورها برغم غيابها، أشتاقها و يؤلمني شوقي إليها، يذبحني الحنين إلى رؤية وجهها وسماع صوتها، كيف استطاع قلبها أن يقسى، كيف طاوعها حنينها....

سكت هنيهة ثم أردف بعدها :

ـ أعلم أني أنا من دفعتها إلى ذلك و لكن قلبها كان حليفي، روحها كانت ملكي، كيف استطاعت أن تقتلعني من داخلها و تدمي جراحاتي دون أن تلتفت وراءها

لم يكن محمد يصدق هذا الذي حدث لرفيق عمره، ذلك الطارق الذي لم تهزه امرأة من قبل، ذلك الفتى الذي كان يعيش الحياة بطولها و عرضها، ذلك الرجل الذي طالما ذابت النساء بين يديه، يتحرك قلبه أخيرا لامرأة هجرته و أوصدت باب قلبها في وجهه، لترديه أسيرا لشوقه لها، كسير حبه لها .

ـ عليك أن تفعل يا طارق، لقد عهدتك رجلا لا تهدك امرأة فأين هي قوتك

ـ ذهبت معها يا محمد، ذهبت عندما أدركت متأخرا أنني أعشقها، عندما أدركت أن سعادتي كانت بين يدي و لكنني أضعتها، تركتُ براءتها و عفتها و ذهبتُ أبحث

عن متعة مطاردة غيرها، ظننت حبها لي يأسرها و يمنعها من الرحيل، لكنها كسرت قيوده و رحلت دون أن تلتفت إلى الوراء، أعلم أنها هددتني بذلك مرارا، لكنني لم أتوقع أنها ستفعل، لقد نجحت يا محمد في الخروج من حياتي .

وضع محمد يده على كتف صديقه و هو يقول :

ـ أعلم أن الأمر صعب يا رفيق، لكنك يجب أن تتغلب عليه، أنا لا أطالبك بنسيانها بين عشية وضحاها، لكن ضعها في ركن من قلبك و قاوم لتواصل حياتك و يوما ما ستتمكن من النسيان

أخرج طارق تنهيدة طويلة كفحيح النار التي تحرق داخله

ـ ليتني كنت أقدر يا محمد، ليتني كنت أستطيع

****

كانت ياسمين جالسة مع سلمى في غرفتها بالمستشفى، عندما وصلت كان اللقاء حارا و مؤثرا بكت فيه الفتاتان حرقة و سعادة، فوجئت ياسمين بشكل صديقتها، لقد هزل جسدها و سقط شعرها، لم تعلق على ذلك لكنها لم تستطع منع دموعها، أخبرها محمد أن تحضر نفسها لذلك حتى لا تظهر عليها الصدمة أمام سلمى، لكن ليس السمع كالنظر.

ـ كيف حالك أخبريني ماذا يقول الأطباء هنا ؟

ـ الحمد لله الخطر زال بعد نجاح العملية، لكن العلاج الكيميائي ضروري للقضاء على أي أثر متبقي، الطبيب طمأننا بأن كل شيء يسير على ما يرام، أخبريني أنت كيف حالك و كيف حال والدي، هل رأيتهما وراشتا هل تشتاق إلي .

ـ الكل بخير و يسلمون عليك، نعم لقد رأيت والديك هما مشتاقان جدا و راشتا بخير والدتك تعتني بها.

ابتسمت وهي تضيف :

ـ لقد حملتني والدتك أنواعا من الحلوى والتمور ووصايا لا تنتهي للاعتناء بك و دعواتهم لك لا أعلم حتى إن كان بإمكانك أكل ما أرسلاه.

اتسعت ابتسامتها وهي تكمل :

ـ على كل إن لم يسمح لك الطبيب فأنا موجودة لأكلها.

انفجرت المرأتان ضحكا سعيدتين بهذا اللقاء الذي لم يكن في الحسبان !

****

في غرفة طارق بالمستشفى كان عماد جالسا وقد جاء للاطمئنان عليه بعد أن سمع بتعرضه لأزمة قلبية بينما طارق يصر على معرفة أخبارها.

ـ هل تتصل بكم ؟

تردد عماد في الاجابة و هو يرى الضعف البادي على طارق.

ـ ليس هذا وقتا مناسبا لهذا الحديث، يجب أن تريح نفسك قليلا طارق، ألا تدرك أنك كنت قريبا جدا من الموت .

أغمض طارق عينيه في ألم ثم فتحهما و هو يقول :

ـ أرجوك يا عماد أريد أن أطلب منك معروفا

ـ لا أستطيع أن أعدك بشيء يا رجل، تعلم أني أتحاشى الحديث معها في الهاتف أو السؤال عن مكانها كي لا أضع نفسي في حرج بين رغبتها بعدم إخبارك بمكانها و إلحاحك على معرفة مكانها

ـ أعلم يا عماد، لكنني لن أسال هذه المرة عن مكانها، أريدك فقط أن توصل إليها رسالة

ـ المرأة هربت منك يا طارق و لا تريد سماع شيء عنك

أمسك طارق بيد عماد يضغط عليها في وهن رغم محاولته تشديد القبضة

ـ أرجوك يا عماد، هي خدمة لن أنساها لك طوال عمري

ـ حسنا، أنا لن أعدك بشيء لكن إن استطعت فعل ذلك سأفعل

ـ أخبرها أن دعوتها استجيبت و قد ابتليت بحب امرأة هجرتني بعد أن سكنني حبها، أخبرها أن قلبي بعدها أصبح ناقما علي حتى كاد يتخلى عني، لولا أن أجبره الأطباء على العودة، أخبرها أنها هي تلك المرأة .

****

كانت لامية تتحدث مع شقيقتها في الغرفة كالعادة، عندما سمعت طرقا خفيفا على الباب، دخل زوجها مخاطبا :

ـ أريد التحدث مع لبنى

فوجئت لامية برغبة زوجها الذي تجنب الحديث مع شقيقتها منذ سفرها، حتى لا يضطر إلى الكذب على طارق أمام ضغطه و إلحاحه، سلمته الهاتف

ـ مساء الخير لبنى، كيف حالك ؟

ـ بخير، و كيف أنت يا عماد

ـ أنا بخير الحمد لله، اعذريني لأنني لم أكن أتحدث إليك سابقا، لكن زوجك يلح علي منذ رحيلك لذلك فضلت أن أبقى بعيدا

ما إن سمعت لبنى كلمة " زوجك " حتى انقبض قلبها، في كل محادثاتها مع أختها كانت القاعدة لا حديث عن طارق و شقيقتها التزمت بذلك دون أن تخل به مرة، تحوم أفكارها كلها حوله وتكتم سؤالها عنه مئة مرة في كل مكالمة، لأنها لا تريد أن

تضعف من جديد تريد أن تنساه وذكر اسمه قد يوقظ ضعفها، مذ رحلت و هي تكابر إحساسها القاتل بأنها خسرته إلى الأبد، مذ رحلت و هي تحاول نسيانه، لكنها لا تفعل شيئا إلا تذكره، جسدها طاوعها و هرب بها منه، لكن قلبها لم يستطع، قلبها مازال يذكره، مازال يرحل إليه في كل ليلة ليعود مجروحا أكثر من كل ليلة، قلبها مازال يدق له وينشد أغانيه الحزينة على فراقه، قلبها مازال يضمه بين ثناياه يرفض إخراجه منه، قلبها مازال أسير ذاك الحب و لا يستطيع الخلاص منه، قلبها مازال يبكيه و يرفض أن ينسى .

أحست لبنى أن مكالمة زوج شقيقتها تحمل شيئا آخر غير السؤال عليها

ـ ما الجديد هذه المرة عماد، لماذا اختلف الأمر اليوم

تردد عماد و هو يزفر قبل أن يجيب أخيرا :

ـ لقد تعرض طارق لأزمة قلبية و دخل المستشفى

أحست لبنى بالعالم ينطفئ نوره مرة واحدة و تظلم الدنيا من حولها، وضعت يدها على قلبها تستشعر صرخاته الهادرة التي لا يسمعها سواها، و تتأكد أنه مازال هنا مازال يقاوم.

أحست بدموعها تنحدر متراكضة على وجنتيها، تحرق روحها و سألت في صوت متهدج

ـ كيف هو الآن ؟

ـ إنه بخير يا لبنى، لحقه الأطباء.

كانت لامية تنظر إلى زوجها في غضب و تقول بصوت خفيض :

ـ لماذا تحمل لها هذا الخبر وهي ترفض الحديث عنه ؟

جاء صوت لبنى مرة أخرى.

ـ هل رأيته ؟

ـ نعم و أرسل لك معي رسالة، إذا شئت أسمعتها لك و إلا سأخبره أنك رفضت سماعها

تسارعت دقات قلبها و لم تدرك إلا و هي تجيب :

ـ ماذا قال ؟

ـ طلب مني أن أخبرك أن دعوتك استجيبت و أنه قد ابتلي بحب امرأة هجرته بعد أن سكنه حبها و أن قلبه بعدها أصبح ناقما عليه، حتى كاد يتخلى عنه لولا أن أجبره الأطباء على العودة

تعالت شهقات لبنى عبر سماعة الهاتف و بدا واضحا أنها تجاهد لسحب الهواء و التنفس

عندما وصلت الكلمات إلى مسامع لبنى، تذكرت أمنيتها التي ألقتها، في تلك اللحظة تخيلت أنه تعرف على امرأة اخرى و أحبها، ظنت ساعتها أنها ستفرح عندما يجرب إحساس الذل هذا والألم عندما يحب امرأة لا تبادله الحب، لكنها الآن لا تشعر بالفرح بل تشعر بنار تحرق داخلها لماذا استطاع أن يحب امرأة أخرى و لم يستطع أن يحبها هي ؟ أحست بالغيرة تكاد تقتلها ووجعها الذي أصبحت تحمله منذ أحبته يشتعل أكثر كجمر تنسف عليه الريح لتوقده من جديد، نفسها يضيق أكثر وهي تحاول السيطرة على رجفتها، عندما انتبهت لصوت شقيقتها معاتبة زوجها تحاول أخذ سماعة الهاتف منه، بينما هو يناديها في إلحاح

ـ لبنى أرجوك تمالكي نفسك، لبنى، لبنى

ـ أنا بخير عماد لا تقلق

ـ لبنى الرسالة لم تنته بعد.

يا إلهي بماذا يريد إخبارها أيضا، أينوي قتلها.

ـ ماذا هناك أيضا يا عماد ؟

ـ طلب مني أن أخبرك أن هذه المرأة هي أنت.

صمتت لبنى مرة واحدة و قد صمت كل شيء بداخلها، لم تعد تدرك بماذا ترد و لم تعد تستوعب هذا الكلام الذي تسمعه، كمن تعرض لعاصفة هوجاء أخذت أخضره و يابسه لتنطفئ فجأة على " لا شيء " لم تعد تحس بشيء .

ودعت زوج اختها وأغلقت الاتصال، دخلت فراشها ونامت، كأن لا شيء مما حدث منذ لحظات قد حدث، يرفض عقلها أو حسها التفكير فيما سمعته .

على الساعة الثالثة صباحا انتفضت لبنى من نومها تصرخ و تبكي، تجاهد لسحب أنفاسها وقد اختلط شهيقها بزفيرها فكادت تختنق، أضاءت المصباح الصغير الذي أمامها، وضعت كفيها على وجهها الذي تبلله شلالات الدموع المتساقطة، تحاول السيطرة على الألم الذي يعصف بقلبها وروحها و صورته بين عينيها، لقد رأته في منامها، ضعيفا شاحب الوجه، يمد يده إليها، يردد دون توقف " هذه المرأة هي أنت " لا تستطيع تفسير شعورها الآن، أتشفق عليه هي التي تعرف أكثر من أي شخص آخر هذا الألم ؟ أيفترض أن تسامحه وتركض إليه عائدة ؟ أيفترض أن تفرح لأن الله انتقم لها و جعلها تعرف أنه جرب هذا الوجع ؟ لماذا في هذه اللحظات هي لا تعرف بماذا تشعر بالذات ؟

****

داخل المستشفى في غرفة سلمى، كانت ياسمين تنظر إلى صديقتها التي تستفيق بوهن بعد ليلة صعبة من الألم بعد جلسة العلاج الكيميائي.

ـ صباح الخير حبيبتي.

ـ صباح الخير، ألم تنامي ؟

ـ بلى و لكنني استيقظت باكرا

نظرت ياسمين الى رفيقة عمرها، يوجعها قلبها عليها ولم تستطع أن تمنع سؤالها :

ـ أيحدث لك هذا بعد كل جلسة علاج ؟

ابتسمت سلمى تطمئن صديقتها :

ـ نعم، لكنني أتحسن بعدها.

ـ كيف تستطعين تحمل كل هذا الألم ؟

ـ لأنني لا أملك خيارا آخر، الألم موجود وأنا أريد أن أشفى، أريد أن أعود إلى حياتي، هذا ما أخبر نفسي به في كل مرة لأمنحني القوة على التحمل، إذا لم أقاومه سيغلبني و أنا لا أريده أن ينتصر علي في هذه المعركة.

وقفت ياسمين متجهة إلى صديقتها، ضمتها في رفق وهي تقول :

ـ أنت شجاعة جدا سلمى، ستشفين صديقتي و ستجعلين حياتك أفضل بكثير مما كانت عليه

افترقت المرأتان و كل تغالب دموعها و سلمى تحاول تغيير الموضوع :

ـ لم تخبريني عن جديدك، أين وصلت أمورك مع حليم ؟

ـ لقد تركته.

اتسعت عينا سلمى دهشة

ـ كيف تركته ؟ أنت تركته أم هو ؟

ـ أنا تركته.

ـ و كيف فعلت ذلك ؟

ـ أدركت أنني أستحق أفضل منه، أنا أعطيته قلبي و ثقتي و هو لم يقدر ذلك، استغل ضعفي وراح يذلني و يهينني، يخاصمني هو و أصالحه أنا، يجرح مشاعري و لا يراعيها، لم يحاول أبدا أن يفهمني، لأنه كان متأكدا من حبي له، أذاقني أنواع الذل و جعلني أبكي أغلب الوقت، حلمي في أن يكون لي زوج و بيت و أبناء جعلني أصبر عليه و أحتمله، لكنني توقفت ونظرت إلى نفسي بعد سنوات و أنا زوجته، و حزنت على حالي فقررت تركه، سأواصل حياتي، سأسجل في الماستر و أكمل دراستي، عندما يأتي من يستحقني و يبدل مجهودا للحصول على حبي ساعتها سأقبل به، أما غير ذلك فلن أرضى لأنني أستحق رجلا يقدرني، أستحق أن أكون سعيدة .

أمسكت سلمى يدي صديقتها في فرح و سرور وهي تقول :

ـ أحسنت الفعل، هذه هي صديقتي، لم يكن حليم أبدا الرجل الذي يستحقك لأنه لم يعرف قدرك أبدا، غره حبك له و جعله يتعالى عليك و يهينك، رجل لا يعرف قيمة امرأة تحبه و مستعدة لتحمل كل ظروفه، رجل لا يستحقها.

ـ دعك مني الآن، أخبريني أنت أين وصلت مع محمد ؟

تغيرت ملامح سلمى وهي تقول :

ـ لم يتغير شيء، مازال زوجي المحرم علي ومازلت زوجته التي تعشقه كل يوم أكثر من الذي مضى و هي تكتشف أي رجل رائع هو.

جلست ياسمين على طرف السّرير بجانب صديقتها.

ـ يجب أن نجد حلا لهذا الوضع، لا يمكنك الاستمرار هكذا.

ـ لا أرى حلا أمامي فأنا من جنيت على نفسي منذ البداية.

ـ أريد أن أعرف التفاصيل منذ وصولكما كيف هي العلاقة بينكما و كيف يعاملك هو ؟

قصت سلمى على صديقتها تفاصيل ما يحدث بينها و بين زوجها وصولا إلى نومها في حضنه مع اشتداد الألم عليها.

رفعت ياسمين رجليها متربعة بجلستها فوق السرير تنظر إلى سلمى.

ـ أتريدين إخباري أنك تنامين كل ليلة في حضن الرجل الذي تحبين، لكنك لا تحاولين شيئا آخر سوى النوم ؟

علت الحمرة وجنتا سلمى وهي تجيب :

ـ و ماذا تريدينني أن أفعل، لقد رأيت حجم الألم الذي أعانيه، كل ما أحتاجه في تلك اللحظات هو مسكن للألم.

هزت ياسمين رأسها متأسفة.

ـ فعلا أنت في الحب ساذجة .

ابتسمت سلمى وهي تقول :

ـ لم أخبرك قبلا عكس ذلك، أنت تعلمين أن محمد هو أول رجل في حياتي.

ـ أعلم ذلك، لذا من الآن فصاعدا أنا سأخطط و أنت ستنفذين.

ـ من يسمعك يقول أنك خبيرة في الحب!

ـ الخبرة يمكن أن تأتي من الانصات لتجارب الآخرين و أنا مستمعة جيدة .

ـ و على ماذا تنوين أيتها المستمعة الجيدة؟

ـ هل تريدين جعل محمد يحبك أو لا ؟

زفرت سلمى وهي تقول :

ـ أريده أن يحبني ليلة واحدة و يمكن أن أموت بعدها

ضربت ياسمين صديقتها ضربة خفيفة على ذراعها

ـ متشائمة نحن نتحدث عن الحب، ما دخل الموت هنا

أغمضت سلمى جفنيها ثم فتحتهما و الألم واضح على محياها

ـ أحبه يا ياسمين و ما ظننت يوما أن الحب يمكن أن يسكنني هكذا و يوجعني هكذا، أحبه لدرجة أن حبه يكاد يقتلني ألما أكبر من ألم مرضي، أحبه لدرجة أنني أناضل كل هذا الألم أملا في أن يحبني يوما .

أمسكت ياسمين كلتا يدي سلمى تقول مبتسمة لتخفي تأثرها :

ـ إذن عليك أن تجاهدي لجعله يحبك، لقد جرحت كبرياءه عندما أبعدته عنك، لذا لا تنتظري أن يحاول هو شيئا، إذا أردته بقدر هذا الحب الذي تصفينه يجب أن تتخلي عن كبريائك لتكسبي حبه.

ـ و ماذا يمكنني أن أفعل ؟

ـ اصغي إلي جيدا، أنتما وحيدان في بلد ليس فيه إلا أنت و هو، عندما يعود يجب أن تغيري معاملتك له، أنت مريضة و ضعيفة و هو يعرف ذلك و يعلم أنه الوحيد المسؤول عنك ...

قاطعتها سلمى قائلة

ـ هو يفعل أكثر مما يجب إنه ...

ـ اششت، أصغي إلي و لا تقاطعيني، ادعي الألم و ارتمي في حضنه ضميه إليك و قومي بحركات معينة لإغرائه، أضعفي مقاومته، اجعليه يضعف و الباقي سيأتي وحده.

فتحت سلمى فمها دهشة .

ـ و هل تظنين أنني قادرة على فعل شيء كهذا!

ـ أنت حرة إذا كنت تريدين حبه يجب أن تتحركي قبل أن تستيقظي يوما لتجديه يحب أخرى

ـ لكنني أخجل من فعل ذلك .

ـ ادعي أنك نائمة يا غبية، ادعي أنك تتألمين و لست في وعيك .

ـ و هل سيجعله هذا يحبني؟ هذا غباء !

ـ افتنيه أولا ليُفتح الباب بينكما، بعده ادخلي إلى قلبه إنه رجل مثل كل الرجال، دعيه يفتن بك، أنت زوجته و حلاله وبعدها اعملي على جعله يحبك .

ـ لا أستطيع فعل ذلك، ثم محمد رجل محترم سيكرهني و يظن بي شيئا آخر .

ـ يا حمقاء أنت زوجته و هو رجل، الرجال مخلوقون هكذا، هذا في جيناتهم رغما عنهم.

ـ الأمر صعب، لا يمكنني فعله!

ـ إذن ابقي هكذا تنظرين إليه و تتعذبين.

سافرت ياسمين و عاد محمد إلى أمريكا بعدما نظم أمور العمل هناك وخرج طارق من المستشفى .

عندما دخل الغرفة كانت سلمى تتحضر لجلسة جديدة من العلاج الكيميائي، ما إن رأته حتى أشرق وجهها و احمرت وجنتاها، يا إلهي كم اشتاقت إليه في بضعة أيام فقط، كم تتوق إلى الارتماء في حضنه و معانقته حتى تشبع شوقها إليه، لم تعد قادرة على تصور حياتها من دون هذا الرجل الذي يقف قبالتها بجديته المعهودة و هيبته التي اشتاقتها.

ـ حمدا لله على سلامتك

ـ سلمك الله كيف حالك ؟

كانت تريد أن تجيبه (مشتاقة يكاد يقتلني الحنين لرؤية وجهك و ضمة صدرك و شمّ عطرك) لكنها بدل ذلك ردت :

ـ بخير وأنت ؟

ـ أنا بخير، نظمت الأمور هناك و طارق خرج من المستشفى، سيرتاح قليلا قبل العودة للعمل والجميع يرسل لك سلامه، هل أنت جاهزة ؟

ابتسمت وهي تجيب :

ـ لمواجهة كيمو، نعم

فتح عينيه دهشة و هو يقول :

ـ من كيمو هذا ؟

اشرقت ضحكتها الهادئة و هي تجيب :

ـ لقد وجدت مجموعة على الفيس بوك تضم مرضى السرطان يشجعون بعضهم وقد لقبوا العلاج الكيميائي ب " كيمو "

ابتسم ابتسامة خفيفة و هو يردد الاسم بين شفتيه " كيمو " بينما تعلقت عيناها بهما تتمنى لو كانت مجرد كلمة تتحسس حروفها شفتاه، مجرد ذرة هواء تحط عليهما و لا ترحل، الشوق يكاد يفتك بها و يفقدها عقلها، ماذا الذي يفعله بها هذا الرجل ؟

عندما خرجت سلمى من جلسة العلاج كان الضعف و الوهن باد عليها، لكنها كانت تحاول استجماع قواها الخائرة و هي تردد في نفسها (لن يغلبني كيمو أنا أقوى منه تسترجع النصائح التي قرأتها في مجموعة الفيسبوك، الثقة بالله أولا، قراءة

القرآن و الدعاء، فكري في من تحبين و قاومي من أجل العودة إليهم، قاومي من أجل نفسك لأنك تستحقين الحياة)

بدأت تتمتم بأدعية خفيفة ساعفتها ذاكرتها في استحضارها الآن مع هذه الآلام، عندما أحست بكف محمد تربت على رأسها.

ـ هل أنت بخير ؟

رفعت عينيها إليه تفتحهما بصعوبة تومئ برأسها أن نعم، لكنها لم تكن قادرة على الكلام، فجأة أحست برغبة شديدة في الاستفراغ و فوجئت بمحمد يحمل الدلو إليها قبل أن تنطلق في اخراج ما في جوفها ثم مرارو لعاب كثير و محمد يمسك الدلو بيد و يسند رأسها باليد الأخرى، أصبح يعرف أعراض ما بعد الكيميائي و حاضر له كتلميذ يحفظ درسه جيدا

رغم ألمها إلا أنها كانت تكره هذه اللحظات بالذات، تشعر أن محمد يشمئز منها أو هكذا تتخيل هو لم يبين يوما ذلك، دائما حاضر و لم يحتج يوما.

أبعد الدلو عندما ظن أنها انتهت، لكنه فوجئ بنوبة أخرى من الاستفراغ لطخت هذه المرة قميصه، لم يبال هو بذلك مقربا الدلو أكثر من سلمى، محاولا إسناد رأسها من جديد، لكنه فوجئ بها تدفع يده تلك.

ـ ابتعد عني .

ـ دعيني أساعدك سلمى.

حركت رأسها يمينا و شمالا و هي تكتم بكاءها :

ـ لقد لطخت قميصك، و هذه الرائحة الكريهة

نظر إليها و هو يقول :

ـ لا يهم سلمى، سأغير القميص بعد قليل

ردت وسط دموعها التي انهالت نزولا على وجنتيها :

ـ لا، أنا مقرفة و أنت لست مضطرا لتحملي هكذا

وضع الدلو جانبا و أمسك وجهها بكلتا يديه رفع رأسها إليه ينظر إليها في إشفاق لكن نظراتها كانت على الأرض تتهرب من عينيه.

ـ انظري إلي.

ـ تحاملت على نفسها و رفعت إليه عينين تغشتهما الدّموع.

ـ أنت لست مقرفة، أنت مريضة فقط و أنا هنا و لن أذهب إلى أي مكان، أسمعت لا شيء و لا أحد يضطرني لذلك، أنا هنا لأنني أريد أن أكون هنا بجانب زوجتي، أفهمت!

حركت رأسها إيجابا و دموعها تنهمر على خديها، فتحركت يداه تمسحان السيول المتهاطلة وهو يقول :

ـ هل تتألمين كثيرا ؟

أرادت أن تجيبه (جدا، أتألم من حبي لك أنت، من طيبتك بقلبك الكبير، بكلماتك، بوجودك الذي يحرقني، بشوقي إليك الذي يقتلني) لكنها قالت في خفوت :

ـ قليلا

راح يمسح على شعرها و هو يقرأ عليها آية الكرسي، بينما لم تكن قادرة على إيقاف دموعها التي كانت هذه المرة دموع حسرة و شوق، شوق لهذا الحبيب الذي لامس حبه شغاف قلبها لكنها لا تعرف كيف تصل هي إلى قلبه.

فجأة رفعت رأسها بسرعة مشيرة إلى الدلو و قد انتابتها حالة استفراغ جديدة، بينما سارع هو إلى تقريب الدلو منها من جديد .

****

فتحت سلمى عينيها ثم اتكئت على ظهر السرير، وجدت محمد جالسا على حافته يراقبها، لم تستطع النوم إلا ربع ساعة و هي تئن من الألم في نومها، نظر إليها يرقب حركاتها

ـ الألم يمنعك من النوم ؟

ـ نعم

اقترب منها واضعا يده على جبهتها.

ـ حرارتك مرتفعة قليلا سأنادي الطبيب.

أمسكت يده تمنعه من الوقوف.

ـ لا أريد يكفي ما تجرعته من الأدوية.

اعتدلت في جلستها و هي تضيف :

ـ أريد أن أنام فقط، لكن النوم يستعصي علي، يعاندني و يصف إلى جانب الألم

رق لها قلبه وهو يسمع شكواها الضعيفة، عندما يصبح أمل الشخص هو فقط سويعات نوم، لكن الأمل بعيد و لا يتحقق، سحبها من يدها إلى صدره و هو يقول :

ـ تعالي هنا

وضعت رأسها في وهن على صدره تتحسس دفئه و تشم عطره، بينما يضمها بكلتا ذراعيه في رفق، يضع ذقنه على رأسها و يقرأ عليها أدعية الشفاء، أغمضت عينيها

تغالب ألمها بينما تهدأ نفسها رويدا رويدا، حتى أحس هو بانتظام تنفسها ليدرك أنها نامت .

فتحت سلمى عينيها لتجد نفسها في حضن محمد، بنفس الوضعية التي تتذكرها قبل أن تغفو

، متكئة على صدره يحيطها بكلتا ذراعيه، رفعت رأسها إليه و هي تقول :

ـ لقد غفوت

إبتسم و هو يرد

ـ نعم

عندما سحب ذراعيه كانتا متشنجتان يحاول تحريكهما، أدركت سلمى أن غفوتها ربما كانت أكثر من غفوة

ـ كم من الوقت نمت ؟

حرك رأسه و هو يجيب :

ـ قرابة الساعتين

اتسعت عيناها دهشة

ـ أبقيت ساعتان على هذه الوضعية، لماذا لم تمددني على السرير ؟

أجابها و هو يتفادى عينيها :

ـ خشيت أن تستيقظي، كنت بحاجة للنوم

تعلقت عيناها بوجهه و القشعريرة تسري في جسدها، أسدلت أهدابها في تأثر وهي تنادي باسمه :

- محمد

نظر إليها يغالب إحساسه بقربها الشديد منه

- نعم

إقتربت منه و رمت نفسها في حضنه و هي تقول :

- شكرا لأنك لم تتخل عني.

رفعت رأسها و يا ليتها لم تفعل، رأت في عينيه ألما كبيرا يكابده، يصارعه، من غير وعي منها وضعت كفها على صدره، لتكهربها ضربات قلبه المتقافزة، تحرك كفها إلى خده ثم إلى عينه التي أغمضها في ألم واضح لتستقر أناملها على شفتيه، اقترب وجهها حتى لفحه لهيب أنفاسها، فتح عينيه ونار الشوق تكاد تطفئهما وهو يستمد قوة الأرض كلها ليقول :

- لا تفعلي أرجوك.

سحبت يدها كمن لسعته النار.

- لماذا؟

- لأنك مريضة.

صمت قليلا ثم أضاف بصوت خافت كأنه يحدث نفسه :

- و ما أنا إلا رجل ... بشر و لست ملاكا

سحبت نفسها بصعوبة متراجعة إلى الوراء، بينما استجمع هو قواه مغادرا الغرفة

بقيت للحظات مذهولة غير مصدقة هذا الذي حدث، كانت ستسلمه نفسها لكنه رفضها، لفظها كما تلفظ هي ما في جوفها بعد كل جلسة علاج، أحست بالنار تتقد في داخلها تحرق روحها، الرجل الذي تعشق يظن نفسه بشرا، لكنها تراه ملاكا، أي رجل يرفض امرأة تستسلم بين يديه لا تطلب إلا أن يأخذها كما يأخذ أي زوج زوجته، أدركت أن مصيبتها أكبر من أن توصف، لقد وقعت في عشق رجل استثنائي، داعب أحلامها مذ كانت مراهقة تحلم بفارس أحلامها، لكنه لا يريدها لأنها ذات عناد جرحته فلفظتها كبرياؤه .

****

كان عماد بانتظار طارق الذي اتصل به و طلب ملاقاته بعيدا عن زوجته، لم تمض إلا أيام على خروجه من المستشفى، ما إن رآه من بعيد حتى تحركت بداخله شفقته عليه، منذ أن تركته لبنى و حاله يزداد سوءا، جلس طارق قبالة عماد بعد أن سلم عليه ثم أردف قائلا :

ـ هل أوصلت إليها الرسالة ؟

ـ نعم

ـ و ماذا قالت ؟

ـ لا شيء

ـ كيف لا شيء ؟ لم تبد أي ردة فعل ؟

ـ لا

لم يكن عماد يريد أن يقص عليه حالة لبنى عندما سمعت الرسالة، وهي فعلا لم تجب بشيء

ـ أرجوك يا عماد أخبرني بمكانها، أخبرني بمكان زوجتي ألا ترى أنني أكاد أفقد عقلي قلقا عليها.

ـ أخبرتك مئات المرات يا طارق أني لا أعرف مكانها، أنا رفضت أن تخبرني زوجتي بمكانها ولا أحضر اتصالاتها لأنني لا أريد أن أتدخل في هذه القضية.

انتفض شوق طارق وهو يقول :

ـ هل هي بخير ؟ ألا تسأل عني أبدا ؟

ـ لا أعلم يا طارق!

ـ ضع نفسك مكاني يا عماد، لو أن زوجتك هجرتك و كنت أعرف عنها شيئا، هل كنت ستتقبل أو تتفهم سكوتي ؟

نظر عماد إلى الرجل مدركا حالته، ليس هناك أصعب من رجل أذله عشقه، لو كان مكانه لما استطاع أن يتحمل أن تهجره لامية، لكن هذا الرجل تسبب لنفسه في ما يعانيه اليوم، برعونته و قسوته .

ـ أنت جنيت على نفسك يا طارق، لطالما منحتك لبنى فرصة بعد الأخرى، لكنك أوجعتها كثيرا حتى اضطرت إلى ترك حياتها كاملة هنا، من أجل الهروب منك، زوجتك كانت تعشقك لكنك لم تكتفي بها و بحبها.

أغمض طارق عينيه وجعا و هو يعلم أن هذا الكلام صحيح، منذ هجرته و هو يواجه نفسه بهذه الحقيقة المرة في كل لحظة، هو أضاعها من بين يديه و ها هو يدفع ثمن غبائه، كل هذا الوجع الذي سكنه منذ رحيلها و هذا الضياع الذي تركته فيه، كأنه في دنيا لم يعرفها من قبل، لأنه أصبح لا يعرفها بعدها، بل لم يعد يعرف نفسه بعدها .

ـ أعرف ذلك يا عماد، لكنني أدركت خطئي، أريد استعادتها و تعويضها

رغم إشفاق عماد على حال طارق إلا أنه لم يجد بدا من القول :

ـ هي لم تعد تريدك يا طارق، لقد ابتعدت لتشفى منك، لقد أحرقت كل أوراق فرصك معها ولا أظنها ستقبل أن تعطيك فرصة أخرى بعد أن تمكنت أخيرا من اتخاذ قرار البعد و تنفيذه .

لماذا كلمات عماد تحسسه بهذا الألم الزائد، كأنها سكاكين تغرز في جراحاته المفتوحة لتزيدها نزيفا.

ـ أريد فرصة أخيرة يا عماد، فرصة فقط لأقنعها أني ما عدت ذلك الأحمق الذي هجرته، فرصة لأجعلها تسامحني و لو رفضت سأنسحب من حياتها.

كلما نظر عماد إلى طارق ازداد احساسه بالشفقة عليه، و كلما نطق أحس بالحالة السيئة التي وصل إليها و استشف من كلماته عظم ندمه و صدقه لم يدر بنفسه إلا و هو يقول :

ـ إنها في انجلترا، هي بحال جيدة و لكنها ترفض العودة إلى هنا حتى تكون قادرة على مواجهتك

انتفضت كلماته متسارعة

ـ أين في انجلترا

ـ لا أعلم يا طارق، أقسم أني لا أعلم!

ـ و هل هي بخير ؟

ـ نعم إنها بخير

****

كان محمد واقفا إلى جانب سرير زوجته، ممسكا بيدها و الطبيب يخبرها أن الورم اختفى نهائيا و أنها ستغادر المستشفى بعد يومين.

في المطار وجدت سلمى والديها و والد زوجها و ياسمين و طارق في انتظارهم، كان اللقاء مؤثرا و دموع الفرح هي ما غلبت على اللقاء

ما إن دخل الجميع إلى بيت الحاج سليمان، حتى استاذن محمد للخروج لأن وراءه أعمال كثيرة و أخذ طارق معه .

كانت راشتا تجلس على حجر صاحبتها رافضة النهوض أو الابتعاد عن سلمى رغم أن الحاجة زكية حاولت نهرها و ابعادها إلا أن سلمى طلبت منها تركها فقد اشتاقت هي أيضا لها

أما الحاجة زكية التي كانت تجلس بجانب ابنتها فقد كانت ممسكة بيدها تقبلها تارة و تحضنها تارة أخرى ثم تنظر إلى ابنتها مبتسمة، لكن عيونها متلألئة بدموع الفرح والحزن معا، فرح لعودة ابنتها و نجاتها و حزن على حالها وهي تراها و قد نحل جسدها و سقط شعرها عن رأسها الذي تربطه بعصابة، لكن والدتها تعرف شعر ابنتها ذاك الشعر البني الكثيف الذي كانت تتفاخر به، لا أثر له اليوم على رأس ابنتها، لكنها ورغم ذلك تحمد الله أن نجى ابنتها وأعادها إلى أحضانها .

طلب سليمان من محمد أن يترك سلمى تبقى عنده عدة ليال حتى يُشبع هو و والدتها شوقهما إليها و تدللها أمها، و لم يمانع هو ذلك، كان يدرك شوقهما لابنتهما، و مدى خوفهما عليها طيلة هذه المدة .

بعد عدة أيام عادت سلمى إلى بيت زوجها و عاد الزوجان إلى سابق عهدهما، ينامان كل في سريره و لا يكادان يلتقيان إلا صدفة على العشاء الذي كان محمد يحرص على أن يكون حاضرا في موعده، عدا ذلك كان يخرج في الصباح الباكر قبل أن تستيقظ هي .

هو كان يتجنبها فالأمور تغيرت عن أول زواجهما، كانت غريبة لا يربطه بها إلا ورقة و وعد انتظار قبل الانفصال، أما اليوم فما يربطهما أقوى بكثير، لقد اشتركا في الأوجاع و الآلام لقد رآها تقترب من الموت لتعود بقوة و هي تناضل و كان هو شريكها في هذا النضال، كان من السهل جدا في بداية زواجهما تجنبها أما الآن فالأمر أصبح صعبا جدا، لقد تعرف على جزءٍ من روحها هناك في المهجر و كشف لها عن جزءٍ من روحه هو، لذا كان يهرب و يهرب متفاديا أي لقاء او احتكاك معها فكرت سلمى في البداية أنه يهرب منها، لكنها حاولت اقناع نفسها أن مدة سفره عطلت الكثير من العمل و أنه يسعى جاهدا لتدارك التأخر و أنه سيهدأ في النهاية و ربما، ربما سيتحسن وضعهما بعدها، كانت تشتاق إليه و يكاد يقتلها شوقها، لكنها عاجزة عن فعل شيء و هي تراه يبتعد هكذا .

كانت سلمى تجلس مع ياسمين التي تخبرها عن تطورات حياتها في غيابها :

ـ سجلت الماستر و بدأت الدراسة.

ـ و كيف حال قلبك ؟

ـ على عكس ما كنت أتوقعه لقد فاجأني بأنه بخير و أقوى مما كنت أتخيل.

ـ هل من أخبار عن حليم ؟

ـ نعم، لقد اتصل بي عدة مرات و طلب العودة، عندما رأى رفضي طلب موعدا ليتقدم لخطبتي، لكنني رفضت وأخبرته أني لم أعد أريده.

ابتسمت سلمى فرحة و هي تقول :

ـ أحسنت دعيه يعض أنامل الندم لأنه ضيع امرأة مثلك من بين يديه

سكتت هنيهة ثم أردفت :

ـ ألا تفكرين في العودة إليه، يبدو أنه نادم و ربما سيغير طريقته

ردت ياسمين في فخر :

ـ لم يعد يناسبني، أنا أستحق رجلا يطير فرحا لأني قدره و حبيبته، و إلى أن أجده، أنا أعيش حياتي، و من أجل ياسمين أحقق أحلامي و طموحاتي التي أوقفتها منذ زمن لأني ظننت أن الحياة رجل، و أن مصير كل أنثى أن تخدم زوجها و تنجب له أطفالا، أدركت اليوم أن الحياة مقاسمة و مشاركة و كي يحترمني زوجي يجب أن أحترم أنا نفسي أولا، هذا لا يعني أنني لم أعد أريد الزواج و انجاب أبناء، لكنني قررت أن أختار أبا مناسبا لأبنائي و ليس مجرد شخص يحمل صفة مذكر، قررت أن أختار زوجا يساعدني في طريق الفرح و مصاعب الحياة و لا يزيد همي بالانسحاب من مشاركتي الحياة و مسؤولياتها ليكون مجرد ستار و ظل رجل في حياتي

فردت سلمى ذراعيها و هي تقول :

ـ تعالي هنا أريد أن أعانقك

تعانقت الفتاتان بينما سلمى تضيف :

ـ أنا فخورة بك صديقتي

ردت ياسمين :

ـ بل أنا الفخورة بك، لأنك هزمت المرض و عدت إلينا

افترقت الفتاتان و بعد هنيهة سألت ياسمين :

ـ و كيف حالك مع محمد ؟

تنهدت سلمى و هي تجيب :

ـ على حالها، عندما كنا في أمريكا تحسنت الأمور بيننا كثيرا، لكن قبل عودتنا بأيام تغير كل شيء و بمجرد عودتنا عاد محمد ذلك الرجل البعيد عني، الذي لا أراه إلا نادرا و لا يجمعنا حديث مطلقا، أحيانا أفكر أنه لم يفعل كل ما فعله إلا بدافع الواجب و أحيانا عندما أتذكر كيف كان يتصرف معي في أمريكا أقول في نفسي لا يعقل أن يكون ذلك فقط بدافع الواجب، لم يكن مجبرا على ترك كل أعماله هنا و السفر معي، لم يكن مجبرا على ضمي إلى صدره كل ليلة لأنام في حضنه و أنا أبكي بين ذراعيه، لم يكن مجبرا على البقاء طيلة الوقت في المستشفى لمرافقتي، لم يكن مجبرا على قلب المستشفى رأسا على عقب عندما أخطأ الطبيب الأول.

سرحت سلمى بمخيلتها التي عادت بها إلى أمريكا لتتذكر حديثا دار بينها و بين جاكلين ثم أردفت في صوت هادئ متأثر:

ـ لقد أخبرتني الممرضة يوما أنه بكى عندما أخبروه بنجاح العملية.

خرج صوت ياسمين غير مصدق.

ـ حقا ؟

ـ هي أخبرتني بذلك، أتظنين أن رجلا مثل محمد يبكي من أجل امرأة لا يشعر نحوها سوى بالواجب .

ـ لا، لا أظن ذلك !

نظرت سلمى إلى صديقتها و الدموع تملأ عينيها :

ـ لا أعرف ما يمكنني فعله ياسمين، أنا أحبه، أنا أحب هذا الرجل بكل مشاعري المخبأة لرجل حياتي، بكل أحلامي التي انتظرته بها و بكل أحاسيسي التي كانت تنمو على أمل لقائه، أحبه بكل رجولته و كبريائه، أحبه بكل عطفه و حنانه و حرمانه، بكل تناقضاته، لا أعرف ما أفعله، أنا أنتظره كالبلهاء كل ليلة على أمل أن يخطئ سريره إلى سريري، أحاول كبت دموعي المتساقطة على وقع خطواته المتثاقلة إلى سرير غير سريري، أشتاقه، أشتاق حضنه، أشتاق ضمة منه، أشتاق رائحته، أشتاق حتى سماع صوته ولا أجد ما أفعله سوى البكاء والانتظار .

كانت دموع سلمى تنهمر وهي تتحدث، فاحتضنتها صديقتها و هي لا تعرف حلا لمشكلتها و لا دواء لوجعها .

****

كان طارق قد شرع في تحضير أوراق سفره عندما علم بقرب عودة محمد إلى الوطن، اتجه إلى مكتب محمد ليخبره أنه مسافر إلى انجلترا

ـ لا يمكنك السّفر الآن مشاريعنا أغلبها على وشك التسليم و نحن بحاجة إليك

نظر طارق إلى محمد و هو يقول بأسف :

ـ اعذرني يا صديقي و لكن لا يمكنني البقاء هنا، علمت أن لبنى في انجلترا و سأسافر للبحث عنها.

ـ هل عرفت مكانها ؟

ـ ليس بالتحديد، لكنني سأبحث عنها هناك

اتسعت عينا محمد وهو يسأل :

ـ أين ستبحث عنها، أتظن أنك ذاهب إلى الشارع المقابل، أنت مسافر إلى بلاد طويلة عريضة لا تعرف فيها أحدا، هل ستمشي في الطرقات تسأل الناس عنها

ـ أعلم ذلك جيدا يا محمد و لكن لا يمكنني البقاء هنا بعد أن وجدت نقطة أبدا منها، سأسافر وسأجد هناك حلا .

عندما وصل طارق، اتجه إلى أحد الموظفين في المطار و سأله عن كيفية معرفة إن كان شخص يعرفه قد دخل إلى انجلترا عبر هذا المطار، أجابه الموظف أن هذه معلومات سرية لا يمكن تقديمها إلا بأوامر خاصة من السلطات المختصة، نفس الشيء حدث له عندما ذهب إلى الفندق، غير ملابسه و اتجه إلى مكتب محامي كان قد أخذ عنوانه و موعدا معه في أرض الوطن عن طريق الأنترنت، عندما استقبله المحامي في استشارة قانونية مدفوعة الثمن أخبره طارق باختصار أن زوجته هجرته إلى انجلترا و أنه يريد إيجادها .

نظر إليه المحامي مرتابا و مشككا في نواياه، خاصة عندما علم من اسمه أنه عربي و سمعة العرب مع الأسف لم تكن تخدمه، أجابه المحامي مرغما على منحه الرد مقابل ما دفعه من ثمن للاستشارة أن عليه إيجاد محقق خاص للبحث عنها، لكن ذلك سيكلفه الكثير من المال خاصة إذا طالت مدة البحث دون إيجادها.

اتجه طارق إلى المحقق الذي نصحه به المحامي و كلفه بالبدء في البحث عن زوجته، قبل المحقق الملف دون عناء و لم يكترث لدوافع طارق و أسبابه، أخذ منه كل المعلومات التي تساعده على البحث بداية من اسمها و مهنتها، كما أخذ صورتها التي حملها طارق معه لكنه أعلمه أنه لن يتحرك إلا إذا أخذ الدفعة الأولى من المال و دفع طارق له .

مرت ثلاثة أسابيع على وجود طارق بانجلترا، اتصالاته بالمحقق لا تتوقف لكن لا جديد يذكر كأن الأرض انشقت و ابتلعتها، وصل الأمر بطارق إلى التشكيك في المعلومة التي منحه إياها عماد عن تواجدها في انجلترا، لكنه لم يكن قادرا على ترك الأمر و العودة إلى بلده حيث يقتله يأسه على فقدانها .

****

كان قد مر قرابة الشهر على عودتها من أمريكا دون أن يتغير شيء، محمد غائب طوال الوقت و سلمى تنتظر بأمل يقاوم كي لا ينطفئ

ذات ليلة عاد محمد على الساعة السابعة و النصف مساءً، باكرا على غير عادته، أثناء العشاء كانت سلمى تفاجئ نظراته إليها، نظرات تحمل الكثير من الكلام الصامت الذي لم تفهمه و لكن وجهه متجهم كأن شيئا قد حدث .

بعد العشاء اعتذر محمد من والده و انسحب إلى غرفته بعد أن طلب من سلمى أن توافيه لأنه يحتاجها في موضوع مهم، كانت نبضات قلبها تتسارع وهي تترقب و تحاول أن تخمن الموضوع الذي يريدها من أجله .

ما إن دخلت حتى وجدته جالسا في انتظارها، أشار إليها بالجلوس فجلست قبالته و هي تحاول اخفاء توثرها.

نظر هو إليها يبحث عن كلماته ثم قال أخيرا :

ـ أتتذكرين ليلة زفافنا عندما أخبرتني أننا سنظل أخوين، تتذكرين أنك قلت أننا سنحافظ على زواجنا أمام الناس لمدة ثم سنطلق ؟

أومأت سلمى برأسها وهي تتذكر تلك الكلمات المشؤومة التي جعلتها أسيرة هذا الوضع إلى الآن.

سكت محمد و أبعد عينيه عن عيني زوجته ثم عاد بناظره إليها و هو يقول :

ـ أظن أن الوقت قد حان لنطلق، لقد مر وقت مناسب حتى لا يتكلم الناس، لا أحد سيشك بالأمر الآن.

ما إن سمعت سلمى ما قاله محمد، حتى أحست أن قلبها الذي كان ينبض بقوة لا متناهية قد توقف عن الحياة، عندما أرادت أن تجيب شعرت أن العبرات تهدد بالظهور و الغصة تخنقها لكنها تحتاج لكل قوتها الآن لتحافظ على رباطة جأشها و تماسكها أمامه، لا يجب أن يشعر بشيء، لقد فعل الكثير من أجلها و ليس عليه فعل الأكثر، هي من حددت شروط اللعبة و عليها تحملها بشجاعة اللاعب الخاسر، استجمعت قواها و استطاعت في الأخير أن تخرج كلمة واحدة من فمها :

ـ حسنا .

نظر محمد إليها و قال :

ـ سأباشر بمعاملات الطلاق، سأكلف محاميَ ليتصل بمحامي والدك، سيتدبران الأمر سيكون طلاقا بالتراضي دون مشاكل و دون ضجة، سأقابل والدك قبلها وأشرح له الأمر، طبعا لن أخبره بشيء، فقط أننا لم نعد قادران على المواصلة سويا.

انتظر محمد جوابا من سلمى، لكن أمام صمتها أضاف :

ـ لن نختلف سأوافق على كل ما تريدينه أيًا كان.

نظرت إليه تكاد لهفتها تخونها ثم أبعدت عينيها بسرعة، النظر إلى عينيه قد يخون إحساسها القاتل في هذه اللحظة و يفضحها، ليتها كانت تستطيع أن تخبره أنها لا تريد شيئا سواه، تريده هو فقط، ليت صوتها يساعدها في هذه اللحظة لتبدو قوية، لم يخونها كل شيء فيها الآن ؟ لماذا تحس أن عبراتها تريد النزول و صوتها يريد النحيب و جسدها يبغي السقوط و قلبها يبتغي الموت، لماذا لا تستطيع أن تقف بآخر ما تبقى لها من كبرياء و شجاعة لتخبره أنها لا تريد منه شيئا و أنها تقبل الطلاق دون أية تعويضات، هو لا يحبها و هذا وحده كاف لتخرج من حياته شاكرة كل ما قبله منها و ما فعله من أجلها .

عندما لم يجد محمد ردا منها افترض صمتها قبولا و انسحب من الجلسة .

بعد حوالي ربع ساعة من خروجه كانت لاتزال جالسة في مكانها تنظر إلى اللاشيء، عبراتها تحررت أخيرا و نزلت على وجنتيها محرقة قلبها في صمت قاتل، لم تكن تستطيع حتى البكاء بصوت قد يخرج ما بداخلها من ألم أو يطفئ ما بداخلها من

لهيب، لقد مات آخر أمل لديها في الرجل الذي تحبه، لقد قتلها بسكين هي أعطته له و بطريقة هي طلبتها منه، و هو لم يفعل غير تنفيذ إرادتها دون أن يدرك أنها أصبحت عاشقة له و قد تموت في بعده .

عادت سلمى إلى بيت والديها في انتظار انتهاء معاملات الطلاق، كان والديها يسألانها عن أسباب الانفصال و لم تكن تجيب سوى بأنهما لم يتفقا، حاول والديها الحديث معها في محاولة لثنيها عن الطلاق ظانين أنها هي من طلبته، لكنها كانت تغلق الحديث في هذا الموضوع دون تقديم أسباب تريحهما، رغم ذلك كان الألم الذي يعتصرها واضحا على وجهها و ركود حياتها مذ عادت إلى المنزل .

اتصل سليمان بصديقه صالح من أجل مناقشة الموضوع في محاولة يائسة لفهم أسباب هذا الانفصال المفاجئ و إصلاح الأمور، لكن صالح لم يكن يعرف أكثر من صديقه، فقد كان محمد يتحاشى الحديث معه في هذا الموضوع و يرجع الأمر إلى القدر، كل منهما يشتكي حال فلذة كبده، و ما كان يحير الرجلان أن ولديهما حزينان، ينهكان نفسيهما في العمل و رغم ذلك مصران على الطلاق، كيف تخطيا أصعب الأوقات وعندما جاءت أوقات اليسر لم يستطيعا تحملها، و كأنهما ناما و استيقظا فقررا الطلاق .

كانت ياسمين قد اتصلت بسلمى و طلبت منها الخروج معها، اعتذرت سلمى بداية ثم عادت ووافقت أمام إلحاح صديقتها.

- مرّ شهران على عودتك إلى بيت والديك، هل ستبقين في هذا الحزن طويلا ؟

ـ ما الذي أستطيع، فعله أنا أحاول جاهدة عدم التفكير فيه و الغرق في العمل، لكن ذلك صعب بل و مستحيل، محمد سكنني و لا يريد مغادرتي.

ـ أنت تختبئين وراء العمل، يجب أن تتعلمي عيش حياتك بدونه، يجب أن تخرجي و تقابلي أناسا آخرين، يجب أن تتعودي على حياة جديدة.

ـ أنا فعلا أتعود على حياة جديدة، عملي يأخذ كل وقتي و أنا أقابل أناسا آخرين فعلا و لا أحتاج للخروج من أجل ذلك.

ـ عزيزتي أنت تعرفين ما أقصد، لكي تنسيه عليك الدخول في علاقة جديدة مع رجل آخر، عليك فتح الطريق لرجل آخر ليدخل حياتك و ينسيك محمد

نظرت سلمى إلى صديقتها قائلة في تأثر :

ـ و هل تضمنين لي أن يكون مثل محمد ؟

ـ ليس عليه أن يكون مثله، بل يجب أن يكون مختلفا عنه حتى ينسيك إياه، لست بحاجة إلى من يذكرك به

ـ و هل تظنين أني أحتاج إلى ما يذكرني به، أنا أحمله في قلبي، في عقلي، في ذاكرتي و في أحاسيسي، أحمله حتى في جرحي فكيف لي أن أنساه، حتى في عملي هو من علمني كل ما أعرفه فكيف لي أن أنساه، اكتشفت يا صديقتي أنني قبله لم أكن شيئا و معه تعلمت أن أكون، لقد سكن الروح و يرفض أن يغادرها، و الروح تعلقت

به و ترفض خروجه منها، محمد صار وجعي و ذاكرتي المجروحة، ذكراه تؤلمني بقدر ما تسعدني لأني عرفت على يديه معنى الرجولة، و أدركت متأخرة كيف تكون المرأة أنثى تنتمي لرجل واحد هو بعينيها كل الرجال، كل الفرح و كل الآمال .

تنهدت ياسمين وهي تقول :

ـ هل تعلمين، لا أعلم حتى الآن ما الذي تحبينه في هذا الرجل، فمنذ أول يوم التقيت به لم يعجبك و لم يفعل هو شيئا لتحسين صورته، لقد أساء إليك أكثر مما أحسن.

ـ لا يا ياسمين، هذا هو خطأنا أننا نحكم على الأشخاص دون أن نعرفهم ولا نلتمس لهم الأعذار، محمد كان رجلا يتيما تربى من غير أم، رجلا لم يعرف طريقة للتعامل إلا تلك التي عرفها في عمله، الانضباط و الحزم، لم يكن رجلا يجيد التعامل مع النساء و إذا كان شخص أساء للآخر فهو أنا، أنا من أسأت إليه و أنا من أسأت لنفسي، أنا من وضعت شروط انفصالنا هو لم يفعل شيئا سوى أنه نفذ ما أريده، كما أنه فعل الكثير من أجلي لقد ترك مصالحه وأعماله و سافر معي للعلاج، لم يقبل فلسا واحدا من والدي تعويضا لمصاريف علاجي، كان سندي في أزمتي و لولا وجوده بجانبي لربما لم أكن لأقاوم و أشفى، و هو الآن يصر على إعطائي كل حقوقي الناتجة عن الطلاق رغم أني أرفضها .

ـ و أين وصلت دعوى الطلاق ؟

ـ لم تسجل بعد

ـ لنفس السبب دائما ؟

ـ نعم، فأنا أرفض أن آخذ تعويضا عن طلاقي منه و هو يصر على منحي المبلغ الذي قرره، إنها دعوى طلاق بالتراضي و يجب أن يمضي كلانا على عريضة الدعوى قبل تسجيلها.

ـ لما لا تأخذين ما يمنحك إياه و تنتهي من هذا الموضوع، تصدقي به بعدها

ـ لا، ألا يكفي أنه يرفض ما صرفه في علاجي بحجة أنني كنت زوجته و مسؤولة منه .

ـ إذن فستظلين معلقة هكذا، إنه عنيد جدا و لا يتنازل

ـ لا يهمني، أنا لست مستعجلة على هذا الطلاق لأقبل مرغمة، فليطلقني عندما يمل هو من الانتظار .

في الجانب الآخر كان محمد يتحدث مع محاميه في غضب

ـ ألا تستطيع الاتفاق مع محاميها

ـ سيد مالكي محاميها لا يمكنه أن يفعل شيئا لا تريده هي

ـ حتى في موضوع هي من تطلبه لابد أن تعاند

ـ لم لا تنسى موضوع التعويض هذا، نرفع دعوى طلاق و بما أن العصمة بيد الزوج سيحكم القاضي بالطلاق التعسفي و يمنحها التعويض

ـ لا يمكنني أن أفعل ذلك، الأمر سيضر بسمعتها وسمعة والدها إذا طلقتها أنا، أريده طلاقا بالتراضي، كما أنك أخبرتني أن التعويضات التي تحكم بها المحكمة زهيدة جدا بالمقارنة بما أقترحه أنا، أليس كذلك ؟

ـ بلى، هو كذلك

****

كان طارق نائما في الفندق، أصبحت ساعات نومه متفرقة فالنوم يجافيه ليلا ليسكنه التعب حتى تفاجئه عيناه بإغفاءة قد تدوم دقائق أو سويعات، عندما أيقظه صوت رنين هاتفه أجاب مسرعا عندما قرأ اسم المتصل، كان ذلك المحقق يخبره أنه وجد زوجته، قفزت حواس طارق مصطدمة ببعضها، تسابق الدهشة الفرحة و تسبق الصدمة انقباضة قلبه و هو يسأل عن مكانها لكن المحقق رفض إعطاءه المعلومات على الهاتف و طلب منه الحضور إلى مكتبه حاملا معه الدفعة الأخيرة من المبلغ، لأن ملفه وصل إلى نهايته .

وقف طارق ينظر إليها من بعيد مصدوما غير مصدق أنها هي، ترتدي مئزرا أبيضا و تضع سماعات طبية تتدلى على صدرها، تحمل بين يديها ملفا تنظر إليه باهتمام بالغ، غير مدركة هذا الذي يصنعه حضورها المهلك بالعالم من حولها ولا به، عض على أطراف أصابعه المقبوضة يحاول كتم صوته الذي يصرخ باسمها بداخله، يملي منها عيناه اللتان كادتا تنطفئان شوقا لها، يسابقه قلبه في الوصول إليها بينما تتردد قدماه عن المسير إليها خشية أن ترده، لكنه لن يسمح لها بأن تبتعد مرة أخرى حتى لو عاش راهبا في محراب عشقها، يقضي عمره في مناجاتها و طلب صفحها .

تحركت قدماه أخيرا باتجاهها، لا يقدر على رفع عينيه عن وجهها، انطفأ العالم حوله إلا من نورها ما عادت حواسه تدرك سوى حضورها

من غير وعي رفعت عينيها لتصطدم بتلك العينين اللتين سكنتا أحلامها، تلك العينين اللتين طالما عذبتاها و جرحتاها، تلك العينين اللتين هجرت عالمها كله هربا منهما

أحست بحرارة عارمة تتلبس جسدها كله، قلبها الخائن الذي ما استطاعت يوما استعادته، حتى بعد هربها منه صار يرفرف شوقا لملاقاته وروحها تستعد لاحتضانه، من غير وعي وضعت يدها على بطنها تتحسسها.

انتقلت عيناه إلى موضع يدها لتتوقف خطواته فجأة مع إدراكه لكنه تلك الحركة و سببها.

زوجته حامل، حبيبته تحمل طفله في أحشائها، كادت المفاجأة تتسبب في سقوطه، رفع عينيه سائلا عينيها أيعقل أن ما فهمه صحيح ؟ أيعقل أنها تحمل ثمرة حبه لها طيلة هذه المدة التي هجرته فيها ؟ أكمل المسافة التي تبعده عنها، اقترب حتى أحس بحرارة أنفاسها على وجهه

- أنت تحملين ابني!!

أرادت لحظتها أن توجعه، أن تخبره أنها أحبت غيره وأن الطفل ليس منه، أنها خانته وأصبحت عاهرة مثل عاهراته اللائي فضلهن عليها، كانت تريد أن تجرحه، أن ترى الألم على وجهه، أن تجعله يحس ولو للحظات بألم المعاناة التي عيشها فيها طيلة فترة زواجهما، كانت تريد أن تمزق قلبه و كبرياءه، أن تفعل به شيئا بسيطا مما فعله هو بها.

استجمعت شجاعتها وألبست عينيها قناع التحجر ثم قالت :

- إنه ليس منك.

أطبقت السماء على رأسه، أحس بنبضات قلبه تتسارع ثم تتراخى كأنها تريد أن تتخلى عنه، وضع يده على قلبه الذي كان يهدد بالتوقف، أغمض عينيه ألما وشد عليهما بينما هي تناظره وترى هذا الألم الذي ارتسم على ملامحه.

احتقن وجهه بحمرة شديدة ثم زفر طويلا وعاد ليحاول سحب الهواء إلى داخله، يكاد نفسه ينقطع وهو ينظر إليها في وجع ارتسم على كل شبر من وجهه، توقف

عقله عن التفكير في استيعاب أنها مازالت زوجته ولم تتطلق منه، أنها غير قادرة على فعل ذلك، توقف عقله عند نقطة أن رجلا غيره امتلكها، فكاد يفقد هذا العقل و معه ذاك القلب.

امتلأت عيناه بدموع تكابر لكي لا تسقط، كيف سمح لرجل آخر أن يأخذ امرأته، كيف أوصلها إلى اللجوء إلى رجل آخر غيره، لم يعد يستطيع مقاومة هذه النّار بداخله فخرجت منه آآآآآه طويلة لفحتها وكادت تحرق وجهها .

وجدت كلماتها الغادرة التي دفعتها شفقتها عليه وهي تراه في هذه الحالة تسبقها لتصحح متعجلة

- إنه ابنك، إنه ابنك لكنني أردت أن أشعرك ولو لثوانٍ بحجم العذاب والذل اللذان تجرعتهما معك.

و كأن الحياة كانت تعود إليه بخطى بطيئة ونفسه ينتظم وهو لا يرفع عينيه عنها، مال بجذعه يمسك بركبتيه بكلتا يديه ويحاول جاهدا سحب الهواء إلى داخله:

- كدت تتسببين بقتلي!!

أجابته والغضب يمتزج بألمها .

- أنت تقتلني منذ تزوجتك في اليوم سبعين مرة.

أدرك لتوه حجم الوجع الذي سببه لها منذ عرفها، إذا كان هو لم يحتمل هذا الشعور لدقائق معدودة وكاد يموت، فكيف احتملته هي كل ذلك الوقت، كان يعرف أنه آذاها، لكنه لم يكن يدرك حتى الآن عظم ذلك الأذى ووقعه على روح عاشقة .

خرجت كلماته متأسفة متذللة :

ـ أعلم ذلك، أدركت عندما رحلت أي غبي وقاسٍ كنته، لكنني أدركت أيضا مقدار وجعك عندما جربت بعدك، عندما جربت الشوق إليك، عندما انقلب عالمي بعد رحيلك، عندما كنت أقف وحيدا هناك أكتشف حبي لك وأتحسس هديره بداخلي ممزوجا بشوق لا يرضى أن ينطفئ و ألم لا يقبل أن يتوقف، عندما كنت أشتاق لضمك ولا أجد إلا ذكراك تحيط بي، عندما كنت أشتاق لسماع صوتك و لا أسمع إلا أنات قلبي تبكيك، عندما كنت أحتاجك و أجدني وحيدا يتيما بعدك، بُعدك هدني يا لبنى، هجرك كاد يفتك بي لولا تمسكي بأمل أنني سأجدك وسأجعلك تسامحينني حتى لو قضيت عمري على أعتاب عمرك أستجديك الصّفح، حبك يا لبنى نما بداخلي دون أن أشعر به، حبك خلق طارقا آخر بداخلي يريدك أن تعرفيه وتتعرفي عليه، حبك أذلني، أوجعني وانتقم لك مني .

سكت هنيهة ثم أردف قائلا :

ـ اغفري لي يا لبنى، عودي إلى طارقك الذي أضاع دربه، دعيني أمحي كل الألم الذي تسببت لك فيه، اغفري لي و دعيني أحتمي بحبك من هذا الوجع الذي سكنني بعدك .

أحست لبنى بقلبها يتمزق على حاله، أهذا فعلا هو زوجها، ذلك الرجل القاسي الذي جرحها جرحا لم يلتئم إلى اليوم، رغم أنها استعملت كل الأدوية الممكنة ووصلت حتى إلى كيه برحيلها لكنه ما يفتأ أن يفتح من جديد مع كل ذكرى لها معه، مع استحضارها كل ألم جرعها إياه و كل مهانة أذاقها لها، تذكرت ما تطلبه الأمر من شجاعة حتى تبتعد عنه، تذكرت كل هذه الشهور التي مرت وهي تحاول بناء نفسها من جديد، بناء لبنى من دون طارق الذي حطمها وجعلها ضعيفة كبيت مهجور قديم تملأه التصدعات، هي هربت منه لترمم كسرها و تطبب جراحاتها التي تسبب لها فيها، لا يمكنها أن تستسلم الآن، لا يمكنها أن تضعف من جديد، ليس لأنه يريدها من جديد، لقد أرادها مرة و لم يتوانى عن الزواج بها من أجل تملكها، هكذا هو يرغب بما هو ممنوع فإذا تملكه كسره و رماه .

تمسكت بذكرياتها المؤلمة معه، استحضرتها لتقاومه وهي تقول :

ـ لن أعود إليك يا طارق، لو بقيت آخر رجل في الدنيا، لن أعود إليك، أنا لم أعد تلك المرأة الضعيفة بحبك، لم أعد أريدك في عالمي .

كانت تعلم أنها تكذب عليه، لأنها مازالت تعشقه و لم تقدر يوما على محو هذا العشق، و لكنها كانت صادقة في عدم الرغبة في العودة إلى جحيمه

تركته واقفا مذهولا هناك و انسحبت .

عندما عاد هو إلى وعيه أدرك أنه حضر نفسه لرفضها، لتعنتها، لم يكن ينتظر أن ترتمي بين ذراعيه بمجرد أن يطلب منها أن تعود إليه، لكنه لم يحضر نفسه لهذا الألم الذي يزيد اشتعالا كجرح صب عليه ماء مالح، شديد الملوحة، لم يحضر نفسه لهذا الحرمان و هو يراها بعد كل هذه المدة و لا يقدر على ضمها و بثها كل أشواقه، لم يحضر نفسه لرغبته في ضرب نفسه لأنه هو من فعل بها ما فعله ليفقدها، لم يحضر نفسه لفكرة أنها لم تعد تعشقه، أنها نسيته وشفيت منه .

إتصل طارق بمحمد هاتفيا، يخبره أنه وجد لبنى وأنها حامل بطفله، كان متعلقا بأمل عودة لبنى، يهلوس بها و أصبح الآن يحلم بها و بالذي تحمله بين روحها، ذلك الضوء الذي اشتعل فجأة وسط الظلمة التي صبغت حياته ولم يكن ينتظره بالمرة، حبيبته تحمل مزيج روحه بروحها، تحمل بين حنايا روحها نبضات تذكرها به في كل ثانية، لا يعقل أنها قد نسيته، لم يكن طفله ليسمح لها بذلك، لقد ربطته أشياء كثيرة بلبنى، ربطه بها الحب، الألم و الوجع، ولكن الآن هناك رابط جديد أقوى من أي شيء في العالم، هو والد طفلها وهذا رباط لن تستطيع قوى الأرض مجتمعة فكه، هذا الطفل حليفه، أرسله الله له لينقذه من فجيعة فقدها إلى الأبد .

في الأيام التي تلت رفضها، كان طارق يرابض أمام المستشفى الذي تعمل به حتى تصل، فيدخل وراءها يحمل في كل مرة هدايا رمزية، ورودا، شكولا و دباديب، قلوب حمراء أو بالونات، بينما هي تتحاشاه و الغضب يعتريها، لماذا لا يرحل من هنا و يعود من حيث أتى لماذا لا يفهم أنها لم تعد تريده، ترفض كل هداياه فيوزعها على المرضى في المستشفى، أصبح عدد كبير من الأطباء و الموظفين و حتى المرضى

يعرفونه و يلقبونه " حبيب لبنى " لا أحد كان يعرف أنه زوجها و هو لم يصحح المعلومة، كان لقب " حبيب لبنى " يبعث في قلبه الطمأنينة يجعله يتمسك بأمل أنه مازال حبيبها، كان يرسل إليها رسائل مكتوبة مع أحد الموظفين أو أحد المرضى يحاول بكلماته إذابة الجليد الذي غلف قلبها و حثها على الغفران .

كانت لبنى تكرمش الورقة و ترميها بمجرد تسليمها لها، و ما إن يخرج من حمل إليها الرسالة حتى تستعيدها و تقرأ ما كتب فيها، لطالما كان يجيد الكلام، كان ذلك سلاحه عندما أراد الإيقاع بها أول مرة، عندما كان يرسل برسائله الهاتفية كل ليلة لتستيقظ على وقعها كل صباح، لن تقع هذه المرة أيضا في فخ كلماته، و لكنها لم تكن تستطيع مقاومة أخذ هذه القصاصات وإخفائها رغم أن عقلها ينهرها عن ذلك، لكن قلبها يترجاها أن تفعل و يغلب قلبها في كل مرة وهي تقنع نفسها أنها مجرد قصاصات و كلمات .

ذات صباح جاءت كعادتها الى المستشفى، لكنها لم تجده بقي داخلها يترقب طيلة النهار تلتفت إلى الباب تترقب وصول رسالة منه.

قارب اليوم على نهايته وهو لم يظهر، استسلم أخيرا، بدل إحساسها بالراحة لأنها ارتاحت منه فاجأها إحساسها بالضيق، هل استسلم حقا، ألم يقل لها أنه سيظل عمره كله يستجديها الصفح، مجرد كلمات كعادته دائما، أخذت حقيبتها قاصدة باب الخروج من المستشفى، ما إن فتحته حتى قابلتها مجموعة من الأطفال يحملون لافتة كبيرة من قماش أحمر كتب عليها بالأبيض " لم أستسلم .. سامحي طارقك

الذي مازال يطرق باب قلبك و لن يمل حتى تفتحيه من جديد أو يموت هو على بابك "

خالجها شعور بالراحة وهي تدرك أنه مازال هنا حتى و هو في بلد آخر، ثم انقبض قلبها عندما وصلت لجملة " أويموت هو " ثم عاد إليها الغضب و هي تدرك مشاعرها هذه.

ما الذي يفعله بها هذا الرجل حاضرا أو غائبا ؟ لماذا تعجز عن الخلاص منه ؟

بعدها لم يظهر لا طارق و لا هداياه و لا رسائله لعدة أيام، كان قد عاد إلى الوطن من أجل التزامات مستعجلة و ملحة، حتى تلقت ذلك الاتصال الهاتفي.

- ألو..

- اخرجي إلى شرفتك و انظري إلى السماء.

ردت و قد عرفت صوته الذي لا يمكن أن تخطئه

- من أين حصلت على رقم هاتفي ؟

- لا يهم لبنى، أصبح لدي مئة متعاطف في مشفاك فقط قلبك الذي لم يحن، أخرجي إلى شرفتك

صعدت الدماء إلى رأسها.

ـ لماذا تتحدث معي بصيغة الأمر ؟ أتظن أنني مازلت ملكيتك ؟ لن أخرج، أخرج أنت من حياتي.

همت بإغلاق الهاتف عندما سمعته يضيف متعجلا :

ـ أرجوك لبنى، اخرجي إلى شرفتك من فضلك، لن يأخذ الأمر إلا بضع دقائق.

خرجت لبنى إلى الشرفة تنظر إلى السماء لا ترى شيئا (هذا الأحمق أيريدني أن أعد النجوم أم أن أشاهد معه القمر) فجأة اشتعل ضوء في السماء مشكلا كلمة أحبك باللغة العربية في سماء لندن، تلتها الكلمة باللغة الانجليزية ثم " سامحيني " و بعدها لاشيء بقيت تنظر إلى السماء حتى سمعت رنين هاتفها من جديد.

أسرعت ترد عليه لكن الصوت هذه المرة كان صوت شقيقتها .

باتت لبنى ليلتها ساهرة، تفكر في ذلك الذي يفعله طارق، أصبح مثل المراهقين بإقدامه على كل تلك الحركات، أيصدق حقا أن بعد كل الذي فعله بها سيسترجعها بهذه السخافات، وجدت ابتسامتها تغافلها وهي تتذكر ما يفعله، عادت و سحبت تلك الابتسامة البلهاء، تحاول تذكير نفسها بكل الألم الذي تجرعته على يديه، لا يجب أن تنسى، لا يجب أن تضعف .

ما عادت أحلام تقاومه، استسلمت روحها أخيرا، تدخل في حالة من اللاوعي كل ليلة لا تفيق إلا بعد أن يغادرها، يفعل بجسدها ما يشاء، يتفنن في تعذيبها و إذلالها لكن ذلك لم يكن يشفي غليل روحه المريضة، استسلامها هكذا بالنسبة إليه

كان يثير حنقه عليها أكثر، كان يريد أن يرى ألمها، أن يسمعه، لكنها صمتت وما عادت تشتكي كمن تعود الألم فما عاد يوجعها، يجب أن يجد طريقة توقظ وجعها، لن يتركها تنتصر حتى بصمتها.

في تلك الليلة دخل إلى غرفتها برفقة فتاة أخرى، أدركت هي من ملابسها و زينتها المبالغ فيها، طريقتها في مضغ علكتها وطريقة كلامها أنها بغي، انتظرت منه تفسيرا لكنه لم ينطق، راح يقبل تلك المرأة أمام عينيها، انتفضت هي خارجة من الغرفة، لكنه انقض عليها مانعا إياها من الخروج .

ـ لا يا زوجتي العزيزة، سأقدم لك اليوم عرضا مجانيا لتتعلمي كيف تكونين امرأة حقيقية، لعلك تتعلمين شيئا مفيدا.

صرخت في وجهه وقد خانتها أعصابها و انفلتت منها.

ـ أنت حيوان، لا يمكن أن تكون إنسانا، لقد تفوقت على قذارة الحيوانات، نعتك بالحيوان فيه إهانة لهم.

راحت تقاومه بكل ما أوتيت من قوة، أجلسها على الكرسي وقيدها عليه، ربط فمها حتى يمنعها من الصراخ أمام منظر المرأة التي كانت مستمتعة بذلك و بدأ في تقديم عرضه، انطلقت هي في الصراخ تحت قطعة القماش التي كانت تسد فمها، أغلقت عينيها ترفض رؤية ما كان يحدث أمام ناظرها، لكن أناتها، تأوهها وصرخاتها كانت تمزق آخر خيوط الصبر التي كانت تتمسك بها، عندما انتهى

العرض صرف الرجل المرأة بعد أن أعطاها أجرتها، استلقى على السرير و نام غير مبالٍ بتلك التي كانت تفقد عقلها تحت وطأة قيودها.

عندما استيقظ في الصّباح ارتدى ملابسه، حل وثاقها وانصرف، تاركا إياها منهارة غير قادرة على الحركة و قد أمضت الليلة تصارع خيالاتها .

عندما عاد في الليل طلب منها أن تنفذ ما رأته البارحة، كانت مدمرة، جسدها خانها، تخلى عنها وتركها أخيرا وحيدة، روحها تائهة، عندما لم يجد منها بدا، أدارها على بطنها وأخذها عنوة وهي غير قادرة حتى على الاحتجاج ثم نام كعادته .

****

في الصباح الباكر تلقى طارق اتصالا من الشرطة، يطلب منه الضابط الحضور على وجه السرعة.

داخل مركز الشرطة كان طارق متوترا لا يفهم سبب استدعائه.

ـ ماذا هناك حضرة الضابط، ما سبب وجودي هنا ؟

ـ سيد صبراوي، هل أحلام صبراوي شقيقتك ؟

ـ نعم سيدي، ما الأمر هل أصاب شقيقتي مكروه؟

ـ شقيقتك قتلت زوجها، ذبحته من رقبته وطعنته تسع طعنات في الصدر.

وقف طارق غير مصدق لما يسمعه، عيناه متسعتان من وقع الصدمة وهو يقول :

ـ لا بد أنك مخطئ، لا يمكن لشقيقتي أن تقتل أحدا، إنها عروس جديدة لم يمض على زواجها إلا أشهر قليلة، كيف لعروس أن تقتل زوجها ؟ أنت مخطئ بالتأكيد، لا بد أن هناك تشابه أسامي!!

ـ اجلس سيد طارق وتمالك نفسك، ليس هناك أي خطأ، لقد تأكدنا من هويتها وهوية زوجها، ورقمك كان موجودا على هاتفها باسم " أخي طارق "

انهار طارق على الكرسي، يحاول استيعاب هذه الكارثة، كيف لشقيقته أن تقتل زوجها بهذه الطريقة الشنيعة ؟ ما الذي أوصلها إلى هذا ؟ و أين كان هو من كل هذا، كيف لم يرَ يأسها ؟ آخر مرة عرف أنها ليست سعيدة لكنه لم يتوقع أنها بائسة، أنها تعاني لدرجة قتله، أتراها الغيرة ما دفعتها لفعل ما فعلته ؟ أيمكن لامرأة عاشقة أن تقتل زوجها لأنه على علاقة بامرأة غيرها ؟ أفعلتها أخته فعلا ؟

تذكر فجأة شقيقته، كيف حالها الآن؟

ـ أين شقيقتي الآن أريد أن أراها.

ـ ليس ذلك من صلاحياتي، لقد استدعيتك من أجل سماعك، هي ستقدم أمام السيد وكيل الجمهورية وهو سيقرر نوع الإجراء الذي سيتخذ ضدها.

ـ هل سمعتها هي ؟

ـ نعم، لكنها ترفض الإدلاء بأية تصريحات، يمكنك تعيين محام لحضور مراحل التحقيق معها يمكنه التأثير عليها وجعلها تتكلم، لا أخفيك سيد طارق، موقفها صعب جدا ؟ يمكن أن توجه لها تهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد، صمتها لن يزيد موقفها إلا تعقيدا، لقد وجدنا على ذاكرة هاتفها رقم مسجل باسم " المحامية " ربما يكمنك توكيلها للدفاع عنها.

أمسك طارق رأسه بكلتا يديه يحاول إيقاظ نفسه من هذا الكابوس، لكن صوت الضابط كان يؤكد له أن هذا واقع و ليس كابوسا.

ـ الوقت ليس في صالحها وعليك الإسراع بالتصرف.

إتصل طارق بمحامي الشركة ووكله للدفاع عن شقيقته، ثم اتصل برقم المحامية الذي أخذه من الضابط وأخذ منها موعدا مستعجلا، في مكتبها استقبلته بعدما عرفت أنه شقيق أحلام صبراوي، كان واضحا من صوتها أنها تعرف أحلام معرفة جيدة، أخبرها بأن شقيقته قتلت زوجها وهي لم ترتبط به إلا منذ أشهر قليلة.

ـ وجدنا رقمك على هاتفها، هل يمكن أن يكون لذلك علاقة بالأمر ؟ أنا فكرت أنها ربما وكلتك لرفع دعوى طلاق مثلا، هل تعرفين شيئا يمكن أن يساعدها ؟

ـ سيد صبراوي أنت تعلم أني مقيدة بالسّر المهني، لذا لا يمكنني إخبارك بشئ لكنني أريد التأسس في هذه القضية، يمكنني أن أفيدها، لأنني بالفعل أعرف شيئا، دعني أقابلها وأفهم منها الأمر وسأحاول جعلها تتكلم .

ـ حسنا، المهم أن تنقذيها من هذا المأزق، لا يمكن لشقيقتي أن تقتل زوجها بهذا البرود بدون سبب لا بد أن لديها دافعا قويا .

ـ سيد صبراوي ما يمكنني أن أضمنه لك أنني سأبدل قصارى جهدي ولن أتوانى في استعمال كل الوسائل القانونية للدفاع عن شقيقتك، لكن لا يمكن أن أضمن لك النتيجة، في النهاية القاضي المكلف بالقضية هو من سيقرر الحكم على ضوء الأدلة التي ستقدم له .

****

كان طارق يجلس مع محمد، يقص عليه خبر المصيبة التي حلت عليه وعلى عائلته، يخبره أن شقيقته الصّغيرة تلك المدللة قد قتلت زوجها بأبشع طريقة، لم يكن طارق مستوعبا بعد هذا الذي حدث، كيف التهى عن شقيقته ولم يسأل عنها، كيف وصل الحال بها إلى ذبح زوجها وطعنه تسع طعنات، أي غل هذا الذي كان يحركها وهي ترتكب جريمتها، أم ربما أي ظلم هذا الذي وقع عليها من زوجها حتى تفعل به ما فعلته، أيمكن أن تكون خيانة زوجها من دفعها لفعل ذلك، و هل تستحق خيانته أن تضيع حياتها و تكمل عمرها في السّجن، تذكر زوجته وصبرها، تذكر هروبها منه ومن جحيمه، لم لم تفعل شقيقته ذلك!!، لم لم تتركه وتنجو بنفسها، قاطع صوت محمد أفكاره :

ـ وما الذي تنوي فعله الآن ؟

ـ استخرجت رخصة اتصال بها في السّجن من أجل زيارتها لكن ذلك لن يكون إلا آخر الأسبوع، كلفت محاميان للدفاع عنها، يبدو أن المحامية تعرف شيئا سابقا، ستزورها وتخبرني بعدها، ليس بيدي شيء آخر الآن .

ـ هل أخبرت والديك ؟

تنهد طارق بضيق وهو يرد :

ـ ليس بعد، لا أعرف كيف أنقل الخبر إليهما، سأرى ما تخبرني به المحامية أولا .

ـ على كل إذا احتجت لأي شيء يمكنني تقديمه، فأنت تعرف أنني لن أتأخر .

ـ أعلم ذلك، شكرا لك محمد

فجأة تذكر طارق حال صديقه فسأله :

ـ أين وصلت أنت و سلمى ؟

ـ أين تركتنا.

ـ محمد أريد أن أسألك سؤالا .

ـ ماذا هناك ؟

ـ أيعقل أن تظلا مرتبطين بحجة التعويض الذي تصر أنت على دفعه و ترفض هي أخذه ؟

ـ و لم لا يعقل ؟

ـ لأنني أظنها مجرد حجة، حتى أني على يقين أنها حجتكما أنتما الاثنان، فكلاكما يرفض هذا الطلاق وكلاكما يرفض الاعتراف بذلك.

عندما لم يجد طارق جوابا من صديقه أكمل قائلا :

ـ هي حجتكما في الحب تحت غطاء الكبرياء الأحمق، فأنتما تحبان بعضكما لكنكما غبيان أحمقان تتصرفان هكذا، بينما ليس هناك أسهل من الاعتراف بذلك والعودة لبعضكما

جاءه هذه المرة صوت محمد ساخرا:

ـ لطالما ظننت أنك عبقري يا طارق.

ـ حسنا اقنعني أنك لا تحبها يا محمد.

ـ لا أريد إقناعك بشيء .

ـ لماذا إذن فعلت كل ما فعلته معها إذا لم تكن تحبها، و لماذا ترفض رفع دعوى طلاق عادية وتنتهي من الأمر.

ـ ليس لدي الوقت طارق ولا أنت، لديك من المشاكل ما يكفيك.

ـ محمد اسمعني، لطالما كنت أنت الرّجل الجيد وأنا السّيء، أنا اليوم أدفع ثمن أخطائي وأتمنى لو يمنحني القدر فرصة لإصلاحها وإصلاح حياتي، لا تضيع فرصتك محمد، أنت تحبها وتكابر، صارحها بذلك و أعرض عليها البدء من جديد، إذا قبلت فتمسك بها وعش سعيدا وإذا رفضت ستكون أنت قد فعلت ما عليك وهي ليست قدرك من البداية، مزق الصفحة وابدأ من جديد، مع أنني متأكد من أنها تحبك أيضا ولا تعرف كيف تصارحك، في النهاية هي امرأة والإقدام على مثل هذه الخطوة صعب جدا عليها، تجاوز كبرياءك يا صديقي و قاتل من أجل المرأة التي تحب.

ـ متى أصبحت بهذه الحكمة؟

ـ منذ أن أيقظني القدر بصفعاته المتوالية على وجهي، كنت أعيش حياتي لاهيا، ظلمت زوجتي و ها أنا أفقدها، و شقيقتي في السّجن لأنها قتلت زوجها بينما كنت لاهيا عنها.

ـ أنا و سلمى لا يربطنا شيء مما تقوله، لذا سننفصل.

ـ لا تتغابى يا محمد حتى تفقد فرصتك .

عاد طارق إلى انجلترا ليتحدث مع لبنى، كان يريد أن يخبرها بما وقع لشقيقته، كان محتاجا لشخص يبثه خوفه وجزعه على أخته الصغيرة في انتظار موعد زيارته لها، ولم يدر بنفسه إلا وهو يستقل الطائرة مسافرا إليها، وجدته هناك واقفا خارج

المستشفى بانتظار قدومها، ما إن رأته حتى عاد شعورها بالغضب يغطي على أي شعور آخر لديها، احتقن وجهها وهو يقترب منها يتبعها كعادته ملقيا عليها التحية دون أن ترد عليه كالعادة .

ما إن فتحت الباب الزجاجي و دخلت، حتى دفعته بكل قوتها ليصطدم بوجه طارق الذي صرخ ساقطا على الأرض والدماء تنزف من أنفه الذي يؤلمه بشدة، أسرع الجميع إليه بينهم طبيب يتفحص أنفه وجبهته المتورمان، بينما كانت هي واقفة هناك تربط ذراعيها على صدرها وتنظر إليه شزرا، كأنه هو من ضربها بينما يدرك هو أنها فعلتها متعمدة .

تم نقله إلى الغرفة و قدم له العلاج تشقق في الأنف و تورم في الجبهة.

كانت في مكتبها تقضم أظافرها من الغيض والقلق، كيف أوصلها لهذه الحالة ؟ لقد ضربته بباب زجاجي حتى شقت أنفه، متى أصبحت عنيفة بهذا الشكل ؟ ورغما عنها كان جانب منها راضيا عن كسر أنفه، هكذا سيفقد جزءا من جماله وجاذبيته التي تغري النساء.

عندما كان خارجا قصد مكتبها، طرق الباب و دخل، رأت منظره فهالها وجهه المتورم والجبس على أنفه، كان يتألم ألما داخليا، وقف قبالتها يطالع وجهها ثم قال :

ـ أعلم أني استحقيت هذا منذ وقت طويل، كنت أحتاج لضربة مثل هذه لأستفيق، لكن صدقيني لقد تلقيت ضربات أقسى بكثير من هذه، إذا كانت هذه قد قسمت

أنفي و جبهتي فرحيلك يا لبنى قسم قلبي ودخول شقيقتي السّجن قسم ظهري وورم روحي بل وذبحني، أحس أن الله قد انتقم لك مني يا لبنى فصار الوجع يغلف أيامي الحاضرة و القادمة.

صمت لبرهة من الزّمن ثم أردف قائلا :

لو احتاج الأمر أن تضربيني هكذا حتى تفرغي غضبك فلا بأس، المهم أن تصلي يوما إلى القدرة على مسامحتي.

جاءه صوتها بعد أن استوعبت كلماته وهي تسأل :

شقيقتك دخلت السّجن ؟

ـ نعم، أحلام قتلت زوجها.

وضعت يدها على فمها المفتوح دهشة، غير قادرة على قول شيء آخر و قد ألجمتها الصدمة

هم هو بالخروج ثم استدار و اقترب منها حتى ما عاد يفصل بينهما إلى أنفاسهما و هو يقول في صوت مبحوح ممزوج بالألم :

ـ أنا آسف لأنني أوصلتك إلى هنا و آسف لأنني أوصلت نفسي لهذا، لا تظني أن ذلي يرضيني أو يتركني غير مبالٍ، لو كان للمرء فرصة العودة بحياته إلى الوراء

لمحوت كل ما فعلته سابقا، الشيء الوحيد الذي كنت سأحتفظ به هو زواجي منك، لكنني كنت سأحبك بشكل مختلف، كنت سأقدر حبك لي و أحتفظ به .

ثم خرج، بينما أطلقت هي نفسها الذي كتمته عندما اقترب منها و انهارت على الكرسي و هي تردد (لن نبدأ من جديد، يا إلهي أنا أعود إلى نقطة الصفر)

سافر طارق مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يرسل أية هدية كانت تصلها رسائل منه على هاتفها تتسارع أصابعها لفتحها فتجدها فارغة، لم تعد تفهم لماذا هذا الصمت لماذا هذا الفراغ ؟ ما الذي يعنيه برسائل فارغة يذكرها أنه موجود، يمنعها من نسيانه، لكنه لا يقول شيئا، إلى أن اتصلت بشقيقتها تتحرى عن أخبار المصيبة التي حلت بعائلة صبراوي بدخول أحلام السجن لأنها قتلت زوجها، لقد انتشر الخبر و الكل لا يتحدث هناك إلا على هذه الجريمة، انقبض قلبها و هي تتخيل حالة طارق، كم تمنت ساعتها لو أنها بقربه تواسيه، كم قاومت رغبة جامحة في الاتصال به لتسأله كيف يتحمل الأمر، لكنها لم تعد قادرة على ذلك، ما فعله بها طارق دمرها، فكرت لحظات و تساءلت هل هو ذنبها يخلصه اليوم طارق في عرضه وعرض شقيقته، لكنها دفعت عنها هذه الأفكار، هي لم تعد راغبة في التشفي فيه، بل ما كانت قادرة يوما على ذلك، اليوم هي تشفق عليه و على شقيقته أحلام و على كل العائلة التي ضاعت بعد ما حدث .

كانت أحلام تجلس مقابلة لمحاميتها في غرفة الزيارة المخصصة للمحامين، سبق و زارها المحامي الذي وكله شقيقها طارق، لكنها قابلته بصمت مطبق رافضة

الإجابة على أي من تساؤلاته، عرفت وجه محاميتها بمجرد رؤيتها و تساءلت كيف وصلت إلى هنا.

ـ هل وكلك طارق ؟

ـ نعم

سألتها في تخوف :

ـ هل يعرف شيئا ؟ هل أخبرته ؟

عرفت المحامية بخبرتها وذكائها أن أحلام تنوي التمسك بالصّمت، غير مبالية بمغبة ذلك وتأثيره في الحكم عليها، لذا قررت أن تحتال عليها لإجبارها على الكلام.

ـ أنا لم أخبره بشيء، لكنه يعرف لقد وجد الملف الذي حضرته ذات يوم و قدمته لوالدة زوجك من أجل إجباره على تصحيح خطئه، يبدو أنه كان يحتفظ به في شقتكما والأوراق أوصلته إلى الحقيقة الواضحة.

تذكرت أحلام تهديدات أسامة عندما كان يهددها بتقديم هذه الوثائق وفضحها أمام عائلتها، إذن فقد عرف طارق بفعلتها الشنيعة، أتراه كرهها و احتقرها ؟ أيصر على الدفاع عن سمعة العائلة أم عنها هي ؟

ـ كيف كانت ردة فعله، أقصد هل أخبرك بشيء عني بعدما عرف ؟

ـ أنا لم أره في اللحظة التي علم فيها، لكن عندما جاء إلى مكتبي كان ما يهمه أن أخرجك من هذا المأزق.

دمعت عينا أحلام وهي تتذكر كلماته آخر مرة رأته "أخوك الوحيد سيبقى دائما سندا لكِ " أتراه مازال متمسكا بموقفه حتى بعد أن عرف أنها لطخت شرفه ؟

ـ لماذا قتلته أحلام، ما الذي دفعك لذلك ؟

سكتت أحلام غير راغبة في الإجابة على هذا السؤال.

ـ يجب أن تخبريني الحقيقة، أعطني سببا أتمسك به للدفاع عنك.

ـ ليس هناك أي سبب تتمسكين به، أخبري شقيقي أنني لا أريد دفاعا يكفي ما فعلته بعائلتي حتى الآن، إذا ذكرت السبب سنعود لسبب زواجنا وسأضطر إلى الإعلان أنه اغتصبني قبل الزواج، أنت تعلمين أن والده سياسي معروف والصحافة ستتتبع تفاصيل القضية، عائلتي ستتدمر وشقيقتي ستطلق، لقد استحملت الجحيم طيلة هذه الأشهر من أجل عائلتي لا يمكنني أن أفضح الأمر الآن، لولا ما فعله آخر مرة لكنت احتملت أكثر لكنه أفقدني عقلي لا أعلم كيف فعلتها كيف اكتسبت تلك القوة لأفعلها ؟ لم أكن في وعيي ساعتها، لو كان عقلي حاضرا ما فعلتها، ما كنت وضعت عائلتي في هذا المأزق.

ـ ما الذي فعله أحلام حتى أفقدك عقلك ؟

كانت أحلام تتحدث وهي في حالة لا وعي، عادت صور تلك الليلة الشنيعة تهاجم عقلها وتضغط على ذكرياتها، دموعها تنزل وديانا وهي تقول :

ـ لقد مارس الفحشاء مع بغي أمام عيني، داخل غرفتي، أجبرني على مشاهدة ذلك، أجبرني على سماع صوتها وتأوهاتها، لقد احتملت كل ما فعله بي، اغتصبني كل ليلة، لأشهر كاملة كان يقتل روحي كل ليلة واحتملت، لكنه أفقدني عقلي في الليلة التي سبقت وعندما عاد بعدها لم أدرِ بنفسي و أنا أطعنه، لا أتذكر حتى كيف ذبحته، عندما عدت إلى عقلي وجدتني جالسة أمامه على السرير، أمسك السكين بين يدي بينما هوغارق في دمائه، لقد أفقدني عقلي، أفقدني عقلي، أفقدني عقلي ...

ضغطت المحامية على يد أحلام تحاول إعادتها إلى الواقع و هي تراها تكرر الجملة الأخيرة مرة بعد أخرى دون أن تتوقف، اشتدت حالة أحلام سوءا فاضطرت المحامية إلى الاستعانة بالحارسة، تم نقلها إلى عيادة السجن و إعطائها حقنة مهدئة دخلت على إثرها في حالة سبات رويدا رويدا.

كان طارق يجلس في مكتب المحامية التي كانت في حيرة من أمرها، أتخبر شقيق موكلتها بكل القصة لتنقذ موكلتها، أم تخفي الأمر و تواكب صمت هذه الأخيرة و هي موقنة أن هذا سيقضي على أية فرصة لديها في النجاة أو تخفيف الحكم، أدركت بعد تلك الزيارة أن موكلتها في حالة نفسية صعبة وأن لديها فعلا دافعا قويا للقتل، هذا الأمر هو الطريقة الوحيدة التي يمكن استغلالها للدفاع عنها، وهي سبيلها الوحيد للنجاة، لكنها ترفض البوح به وهي ليست في كامل عقلها لتكون مسؤولة

عن قراراتها، ما عساها تفعل أتنقذها وتفضح سرها أم تصمت وتشاركها انتحارها غير المعلن .

ـ ما الذي حدث هل أخبرتك شيئا ؟

ـ سيد صبراوي أريد أن أخبرك شيئا ترفض شقيقتك البوح به، لكنني لست متأكدة من ردة فعلك وقدرتك على استيعاب الأمر.

ـ ماذا هناك، ما الأمر الذي تخفيه شقيقتي !!

ـ أولا أريد أن أخبرك أن موقف شقيقتك في هذه القضية صعب جدا، لديها فعلا دافع قوي لقتله، لكن فضحه قد يضر عائلتك كلها، أختك ليست في كامل قواها العقلية، علينا اللعب على هذه النقطة بالذات، لكنني لا أستطيع اتخاذ هذا الطريق وحدي دون موافقتك وشقيقتك ترفضه حفاظا على سمعة عائلتك.

ـ ما هذا السّر الخطير الذي تخفيه شقيقتي ؟

ـ زوج شقيقتك اغتصبها قبل أن تجبره على الزواج منها حتى لا تدخله السجن.

إشتعل الغضب في بريق عينيه، يعكس النار التي اتقدت فجأة بداخله وهو يسأل :

ـ ما هذا الكلام الذي تقولينه ؟

راحت تقص عليه القصة كاملة في حذر وهي تختار كلماتها بعناية، رغم أنه لم يكن لديها متسع من الاختيار، فالأمر كان قاتلا لأي رجل يدنس شرفه وهو في غفلة

عنه، عندما انتهت من سرد ما كان صمتت متوجسة تترقب ردة فعله، لكنه فاجأها بأن استأذن للخروج وهو يقول:

ـ اعذريني، سأعود بعد لحظات.

رأته يغادر المكتب خارجا فتعجبت وقامت تراقبه من نافذة مكتبها لتراه يدخل سيارته و يغلق عليه بابها، انتظرت تحرك السيارة لكن ذلك لم يحدث، عندما أمعنت النظر رأت فمه مفتوحا على آخره كأسد يزأر في لحظات غضبه القصوى، رغما عنها و رغم عدم وصول صوته الذي كانت السيارة المغلقة تحجبه، تحركت خطوة للوراء و قد هالتها تعابير وجهه المتألمة بشدة، كرجل جريح تلقى لتوه طعنات سكين متتالية اخترقت أحشاءه .

كان هو داخل سيارته يحاول السيطرة على ذلك الاحساس بالغضب والقهر والعجز الذي سكنه، إحساس قاتل لم يعرف له مثيلا في حياته، رغبة جامحة تخللته تهجم على كل حواسه الأخرى، رغبة في القتل، قتل هذا الحيوان الذي تجرأ على شقيقته وعلى شرفه، ليتذكر فجأة أن هذا الحيوان قد قتلته أخته بالفعل، شعور آخر اجتاحه هذه المرة شعور بالخذلان، أين كان هو وشرفه ينتهك ؟ أين كان هو حتى تضطر شقيقته للثأر لنفسها دون اللجوء إليه ؟ كان لاهيا بالركض وراء شهواته في اللعب مع النساء لعبة كزانوفا الذي لا تقاومه امرأة، هذه المرة تحول إحساسه إلى شيء آخر لم يستطع تفسيره، ألم رهيب يحرق رأسه و قلبه و سؤال يقرع أفكاره بقوة أتراه هو السّبب ؟ أتراه الدين يُرد إليه في شقيقته بسبب ما فعله هو في شقيقات

الآخرين، ارتسمت فجأة صورتها هي بكل الألم الذي سببه لها، صورة زوجته وهي تعاتبه في صمت قاتل دون أن يحن قلبه عليها، لتعود صورة شقيقته تهاجم كل الصور الأخرى مطيحة بها، شقيقته في السّجن لأنها قاتلة ...

استجمع قواه وهو يتذكر أنه أمام مكتب المحامية وأن عليه العودة لإيجاد حل من أجل إنقاذ شقيقته من الإعدام، ترجل أخيرا من السّيارة عائدا للمكتب.

عندما دخل المكتب من جديد وجلس على الكرسي مقابلا للمحامية، طالعت هي وجهه لتجد خطوطا جديدة قد ارتسمت على جبهته وتغير وجهه الجذاب دائما إلى وجه قاسٍ يكتم غضبا رهيبا، يخشى من يراه أن يفتح معه موضوعا أو حتى أن يلقي عليه السلام، عندما سمعته يقول في هدوء غريب فاجأها :

ـ أريد أن أعرف الآن وضعها في هذه القضية وماذا لدينا لنفعله.

ردت المحامية في صوت هادئ يخفي تأثرها الشّديد بحالته هذه.

ـ لا أكتمك حقيقة أن الموقف صعب جدا، لو كانت قتلته في ذلك اليوم الذي ارتكب فيها فعلته أمامها أوفي نفس الليلة لكان الدفاع أسهل، لكنها فعلتها ليلة كاملة بعد الذي حدث ولا إثبات على ماحدث إلا مجرد تصريحاتها.

جاءها صوته الحاد :

ـ والحل ؟

ـ سأتمسك بحالة الجنون المؤقت وقت ارتكاب الجريمة وأنها لم تكن في وعيها، سأطالب بإجراء خبرة نفسية لتحديد حالتها، خاصة و أنها لا تتذكر تلك اللحظة التي قتلته فيها.

سكتت المحامية هنيهة ثم أضافت :

ـ أتمنى أن يوقعنا حظنا في خبير جيد و ألا يستعمل والد القتيل سلطاته وأمواله لتحريف الخبرة لصالحه.

رفع طارق حاجباه مستنكرا:

ـ و هل يمكنه فعل ذلك ؟

ـ بالطبع، مع الأسف هناك أناس يبيعون ذممهم، وغريمنا رجل سياسي مقتدر له صيت سيحاول الدفاع عنه بقوة سيستعمل أمواله ومعارفه، يمكنه حتى أن يصل إلى القاضي المكلف بالقضية إذا كان ممن يمكن شراؤهم، كما أنني أظن أن الصّحافة ستتابع القضية، لذا أريد ان أحذرك منذ البداية، المعركة لن تكون سهلة.

ـ أفهم من هذا أنني يجب أن ألجأ أنا أيضا للطرق الملتوية ؟

ردت المحامية في ثقة تعودتها:

ـ ذلك اختيارك أنت، أنا أوضح لك الأمر، من جهتي أنا لا أدخل في هذه الطرقات، أتعامل بالقانون و فقط، لكن المشكلة أن شقيقتك ترفض الحديث مع

محامٍ آخر لذا أظن أنك مجبر على إبقاء توكيلي في القضية لمصلحتها، وإذا أردت توكيل محامٍ آخر بجانبي يستعمل هذه الطرق فليس لي أن أمنعك، على أن أقوم بعملي دون تدخل من أحد.

ضغط طارق بأصبعيه على عينيه وهو يزفر في ضيق من يدرك حقيقة واقع مر يفرض نفسه عليه، فرغم أن العالم لا يخلو من أناس لا يبيعون ضميرهم بمال الدنيا كلها، إلا أن من يفعل ذلك في المقابل أفسد الأمر على الجميع، كحبة فاكهة فاسدة إذا ما وضعت وسط صندوق مليء بالفواكه الطازجة فسيتفشى الضرر منها إلى باقي الثمرات السليمة، فيفسد الصندوق كله، هكذا كان الحال عليه ولا أحد اليوم أصبح يثق في شيء والعدالة أهم ما يبنى عليه مجتمع ما وأساسه، ويمكن لقاضٍ واحد فاسد أو خبير فاسد أن يضيع عائلة بأكملها ويزرع انعدام الأمان والثقة في مجتمع بأسره، والمشكلة أننا أصبحنا نعاني مشكلة ضمير في كل المجالات إلا ما رحم ربي.

رفع عينيه إليها من جديد وهو يقول:

ـ حسنا، قومي أنت بعملك كما يقتضيه القانون واجعليها تتكلم وأنا سأفعل ما يتوجب علي من جهتي .

****

كانت الأيام تمر متشابهة لا جديد فيها، دخل محمد مكتبه أغلق الباب وراءه وتقدم خطوات ليقف مصدوما أمام ما يراه.

كانت سلمى تجلس هناك في انتظاره، تنظر إليه و تنتظر وصوله إليها.

عندما استعاد محمد وعيه وقال :

ـ لم تخبرني السكرتيرة أنك هنا !!

ـ أنا طلبت منها ذلك.

ـ لماذا ؟ ماذا هناك ؟

ـ أردت أن أناقش معك موضوع طلاقنا، هلا جلست من فضلك.

تقدم محمد إلى حيث تجلس سلمى و جلس قبالتها دون أن يقول شيئا، ينتظر أن تبدأ هي بالكلام

ـ لماذا لا تريد إنهاء موضوع الطلاق محمد.

نظر محمد إلى زوجته يبحث عما وراء كلماتها ثم أجاب :

ـ لماذا لا تريدين أنت إنهاءه، أظن أن الموضوع كله معلق بموافقتك.

ـ على ماذا، على أن آخذ منك ما ليس لي ؟

ـ إنه حقك، كل امرأة تطلق تأخذ تعويضا، لم أنت تعاندين ؟

ـ حقي ؟

ـ أجل !!

ـ حسنا، إذا كنت تريد أن تتحدث عن الحقوق لم لا نتحدث عن حقوقك أنت ؟

أجاب محمد في دهشة واضحة :

ـ الأمر مختلف فأنا الرجل.

ـ أنا لا أتكلم عن المال، بل عن حقوقك الأخرى.

ـ لا أفهم، ما الذي تقصدينه ؟

ارتفع صوت سلمى فجأة و قد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها :

ـ بل تفهم جيدا، لكن مشكلتك أنك لم تكن صريحا يوما معي، و إذا أصريت على ذلك فلا بأس لكنني قررت أن أكون صريحة و ليحدث بعدها ما يحدث.

سكتت و هي تنظر إليه لعله يقول شيئا، لكن أمام صمته واصلت هي:

ـ لا بد أن محاميك أخبرك أن هذه التعويضات تكون عند الطلاق التعسفي و بعد الدخول و تكون عن الضرر المسبب للزوجة وعن العدة و المسكن، فعمّ تريد أنت

تعوضي إذا كان هذا الطلاق أنا من طلبه وإذا كنت لم تلمسني يوما و لم تأخذ حقوقك علي و إذا كنت ستطلقني و أنا مازلت عذراء، فعمّ تريد تعويضي ؟

بقيت سلمى تنظر إليه و كأنها تستجديه أن يجيبها، لكنه لم يفعل و ظل على صمته بل و لم يكن ينظر إليها حتى، عند ذاك انفجر غضبها.

- أجبني محمد، على الأقل تحدث إلي.

رفع محمد عينيه إلى سلمى يناظرها، عندما رأت نظراته أدهشتها وأرعبتها وهي تسمع صوته المتأثر:

- عن الأذى الذي سببته لك.

- عن أي أذى تتحدث ؟

- أنا اتهمتك بخيانتي و حاولت ...

صمت محمد و صوته يكاد يخنقه لكنه واصل بصعوبة :

- حاولت اغتصابك لأخذ حقوقي المزعومة و تسببت لك في نوبة كادت تقضي بحياتك.

حاولت سلمى استجماع شجاعتها لمواصلة هذه المحادثة التي أصبحت تأخذ منحى آخر غير الذي توقعته.

ـ لهذا سافرت معي إلى أمريكا وفعلت ما فعلته ؟ لهذا تكفلت أنت بمصاريف العلاج ؟ لهذا بقيت معي هناك تتحمل حالاتي ومعاناتي ؟

ـ لقد حدث ما حدث في نفس الليلة التي حاولت فيها ...

قاطعه صوتها :

ـ محمد، لقد كان مرضي ورم في الدماغ و لا علاقة له بما فعلت أنت، لقد كان موجودا قبلا وتصادف أن ظهرت آثاره في تلك الليلة.

خرج صوته زاجرا :

ـ لقد حاولت اغتصابك !!

ـ لقد كنت زوجتك.

ـ و هل يحق للرجل أن يغتصب امرأة لأنها زوجته ؟

ـ و لم يكن يحق لي أن أمنع عنك ما هو حق لك .

وقف محمد متحاشيا النظر إليها وهو يقول :

ـ مهما يكن، لم يكن يحق لي أن أتصرف كما فعلت، لقد تحولت ساعتها إلى حيوان بلا عقل وهذا ما لن أسامح نفسي عليه أبدا.

وقفت و أمسكت ذراعه لتمنعه من الانصراف:

ـ لقد توقفت محمد و لم تفعل.

ـ لأنك كنت تبكين.

ـ كان يمكن لضعفي أن يشعرك بأنك أقوى.

ـ لكنه أشعرني ببأسي وحقارتي!!

ـ لأنك رجل حقيقي، كرامتك و أخلاقك لم يسمحا لك بالتمادي.

ـ لم يتبق لي ساعتها لا كرامة و لا أخلاق.

ـ بل كنت ساعتها في قمة أخلاقك و كرامتك.

ـ أيا يكن الأمر يجب أن تقبلي التعويض حتى يتم الطلاق.

ـ و إذا لم أقبله ؟

أفلت محمد ذراعه من يد زوجته ثم نظر إليها مجيبا :

ـ لن أطلق.

ـ سنبقى هكذا لسنوات محمد.

ـ لا يهمني.

ـ أيمكنك الجلوس حتى نكمل حديثنا !!

ـ ليس هناك ما نضيفه.

ـ من فضلك ..

جلس محمد وجلست سلمى مكانها و بعد برهة من الصّمت استأنفت حديثها :

ـ لقد قابلت طارق.

ـ و إذن !!

ـ لقد قال أنك ترفض الطلاق وستواصل في رفضه، لأنك تحتج بالتعويض حتى أظل زوجتك.

تذكر محمد حديثه مع طارق ثم توقع أن سلمى جاءت هنا لمحاولة إقناعه بالطلاق لأن طارق أخبرها ذلك، نظر إليها موجها سؤاله:

ـ أنت تريدين هذا الطلاق بشدة أليس كذلك ؟

ـ أظنك تريده أكثر مني لتتخلص مني و تبدأ حياتك.

ـ أنت طلبته في أول يوم لزفافنا !!

سكتت سلمى لا تجد ما تقوله عندما سمعته يضيف:

ـ أريد أن أسألك سؤالا.

ـ تفضل!!

أحست سلمى بنظراته تتفحص تفاصيل وجهها فرفعت رأسها إليه، عندما فعلت نطق هو..

ـ ألم تجدي بي سببا واحدا يمكنه إقناعك بمحاولة ترك فرصة لي، سببا واحدا كان يمكن أن يجعل زواجنا ينجح، أكنت سيئا إلى هذه الدرجة و لا يمكن احتمالي!!

طأطأت رأسها وهي تحاول منع نفسها من البوح له بمكنونات قلبها، بحبها وعذاباتها، لكنها لم تجد الجرأة، لذلك رفعت رأسها من جديد تنظر إليه في تأثر و هي تقول :

ـ وجدت بك أسبابا كثيرة و لم تكن سيئا أبدا، لكنك لم تعد مهتما و لم ألمح منك إشارة على أنك تريد لزواجنا أن ينجح و يستمر.

أجاب محمد في تعجب واضح :

ـ إشارة ؟ ماذا كان يفترض بي أن أفعل وأنت تعلمينني يوم زفافنا أننا سنبقى أخوين و نطلق بعد مدة لأننا سنتظاهر فقط أمام الناس بأننا زوجين، ماذا كان يفترض بي أن أفعل وأنا أجدك تنفرين مني وتفضلين صحبة أي كان على تواجدي معك ؟ ما كان يفترض بي فعله وأنت تنامين في غرفة وحدك وأنا في غرفة أخرى ؟

أحسّت سلمى بالأمل يصحو بداخلها و لم تستطع منع نفسها من السؤال :

ـ لو عادت بنا الأيام ووجدت أني تركت لك فرصة، أكنت استغليتها؟

سكت محمد يرفض الإجابة أو الاعتراف بشيء، لكن سلمى كانت مصرة على معرفة الجواب

ـ محمد هل رغبت ... هل تمنيت يوما إنجاح زواجنا ؟

ـ ما الفائدة الآن ؟

ـ أرجوك محمد، أجبني مرة دون محاولة الهروب من أسئلتي.

نظر محمد إليها نظرة إصرار و تحدٍ، ربما لن يفيد ذلك في شيء الآن و لكنه قد يريحه ويحرره، بعدها لن يضطر لإخفاء شيء و سينتهي الأمر كله.

ـ نعم رغبت، تمنيت و قاومت، قاومت رغبتي بك، قاومت وجودك بجانبي على بعد أمتار قليلة مني، قاومت رغبتي في فتح بابك كلما عدت ليلا والارتماء بين أحضانك، قاومت برودة سريري ورائحتك القريبة مني، قاومت أنك حلالي شرعا وحرام علي بعرف أنت وضعته، قاومت رغبتي في احتضانك حتى إيلامك من أجل كل الألم الذي تسببينه لي، قاومت رغبتي في تقبيلك حتى إسكات أنفاسك لأنك لم تشعري بأنفاسي التي كانت تنقد في حضورك، لأنك كنت تعيشين و تخرجين و تجعلينني أعيش حياتي بين برودة سريري و برودة الحمامات التي كنت آخذها لاطفاء شوقي إليك ورغبتي بك، قاومت نومك بين أحضاني كطفلة لا تبالي بي بينما كنت رجلا يحتضن زوجته و يقاوم شياطينه، نعم رغبت و لكن ما فائدة ذلك وأنت في عالمك لا تعلمين شيئا عن رغبتي ولا تبالين بها.

وقف محمد مجددا واتجه ناحية النافذة، كان واقفا هناك ينظر إلى الحياة خارجا عندما أحسّ بذراعين تطوقانه ورأس يرتمي على ظهره، لم يفهم ما كان يحدث، لكنه كان يدرك أنها سلمى، أحسّ بحرارة جسدها وعرف رائحتها التي سكنته أيام المستشفى، رغم أنها اليوم خالية من مزيج رائحة الأدوية و لكنها كانت هي، هو يحفظها من أيام المستشفى ورغم مرور كل هذا الوقت إلا أن رائحتها لم تغادره، بقي جامدا مكانه في وضعه ذاك إلى أن سمع صوت بكائها، حينها أفلت قبضتيها واستدار وهو لا يزال ممسكا بيديها وينظر إليها في تساؤل صامت، غير قادر على استيعاب هذا الذي يحدث، رفعت هي رأسها إليه والدموع تنهمر على وجنتيها وقالت في صوت تكاد تخنقه العبرات :

ـ لو تعلم كم تمنيت أن أسمع منك هذا الكلام، لو تعلم كم مرة قاومت رغبتي في النهوض من سريري و فتح الباب لك و أنا أسمع خطواتك المتثاقلة ليلا، لو تعلم كم مرة تمنيت أن تخطئ سريرك إلى سريري، لو تعلم كم حمدت الله على مرضي، لأنه أعطاني فرصة النوم في أحضانك والتغلغل إلى حياتك .

سكتت هنيهة بينما هو مذهول يسمع كلماتها محاولا استيعابها، ثم أردفت :

ـ لو تعلم كم أحبك و كم عانيت و أنا أظنني أحبك حبا مستحيلا، من طرف واحد

كان هو غير مصدق هذا الذي يحدث، كأنه في حلم عندما ارتمت في حضنه و هي تخبره كم تحبه أحس بحاجته للتأكد أنه ليس في حلم، أغمض عينيه ثم فتحهما وكانت هي مازالت هنا مرتمية في أحضانه، دموعها تبلل قميصه وصوت بكائها

يمزق فؤاده، عندما لم تجد ردا منه انتابها القلق، رفعت رأسها إليه فانفجر هو ضاحكا.

ضحك كما لم تره يضحك قبلا، لم تستوعب سلمى مغزى هذه الضحكة، أتراه يستهزأ بها وباعترافها ؟ هل أخطأت فهم كلماته ؟ بقيت تنظر إليه لا تعي ما تفعله، عندما أمسك وجهها بكلتا يديه و توقف عن الضحك.

ـ أتعلمين شيئا ؟

أومات برأسها أن ماذا غير قادرة على الكلام!!

ـ لقد قال طارق أننا غبيان أحمقان نتحجج بالتعويض لرفض الطلاق، بينما ما علينا إلا الاعتراف بأننا نحب بعضنا.

عند سماع ذلك انفرجت أساريرها راحة وهي تجيبه:

ـ لقد قال لي ذلك عندما قابلته .

ـ أننا غبيان أحمقان ؟

ـ لا، الباقي لكنه استغنى عن شتمنا، أخبرني أنه أضاع لبنى من بين يديه بغبائه وأن الفرصة مازالت أمامنا، أردت تصديقه بقوة عندما أخبرني أنك لولم تكن تحبني لكنت طلقتني منذ مدة طويلة، لذلك جئت، أردت أن أتأكد وأنا أتمنى من كل قلبي أن يكون محقا.

ـ لقد اتهمته دائما أنه أحمق يظن نفسه عبقريا، الآن أعترف أنه عبقري، كيف فهم هو ولم أفهم أنا ؟

سألته سلمى في دلال وهي تريد أن تسمعها أخيرا من زوجها :

ـ تفهم ماذا ؟

ابتسم وهو ينظر إلى زوجته و يحلم بأيام السّعادة التي سيتقاسمانها معا، بكلمات الحب والعشق والغزل التي يمكنه أن يقولها لها، بقبلاتها، بأحضانها و حبها، بكل الحب الذي يحمله لها في قلبه الذي سيعوض يتمه في رحاب قلبها.

انحنى قليلا ووضع قبلة على شفتي زوجته يتذوق شفتيها لأول مرة، بينما كانت هي تذوب بين يديه، كانت تلك قبلته الأولى كرجل وكانت تلك أول مرة تتلقى سلمى فيها قبلة من رجل ولم يكن محمد أي رجل، كان زوجها وحلم حياتها الذي لم تدرك أنه هو، حتى كادت تفقده لكنها الآن تستعيده بفرح لا تسعه الدنيا .

عندما رفع رأسه، نظر إلى عيني زوجته فوجد الدّموع تملأهما بينما وجهها يشع حمرة و خجلا لم يستطع منع نفسه من التفكير أنها جميلة جدا، رغم أنها كانت بملامح عادية لكن قلبه كان يراها أجمل امرأة في العالم، أدرك ساعتها أنه عاشق أطاح به العشق منذ زمن، رغم أنه كان ينكر ذلك على نفسه، ابتسم و هو يقول :

ـ أحبك يا امرأة، لطالما ظننت أني أريد أن أوجعك لغرورك وقسوتك، لكنني أدرك الآن أني أريد فقط أن أحبك ثم أحبك و بعدها يمكن أن أحبك من جديد.

ابتسمت هي سعيدة جدا و قلبها يقفز فرحا بداخلها، لا تستطيع رفع عينيها عنه.

ـ ذلك عقاب عادل أنا موافقة عليه.

ـ إذن حضري نفسك من الآن فصاعدا ولا أقبل أي طعن أو احتجاج .

ارتمت مرة أخرى في أحضانه.

ـ لن أفعل، أحبني كيفما تشاء و أنا سأقبل بكل ما يجود به قلبك .

جاءها صوته قائلا :

ـ أنذهب إلى البيت ؟

ـ نعم

أمسك محمد يد زوجته، و هما خارجان نطر إليها فرأى بعيونها كلاما.

ـ ماذا ؟

ـ كنت أريد أن أطلب منك شيئا .

ـ ماذا ؟

ـ أيمكنك أخذ عطلة ؟

ابتسم محمد وهو يسأل :

ـ لماذا ؟

ـ أيمكننا السفر مجددا إلى إيطاليا!!

انفجر ضاحكا وهو يراوغ و يقول :

ـ لماذا ؟

ـ لتمضية شهر عسلنا الذي لم نمضه.

ابتسم هو مجيبا :

ـ ربما يمكنني تدبر ذلك، لكنني لا أظن أنني أستطيع الانتظار حتى سفرنا .

هذه المرة انفجرت سلمى ضاحكة وقد احمرت وجنتاها خجلا، ثم سمعت زوجها يضحك بدوره، وضعت رأسها على كتفه وهي تعد نفسها بأيام أجمل من تلك التي مضت وهي تقول :

ـ و من تحدث عن الانتظار !!

ضمها بذراعه ووضع قبلة على رأسها وهما يتقدمان في خطوات مترافقة إلى مستقبل يعدهما بفرح كبير وحب أكبر، لقد تاها عن بعضهما وهما يبحثان عن خيالات مرسومة في عالم افتراضي، بينما كان الواقع أجمل بكثير، بين أيديهما لا يرتجي إلا ضمة من قلبيهما، وها هما الآن يدركان جمال قدرهما، يعانقانه بوعد الدوام، وشوق اللقاء .

كان طارق ينتظر قدوم شقيقته، إحساسه بالضيق من هذا المكان البارد جدا والمغلق بشكل رهيب يطغى عليه وهو يتخيلها تقضي أيامها وتبيت لياليها هنا، شقيقته الصّغيرة المدللة، انقلب عليها الزمان ورماها في أسوأ مكان يمكن للمرء أن يتواجد فيه، كيف حالها ؟ كيف تتحمل هذا الوضع ؟

قطع أفكاره دخولها وحارسة السّجن تتبعها، انكسرت نظرتها بمجرد التقائها بنظراته فطأطأت رأسها متقدمة في خوف ووجل، تطيعها قدماها مرة وتعصيها مرتان، وقف هو وأمسك بيدها يسحبها للجلوس و قد أدرك حالتها، بينما لم تكن قادرة على النظر في عينيه، يغطيها إحساسها بعارها وبما جاهدت لإخفائه وتحملت من أجله كل سادية ذلك الرّجل الذي تزوجته، لتفقد في النهاية قدرتها على الاحتمال وتكشف بفعلتها ما أخفته عن عائلتها.

سمعت صوته الذي طالما كان مرحا رغم قوته، لكنه كان اليوم مختلفا، قويا، لكن مثقلا بالهم

- كيف حالك ؟

أدرك بمجرد مغادرة الكلمات لفمه أن سؤاله كان غبيا، كيف يمكن أن تكون حال امرأة قتلت زوجها وألقيت في السجن، فأضاف دون أن ينتظر منها جوابا :

- لقد تحدثت مع محاميتك و أخبرتني بكل شيء.

سمع شهقاتها و هي لا تتجرأ بعد على النظر إليه وجاءها صوته معاتبا :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

زاد نحيبها وهي عاجزة عن الرّد تتوقع أن سؤاله لماذا قتلته لكنه أردف كمن يوضح

ـ لماذا تزوجت به ؟ لماذا احتملت كل ذلك دون أن تخبريني ؟ لقد كنت دائما شقيقك الأكبر الذي تلجئين إليه في كل شيء، لماذا في هذه بالذات أقصيتني من حياتك ؟ لماذا جعلته ينظر إلي كل يوم مستهزئا بي، بينما كان يدنس شرفي كل يوم ويعتدي على حرمتي ؟ لماذا تركت يدي تصافح يده وهو يضحك في سرّه من غبائي ؟ لماذا لم تتركيه لي لأقتله أنا ؟ لماذا لم تتركي لي فرصة غسل شرفي المهدور ؟ كيف سأواجه الناس اليوم ؟ ماذا سأقول لهم ؟ كنت عاجزا عن حماية شرف شقيقتي، حتى غسلته هي بقتل ذلك الحيوان.

سكت قليلا يترقب ردها، لكن لم يقابله إلا البكاء فأضاف :

ـ أتدركين أن الصّحافة تتابع القضية، أتتوقعين ما الذي حدث لوالديك عندما علما بأنك قتلت زوجك، هل تتوقعين ما الذي سيحدث لهما عندما يعرفان كل التفاصيل، وكيف سيواجهان نظرات الناس؟ أتدركين أن عائلة زوج شقيقتك ستعرف ما فعلته أختها.

هزها من كتفها رافعا رأسها إلى الأعلى وهالته النظرة الجامدة التي غطت مقلتيها برغم الدّموع التي كانت تغرق وجهها، تجمدت بين ذراعيه و سقط رأسها على

كتفها، عينيها مغمضتين، لم تكن هنا، كانت في عالم آخر، هزها بقوة يترقب ردة فعل منها، لكن لاشيء بدأ في الصراخ :

ـ طبيب، أريد طبيبا هنا بسرعة.

تم نقلها إلى عيادة السّجن الطبية وهو ينتظر خارجا لا يعرف ما الذي حدث لشقيقته، تلك التي رآها هناك لم تكن أحلام، كانت كابوسا سيطارده لبقية أيام عمره، لقد ماتت شقيقته، لم يبق منها إلا الجسد أما روحها فقد غادرت، إنها متهمة بقتل زوجها لكن الحقيقة أن ذلك الرجل هو من قتلها، ما أصعب أن تموت الروح و يبقى الجسد حيا، تلك أصعب حالات الموت على الإطلاق، أن يتشبث جسدك بالحياة بينما روحك وافتها المنية، فتحيا أنت جسدا بلا روح ...

عندما دعته الطبيبة أخيرا لتخبره أنها دخلت في حالة صرع، لقد أفاقت لكن حالتها صعبة وترفض الكلام.

أدرك هو أن ما قاله لها زاد في سوء حالتها ربما كان سببا في حالة الصرع هذه، لم يكن ينوي قول تلك الكلمات، لكنه لم يستطع منعها وهي تنساب معاتبة لها.

بعد عدة أيام زارها مرة أخرى، كان حريصا هذه المرة على انتقاء كلماته، حاول مواساتها وطمأنتها، أعلمها أنه سيقف إلى جانبها حتى النهاية، كانت أكثر هدوءا، لا تتحدث إلا قليلا، سألته عن والديها، دون أن تتجرأ عن سؤاله لما لم يزوراها، و لم يشأ هو أن يدخل في أية تفاصيل قد تزيد حالتها سوءا .

منذ سفره لمتابعة قضية شقيقته أحلام وهي تتابع أخباره بالهاتف عن طريق شقيقتها، عرفت من عماد أن حالته سيئة جدا وأن القضية معقدة، وفرصة أحلام في الخروج من السّجن ضعيفة، كانت ترثي لحاله وهي تسمع من شقيقتها وصف ضياعه ومحاولته جبر الكسر الذي أحدثته القضية في عائلته، كان عماد يصف لها رجلا آخر غير الذي عرفته خلال زواجها به، رجل مكسور، مقهور، لكنه يقاوم من أجل عائلته .

داخلة إلى المستشفى، وصلتها رسالة جديدة على هاتفها، فتحتها بتخاذل تتوقعها فارغة ككل مرة، لكن خطواتها توقفت فجأة لتقرأ الرسالة :

أنا الصمت و الصمت أنا

أنا القهر و الكبرياء

أنا الشاعر و الضاد في فمه

أنا الفارس و السّيف في يمناه

أنا العاشق قلبه بين يديه

أنا من كان معبود النساء

أنا الذي يقف اليوم على بابك

كسير الحب بلا استحياء

أنا الذي يطلب صفحك

فلا ترديني بحق السماء

لا تعلم ما الذي حدث في تلك اللحظة، أحست بروحه تحوم حولها، رفعت رأسها تبحث عنه واصطدمت عيناها بنظراته المنكسرة، بعيدا لا يجرؤ على الاقتراب، يخاف أن يحترق إن اقترب، لم يعد قادرا على قربها الذي سيقتله ولا على بعدها الذي يذبحه، لم يعد قادرا على تحمل كل هذا الضغط في حياته، إحساسه بأن القدر يعاقبه كان يدفعه طيلة الأيام السابقة للعودة إليها وطلب الصفح منها، حتى لو رفضت العودة إليه، لم يعد يرجو سوى صفحها ومغفرتها، ألم يسكنه لم يجد ما يسكته، أوجاعه تصرخ تطلب مسكنا ويعلم ألا مسكن لها سواها، يرتجي حضنها لينهل منه بعض القوة ليواصل النضال، لكنه لم يكن يعرف أن رؤيتها ستشعل فيه هذه النيران .

ساقتها قدماها بلا وعي منها إلى حيث كان واقفا، تتأمل انكسار روحه الذي ينعكس في عينيه

مدت يدها تقربها من وجهه، فتراجع إلى الوراء وهو يغمض عينيه كمن يخفي ألمه، نظرت إليه متعجبة فجاءها صوته مذبوحا متخبطا:

ـ أخشى أن يحرقك لهيب نار اشتياقي و لهفتي، يكفي أن أحترق وحدي فلا تقتربي أرجوك، أنا رجل ملعون والأقدار تعاقبني بأقسى طريقة ممكنة، بفقدك أنت، ثم

بإدراكي أنك حامل وإدراكي الآن أن طفلي سيتربى بعيدا عني، وبمصيبتي في شقيقتي القابعة في السجن وعدم قدرتي على فعل شيء لإخراجها منه، أردت رؤيتك فقط لعلي أستمد القدرة على مواصلة القتال من أجل عائلتي التي تضيع أمام عيني، أردت فقط أن أقول لك أنني آسف، بقدر أوجاعي وأوجاعك أنا آسف، بقدر آلام عائلتي وضياعها أنا آسف، بقدر إيماني الآن أنني لا أستحقك أنا آسف .

اقتربت منه خطوة فتراجع خطوتين :

ـ لم أكن أعرف أن رؤيتك ستكون مؤلمة هكذا، ما عدت أملك زمام نفسي و لا عدت أسيطر على عقلي، لا آمن عليك مني ومن لعنتي، ابتعدي أرجوك.

خطت خطوتين حتى ما عاد يفرق بينهما سوى شطحات أنفاس متصادمة، تسارعت أنفاسه وسقطت كل أسلحته، وضع جبينه على جبينها وخانته دمعة غادرة، سقطت على خده قاومها منذ رآها تقترب وهو يقول :

ـ أنا متعب، أختنق، الدنيا أُغلقت في وجهي وما عدت أعرف أين أوجه وجهي، متعب من رحيلك، متعب مما يحدث لأحلام، متعب مني لأني أعرف أنني السّبب في كل هذا.

وضعت كفها على خده تتحسس دموعه غير مصدقة لما تراه، ربما غمائم دموعها تخيلتها في عينيه، ربما أملها فيه الذي ظنت نفسها قتلته بداخلها استيقظ، ليجعلها تحلم من جديد وتتخيل أنه يبكي، لكن إحساسها بدموعه تبلل أناملها، بدد شيئا

من شكها، وضعت شفتيها على إحدى عينيه سحبتها وهي تمرر لسانها عليها تتأكد من الطعم المالح، إنه طعم الدموع، لم يبق لديها شك إنه يبكي فعلا، أيعقل أن يكون هذا الرجل الذي عرفته دائما بذاك العنفوان يبكي الآن حبها مستجديا الغفران، أيعقل أن يكون زوجها ذلك القاسي صاحب القلب المتحجر الذي لم يعترف يوما بالحب، هو الرجل الذي يبكي بين يديها الآن، أخدت وجهه بين كفيها و هي لاتزال معلقة بين قلبه و بين الأحزان، غير عابئة بمن يوجد معها في هذا الزمان و حبه يملأ عليها المكان ابتسمت بين دموعها و هي تقول :

ـ أنا هنا، أنا معك، أحبك أيها الأحمق، أحبك رغم كل شيء، أنا هنا مستعدة للوقوف معك، مستعدة لمنحك قوتي إن احتجت.

ضمها هو إلى حضنه يكاد يعتصر أضلاعها بين ذراعيه يستمد منها القوة، عله برجوعها إليه يستطيع مواصلة القتال، علها بوجودها من جديد في حياته تساعده على الصبر على الأحزان.

عاد طارق ولبنى إلى أرض الوطن زوجين متحابين متفاهمين لا يأرقهما سوى قضية أحلام ومصيرها المجهول، كانت القضية تسير ببطء شديد إجراءات طويلة، خبرة أكدت أن أحلام كانت في كامل قواها العقلية عندما قتلت زوجها، وخبرة ثانية أكدت أنها كانت تعاني من جنون مؤقت، الخبرة الثالثة والتي كانت ستفصل في الأمر دخل فيها طارق في مساومات كبيرة مع الخبير حتى يؤكد حالة الجنون المؤقت بعد أن عرف أن الخبير ممن يبيعون ذممهم لمن يدفع أكثر، تجدد أمر الحبس المؤقت

لشقيقته مرات متتالية دون تحديد جلسة للمحاكمة، رفض والده زيارة أحلام وأعلن غضبه عليها إلى يوم الدين، لم يكن طارق قادرا على إخبار شقيقته بهذا الأمر، لكنها كانت تدرك ذلك في قرارة نفسها، والدتها أيضا لم تأت لزيارتها، والدها حلف عليها بالطلاق إن هي فعلت، الوحيد الذي كان يزورها هو طارق، الوحيد الذي كان واقفا بجوارها مساندا لها، هو شقيقها الذي أخفى عنها أيضا أنه حدثت مشاكل كبيرة بين شقيقتها وعائلة زوجها كادت تصل إلى الطلاق، لولا التعقل في آخر لحظة رفقا بالأولاد، ما فعلته أحلام دمر عائلة بأكملها، لكن طارق هو الوحيد الذي لم يستطع تحميلها كامل المسؤولية، كان يعرف أنها أخطأت، لكنه كان أعلم الناس أن رجلا أحمقا مريضا هو الذي دفعها لفعل ما فعلت، هي أخطأت عندما وثقت به و آمنته على روحها، لكن كل ما حدث بعدها لم يكن إلا خطأ ذلك الرجل الذي رباه مجتمعه على أنه مهما فعل لا يحاسب، كل ماحدث لعائلته بعد ذلك كان نتيجة تربية خاطئة، حاسبت شقيقته على قتلها لزوجها مرة واحدة ورفضت محاسبته هو على قتلها مرات ومرات .

ذات صباح، تلقى طارق مكالمة هاتفية في وقت صلاة الفجر تعلمه أن شقيقته في حالة حرجة، ذهب مسرعا لرؤيتها، استقبله مدير السّجن معزيا يخبره أن شقيقته وجدت ميتة على سجادة صلاتها في وقت الفجر، علم من رفيقتها في الزنزانة أن أحلام كانت تواضب منذ فترة على قيام الليل و صلاة الفجر و تأدية الصلوات في وقتها.

تولى إجراءات دفنها، حضر الجنازة عدد قليل من الناس، رفض والدها حضور الجنازة بينما سمح أخيرا لوالدتها برؤية ابنتها ميتة، خرجت الجنازة من بيت طارق وليس من بيت والده الذي أبى أن يقيم عزاءً لابنته، لأنه اعتبر أن ابنته ماتت منذ زمن، لقد غفر الله لها، لكن الناس ترفض أن تغفر، كأنهم ينصبون أنفسهم قضاة لا يجيدون إلا الجلد.

بكى طارق ليلتها بكاءً مريرا، بكى شقيقته التي ضاعت من بين يديه، بكى ذنوبه التي ارتكبها والتي مازال يظن أن ما حدث لأخته كان جزءا من تخليصها، بكى مرارة ظلم لم يستطع رفعه عن شقيقته، و لأول مرة في حياته توضأ ووضع رأسه على سجادة الصلاة، يناجي ربا رحم أخته عندما اختارها إلى جواره لأنه أعلم بظلم البشر الذين لم يكونوا ليرحموها، حتى لو برأتها المحكمة، لأول مرة في حياته يدرك متيقنا أن الله موجود بهذا القرب، لأول مرة يشعر بأنه يريد أن يكون قريبا من الله .

****

كان طارق جالسا على حافة السرير الذي ترقد به زوجته و هي تحمل بين يديها ابنتهما ينظران إليها كليهما، غير مصدقان هذه المعجزة الإلهية التي حباهما الله بها، عينان بلون عيني والدتها وشعر والدها، مزيج رائع بينه و بين حبيبته، يتأملها طارق و يخشى حملها، صغيرة جدا، رقيقة جدا، تعلق قلبه بها قبل رؤيتها وهام بها بعد رؤيتها .

نظر إلى زوجته، فوجد عيناها متلألئتان بالدموع تراقب ابنتهما في حب يكاد يقفز من عينيها، رفعت عينيها إليه فوجدته ينظر إليها نظرة جديدة، نظرة حب مليئة بالامتنان، عندما سمعته يسألها :

ـ ماذا سنسمي ابنتنا ؟

أجابت بدون تردد :

ـ أحلام

اتسعت عيناه دهشة، ثم غامت بحزن شديد وهو يتذكر شقيقته التي خدعتها مظاهر كاذبة واسقطتها في الغلط الذي لم يغفره لها مجتمعها، فماتت بحسرتها والشيء الوحيد الذي يصبره اليوم هو موتها ساجدة على حصيرة الصّلاة في ساعة الفجر، يمني نفسه أن الله تقبلها عنده وتقبل صادق توبتها، يمني نفسه أن الله أرسل لهم هذه الإشارة، حتى يتقبلوا موتها و يصبروا على فراقها، طريقة رحيلها كانت رسالة ربانية تجعلهم قبل كل شيء يغفرون لأنفسهم ويعرفون طريقهم في الحياة و قد قال سبحانه من قائل " وما خلقناكم عبثا " .

احتضن بيده العريضة كف زوجته، ممتنا أنها غفرت زلاته وسمحت له بالعودة إلى حياتها وحياة أحلامهما التي سيسعى ليكون لها والدا بمعنى الكلمة، عندما طرق الباب ودخل منه محمد وسلمى يحملان في أيديهم ورودا و بالونات ملونة، مهنئين بقدوم المولودة الجديدة، بينما بدأت أعراض الحمل تظهر خفيفة على سلمى التي

كانت تدخل شهرها الثالث ومحمد غير مصدق أنه سيصبح أبا هو الآخر في القريب العاجل .

كانت الحياة تبتسم في هذه الغرفة للموجودين بها، لكن كل واحد منهم أصبح يعرف قيمة الحياة بعد أن جرب غدرها و خداع مظاهرها، أصبح يقدر نعم الله التي حباه بها، الطريق إلى الفرح لم يكن سهلا، لكن أهم قواعده التي تعلموها أن السكينة لا تأتي من فراغ، إنما هي روح تطمئن إذا عرفت الله، الحياة لن تخلو من المصاعب، لكن ما خاب من تعلق بالله .

انتهت بحمد الله

في 15/ 04/ 2017

قصيدتي " أكرهك " و " أنا الصمت " من تأليف الكاتبة